نداء الهجرة (١)

بقلم: شاكر مصطفى

في حديث الهجرة والمهاجرين في (سبعون) يروي ميخائيل نعيمة، ما كان شائعاً بين القدامى في الضيعة (بسكنتا)، من نبوءة ذلك المجنون الذي كان «يحمل قصبة ويطوف أحياء البلدة في كل يوم منادياً بأعلى صوته:
«رجالكم! نسوانكم! أولادكم! دجاجكم!
«عَ البحور! عَ البحور!»

(١) صفحات من كتاب قيد الطبع حول المغتربين في امريكا اللاتينية خاصة. وهذه الصفحات إنما هي محاولة لتحليل أسباب الهجرة التي استمرت اكثر من نصف قرن من سورية ولبنان. لقد بدأت في الاتساع حوالي سنة ١٨٧٥ ثم ارتفعت ارقامها حوالي سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩٠٠ ثم بلغت الأوج قبيل الحرب العالمية الأولى ولم يهدأ تيارها الهدوء النسبي الا حوالي سنة ١٩٣٠ وإن لم ينقطع حتى الآن.

تلك النبوءة التي كان يصرخ بها المجنون ، للناس كل يوم ، كانت تمثل الشكل القدري الفاجع الذي أخذه ، في الخيال الشعبي المذعور ، نداء الهجرة المجنون عبر القرى الجبلية أواخر القرن الماضي ! كانت الهجرة نداء ، سيريناً ، ينازل ، يسكر ، يخدر ، يغني للشباب كل الشباب . كانت تحدياً ينتصب للجميع على مدارج العشرين . وأضحى لها ، مع الأيام ، طعم العادة المألوفة ، وحتمية القدر الذي لامهرب منه . لقد مقتها الأمهات ويكرهها الآباء ولكنهم جميعاً ، مع الجدود والخالات وبنات العم المنتظرات يستسلمون لها في النهاية ، عن يد ، وهم صاغرون !

لأول مرة ، لم يعد البحر المجاور للسواحل الجبلية ، منبسطاً لانهائياً أنيساً وديعاً من الماء الالهي . لقد تحول في أعين الآباء والشيوخ والنساء وصغار الاطفال الى هوة وحشية ، مرعبة القاع تهدد ، كلما جارت باخرة قادمة ، بابتلاع وجبة من فتيان الجبال المجاورة ! هو تنين (مارجرجس) عاد يتقاضى إتاوته البشرية ، على الخليج ، مع كل باخرة ... ولكن من الشباب ! وكلما حملت الباخرة دفعة زاد نهم البحر في الغد ، الى دفعة اكبر واكثر عدداً . وأتت سنوات كان فيها قدر الهجرة كالطوفان يمس الجميع ويكاد يجرف الجميع :

ع َ البحور !

ع َ البحور !

فيم كانت هذه الصرخة ، واستجاب لها الناس ؟ فيم كانت الهجرة ، في الجذور العميقة وفي الأسباب القريبة والبعيدة ؟

مامن كتاب تحدث عن الغربة والمغتربين ، من قريب أو بعيد ، الا وقف

عند أسباب الهجرة تفصيلاً وترديداً . ولقد أضحى من العرف الكلاسيكي ، أن نتحدث عن الفقر ، وعن الاضطهاد الديني والسياسي كعوامل كافية لتفسير ذلك الفيض البشري الكبير الذي حملته من أرضنـا البحار ، أوسع البحار ، وأبعد البحار .

أليس ثمة يا ترى الكثير أو القليل ممـا يمكن أن يقال في تحليل نداء الهجرة ؟ بلى ! ويظل في البحث الموضوعي مكان لنور جديد . ان القوى المسببة والمحركة للهجرة ، غالباً ما مر عليها البحث السطحي العابر . بداهتهـا المقبولة بالاختصار ، أبعدت ضرورة العمق والتحليل عنها . ولا بد لمساورتها والطراد وراء جذورها من اثبات بعض الحقائق الأولية بين اليدين :

هذه الهجرة أولاً لم تكن هجرة عادية محدودة الأعداد والمدى .

كانت هجرة تاريخية ضخمة ، لا سيما اذا قيست كماً وكيفاً بالكتلة البشرية التي انفصلت عنها . لسنا الى الغلو إن رأيناها تعدل بعض الهجرات الكبرى التي عرفها التاريخ . تمددها على عشرات السنين وتوزع أفرادها على آلاف البواخر لا يقللان من شأنها ، وخطرها الواسع العميق . ان هجرة تجرف — فيما بين أربعين الى خمسين سنة — ما بين ٨٠٠ الف الى الف الف انسان ، تخرجهم من ديارهم ، تسلخهم عن آبائهم والاخوة ، عن ترابهم الدافىء ، عن الساحة والتنور ، وعن غوى الميجانا والشباب ، عن بسمة وراء « الخصاص » المتعانقة في الزقاق الضيق لتلقيهم على الموج للمجهول المرعب ، ليست بالهجرة العادية الهينة . العصا السحرية التي تسوق الناس من القرية والمدينة الى أرض غير الأرض وناس غير الناس — ولو فعلت على هون وبطء — والتي تتخطف شخصاً من كل أربعة أشخاص

في مجتمع ما (١) ، لتقذفه غرباً مع الرياح الأربع ، بأنحاء الأرض الأربعة لهي حدث اجتماعي ، تاريخ خطير . ويجب أن تكون له بدوره اسبابه الخطيرة !

ولقد كانت هذه الهجرة ثانياً أحد مظاهر اليقظة العربية ، في هذا الشرق العربي . كانت نتيجة وسبباً لها ، في وقت معاً ، وبشكل دوري متقابل التأثير . المجتمع العربي في سورية عبر ، بالهجرة — بين التغيرات الأخرى التي تمخض بها — عن تغيرات جذرية معقدة كانت تبرعم فيه . وما كانت تلك التغيرات بسيطة لتكون أسباب الهجرة بدورها بسيطة . ولا اقتصرت الهجرة على فترة صغيرة محدودة لتكون الأسباب بدورها معدودة محدودة وتخلو هي أيضاً من التطور والتعقد والتغير مع الزمن أومن الاختفاء أيضاً .

وتلك التغيرات الاجتماعية ثالثاً هي الخلفية التي لابد من تمثلها لفهم تيار الهجرة ، في تكونه وغزارته ثم في انقطاع مواسمه !

ا — نقطة الانطلاق كانت « يقظة المجتمع الشامي على العالم الخارجي (الأوروبي خاصة) واتصاله المتادي بذلك العالم وشعوره أنه عالم متفوق وأنه أكثر تطوراً وتقدماً وإمكاناً . » جميع الأحداث والتغيرات التي طرأت عليها (المنطقة) من سياسية واجتماعية واقتصادية وروحيــة وعقلية يمكن ردها مباشرة او بالواسطة الى هذا العامل : وقع الحضارة الغربية في حياة الناس (٢) » .

بلى ! لم يكن هذا المجتمع معزولاً كامل العزلة ، من قبل ، عن دنيــا الناس . كان به أفراد ساحوا او تعلموا او اتصلوا بالتجارة ، مع العالم الغربي . ولكن دخول ابراهيم باشا خاصة ، مع النظام الحديث والفرنسيين ، ثم تسال الانكليز الى سورية هو الذي فتح الكثير من الاعين على الدنيا الاخرى . ثم جاءت قناة السويس تعيد طريق التجارة العالمية الى الشرق العربي بعيد انقطاع - ٣٥

(١) تقدير السكان في سورية الطبيعية (بلاد الشام) في مطالع هذا القرن يتراوح مابين ٣ الى ٤ ملايين نسمة (٣،٦٧٥٠٠٠ سنة ١٩١٤) وتقدير المغتربين يتراوح بين ٧٥٠ ألفاً الى المليون مغترب ، عدا الذراري .

(٢) فيليب حتي : (لبنان في التاريخ ص ٥٥٠)

سنة . وجاءت من هذا وذاك البعثات التبشيرية والتدخلات الاجنبية (عن طريق القناصل خاصة) وجاء السواح وجاء التعليم والمدارس ، وتجاوبت الأصداء بمبادىء الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة وحقوق الانسان ، وانتشرت اخبار الحكم الدستوري ومبدأ الوحدات القومية ونهضة اليابان... أغريب إذن ان ينفتح، في الناس ، تيار من التطلع الى هذا الجديد القوي وراء البحر ؟

ب — ونضجت شيئاً شيئاً ، تلك التناقضات الداخليـة في المجتمع الشامي وتحولت الى نوع من الرفض للواقع القائم ، الى برم بالتقاليد وبالمستعمر العثماني، وبنمط الحياة والعائلة والكهنوت والعمل للوروث والانتـاج التقليدي . لقد عبر المجتمع عن هـذا كله بعدد من التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل والفنية !

ج — وبدأ المجتمع الشامي يتحول من الطور الساكن السلبي ، الذي امضى عليه العهد العثماني الاول كله ، الى الطور المتحرك الايجابي . أخذ يتصدع بالتدريج التكوين الطبقي للمجتمع القائم على الاقطاعية العسكرية والزراعة والعائلة الابوية العشائرية. أخذت تظهر فيه ، ببطء وفي هدوء مديد ، طبقة وسطى حديثة ، بورجوازية ناشئة لاتقيدها ولا تكفي طموحها الثوري حدود الحياة الزراعية والاقطاعية والاجتماعية السابقة .

د — هذا التحول الاجتماعي كله كان ينعكس بشكل أزمات في نفوس بعض الأفراد وفي ظروف بعض المناطق . وكانت الهجرة تشكل الحل الجاهز القريب ! «الهربية ثلثين الشجاعة» كذلك يقول المثل العامي الدارج . ولئن كانت الهجرة في حد ذاتها أزمة قاسية في التاريخ الفردي الا ان مصاعب البقاء كانت في بعض الاحيان ، أقسى وأنكى !

من خلال هذه الاجواء الممهّدة ، المتطورة ، يمكن ان نفهم ، عن قرب، العوامل المباشرة الاخرى : كيف لعبت دورها الطارد — الجاذب ، في تكوين الهجرة والسيل المهاجر ؟

اولا : العوامل الاقتصادية :

وقد تكون هي الأهم والأقوى . « طلب المال في الدرجة الاولى لا طلب الحرية السياسية ولا الدينية هو الباعث الأكبر على المهاجرة[1] » .

(١) فيليب حتي : (مقدمة تاريخ التجارة السورية في المهاجر الاميركية)

كذلك يقول مهاجر من كبار المؤرخين. ولكن يجب الا يفهم من «العوامل الاقتصادية»، قصة الجوع والاضلاع السوداء واستفاف التراب. هذه العوامل ليس تعني كلها الفقر. انها قد تعني ايضاً الهرب منه. وقد تعني طلب الغنى، وتعني أيضا تغير اسلوب العمل في المجتمع، اضطراب الانتاج، فقد الاسواق، ضيق المجال على اليد العاملة، اختلال التوازن بين الدخل والحاجة..

واذا كان مصدر الثروة في الشام هو الارض. فلنبدأ من الأرض!

ان دراسة البقاع التي هاجر منها السكان (مناطق الجبال: لبنان، القلمون، العلويين، جبل عامل، حرمون) تكشف عن ألوان الصعوبات التي تهون على سا كنيها تركها. فقر التراب، التضاريس الصخرية، عدم انتظام المياه، اشكال التربة، الخضوع لأهواء المناخ، كلها لا تسمح بقيام زراعة واسعة ولا عميقة ولا منتظمة الدخل. حتى شكل التضاريس الجبلي يجعل من الجبل العلوي واللبناني ومن القلمون وحرمون وجبل عامل مراكز تشتيت للسكان، وبقاع ملاجيء لا مراكز تجمع واستغلال. فوجود القرى في هذه المناطق يرجع الى عوامل تاريخية اكثر منه الى عوامل جغرافية.

ثم ان توزيع الاراضي التوزيع الاقطاعي واحترام الطرق الزراعيـــة القديمة قد وقف في وجه كل زيادة في الانتاج، في الوقت الذي كانت فيه خصوبة النساء اكبر من امكان التربة المحدود. أغريب بعد هـذا أن تؤدي كل زيادة في السكان الى انخفـاض مستوى العيش، بصورة عامة، ومن ثم الى هجرة بعض العناصر الفائضة؟

من الجهة الأخرى يجب ان نرى الى انتشار طرق المواصلات، والوسائل الحديثة من الحياة والحضارة المادية وما تركته من أثر في اختلال التوازن بين المنتجات (الزراعية المحدودة) وبين الحاجات الحياتية المتزايدة. كانت موارد الجبال أعجز

من أن تقوم بالمعيشة الاحسن التي يطمع بها كل فرد اتصل ، بشكل أو بآخر ، مع الحياة الحديثة . ليس معنى قلة الثروة الانتاجية عدم امكان الحياة، ولكن صعوبة العيش الرافه . كان (الرزاق) لا يعطي بقدر حاجة (البعزاق)[1] أو على الأقل بقدر آماله !

تلك بعض قصة الريف والهجرة من الريف أو قد تكون . أما المراكز المدنية ، اما حمص خاصة وحلب ودمشق وبيت لحم ، فان ظروفاً اقتصادية أخرى قد ربطتها وربطت الريف نفسه معها بدولاب الهجرة النزاف !

لقد كان القرن التاسع عشر في مجمله قرن انحطاط اقتصادي ، غلب البؤس فيه ، في بلاد الشام . الاضطراب السياسي (من الحملة المصرية ثم الثورات داخلية والطائفية) كان يزيد من عضة الافقار ، كما يزيد فيها المحل حيناً والجراد حيناً آخر ، والأوبئة ، وقطع الطريق وفداحة الضرائب ، مع غياب الحكومة ! .. وكان غير المسلمين ، في كثير من الظروف اكثر تأثراً من المسلمين بمقابيل هذا الوضع . وقد أضيف الى ذلك التكاثر الديمغرافي الواسع ولا سيما في المناطق الصعبة وانحطاط الصناعات التقليدية وتقلص النشاط التجاري ..

الفقر وحده كان الشبح المهدد ، المتزايد السلطة . كان احياناً القدر الذي لامفر منه ، في كثير من الازمات وكثير من البقاع . فلما فتح طريق البحر ، على الناس ، وجدوا فيه ، لا أخف الشرور بل الحل الأمثل !

ما رضيت البين لولا شدة   وجدتني ساعة البين أشد (صيدح)

هذه الشدائد يمكن ان نتبين ملامحها في النقاط التالية :

---

(١) كلمة سريانية الأصل كانت مستعملة في جبل لبنان بمعنى (من يبذر الحب). ولاتزال مستعملة بصيغة الفعل بالعامية الدارجة . ويدعو الحراثون في الجبل عند البذار : « أنا البعزاق وانت الرزاق يا ربي » !

أ — الأوبئة والآفات : كانت تلجأ الناس بين الفينة والفينة فيهرب الكثيرون من المناطق الموبوءة ، والى خارج البلاد أحياناً : يقول مؤرخ معاصر (نعمان القساطلي) في أخبار دمشق ، ومثلهـا في ذلك مثل مدن الشام الاخرى : « ... في سنة ١٨٦٤ دهمها الجراد وسنة ١٨٦٥ أتاها الهواء الأصفر (وكان جاءها من قبل سنة ٨٥٢) وفي سنة ٦٧ كان غلاء شديد (بسبب القحط). استمر حتى سنة ٧١ وسنة ٧٣ احتبست الامطار فصار غلاء وقحط. وأكل بعضهم البقول . وسنة ٧٥ جاءها الهواء الاصفر ثالثة . وأواخر السنة كان فيضان بردى وسنة ٧٦ وسنة ٧٧ تأخرت الأحوال بسبب الحروب الأهلية وحروب الدولة العاشـة مع الروس وسنة ٧٨ كان غلاء شديد وجراد ..(١) » ويقول تقرير أجنبي معاصر :

« ... في مطلع الخريف سنة ١٨٧٥ انتشرت الكوليرا في دمشق ومنها الى عدد من المدن الكبيرة الأخرى فنجم عنها موجة من الذعر العام هرب معها الكثيرون الى القرى . وحين هدأ الوباء ظهرت الحميات ، وفي بعض المواضع ، لاسيما في طرابلس ظهر الجدري الذي لم تكن نتائجه أقل فتكاً من الكوليرا والحميات ... (٢) » .

ب — قطع الطريق : كان مألوفاً للمسافرين والقوافل . كاد يصبح من الالفة مهنة تقليدية لبعض العاطلين ، يقومون به فرادى وجماعات في الداخل ، ولاسيما في القرى. قبائل البدو كانت بدورها تعتبر الريف مصدر دخل ، ومناطق نفوذ واستثمار :

« ... ليس ثمة من أمان للمسافرين . قطاع الطريق المتفرقون يمرحون كما يشاؤون . ينهبون المزارع . يخربون ويسرقون بكل نهج. يقترفون مظـالم مشهودة تحت سمع السلطات وبصرها .. اليـأس يمزق قلب الشعب الذي يتنفس الصعداء أمام الموت باعتبـاره أهون الشرين (٣) » .

حـ — والكثيرون هاجروا هرباً من ثقل الضرائب وعدم ثباتها ومن

---

(١) نعمان القساطلي — الروضة الغناء في تاريخ دمشق الفيحاء ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) عن التقرير السنوي التاسع والثلاثين للبعثة البروتستانية الامريكية (المطبوع في نيويورك سنة ١٨٧٦) نقلاً عن كلارك كنولتون Clark S. Knowlton صاحب كتاب (سوريون ولبنانيون) الطبعة البرتغالية ص ٢٥ ويمكن أن نجد نصوصاً كثيرة مماثلة لدى نعمان القساطلي خاصة في كتابه : (الروضة الغناء في تاريخ دمشق الفيحاء) و (حسر اللثام عن نكبات الشام) .

(٣) عن التقرير السنوي الرابع والعشرين للبعثة نفسها (طبع نيويورك سنة ١٨٦١) .

الظلم العدواني الذي كانوا يقاسونه مع الجباة . كان وجه الجابي يحل في البلد أو مع سوط العسكري كاصيبة العمياء . ولكل باشا جديد ، أو قائمقام أو متصرف ضرائبه وجباته وطرقه في تصيد الاموال من الناس . ويتبدل الباشوات والأتباع مع دورات السنين واحياناً مع الاشهر ولكن عنت الجباة والسوط باقيان دواماً . كانت وحشية الظروف واهمال السلطات ، وعدم الامان تدفع الكثيرين ولاسيا من غير المسلمين الى الهرب ، الى البحث عن حياة أفضل وأهدأ في بلاد اخرى يسودها على الأقل : القانون !

د — والتكاثر لعب دوره بين القوى النابذة . مناطق الجبال خاصة ، في لبنان والعلويين والقلمون وفلسطين ، كانت بالنسبة لمواردها القابلة للاستثمار كثيرة السكان كثرة ما انفكت تتزايد في القرن الماضي وهذا القرن . انعدام الاحصاءات لايمنع من ملاحظة واكتشاف هذه الظاهرة الاجتماعية من خلال نتائجها التي تجلت في كثرة البطالة واستمرارها وانخفاض أجور العمال الزراعيين ونمو اعداد السكان رغم نزيف الهجرة الهائل .

هـ — وجاءت سورية ضربات اقتصادية خارجية كثيرة دفعتها نحو الانهيار الاقتصادي المتمادي . سوق القمح السوري كسدت بعد ان نافسه القمح الاوكراني من روسية . وزراعة القطن انتهت او كادت بعد أن برزت مصر كبلد قطني ، وبعد أن نقل ابراهيم باشا اليها الاعداد الكبيرة من فلاحي سورية الخبراء بزراعة القطن . وتدهورت الصناعة السورية أمام غزو الصناعة الاوروبية . كان في دمشق وحدها سنة ١٨٥٢ حوالي ١٩٦٦ صناعة فلم يبق منها سنة ١٨٨٩ سوى ١٣٩٥ فقط . ومن ثلاثين ألف صانع لم يبق إلا ثمانية آلاف ! وتبع ذلك تحول الوفر القديم في الميزان التجاري الى عجز كبير ...

يقول القساطلي :

« ... منذ انتصاف هذا القرن (التاسع عشر) أخذت تجارة الشام تنحط انحطاطاً سريعاً لأن قوات خارجية ضادتها وتغلبت على مركزها التجاري وسلبته . واول نكبة دهمتها تسببت عن سير سفن التجار في البحار فخسرت تجارتها البرية مع الاستانة والروم ايلي وبر الاناضول وغيرها وتحول ذلك الى المواني البحرية ... (١) » .

و — وظهرت قبضة الضيق الاقتصادي بشكل أقسى في لبنان .

---

(١) القساطلي : الروضة الغناء ص ١٢٤

بانفصاله سنة ١٨٦١ جعله جزيرة جبلية أثار الاتراك ضدها العداء الشرس الذي خنق حياتها الاقتصادية خنقاً :

« ... أسفر ذلك الانكماش القسري عن هبوط موارد لبنان الى مستوى مخيف فبدلاً من التربة الخصبة (في السهول) أصبح السكان مضطرين الى استنبات الصخور ، وكانت اكثر الصناعات يدوية للاستهلاك المحلي ... أما في الثمار الزراعي الصرف فالنتاج المحدود لم يكن كافياً لسد الحاجة المحلية بحيث لم يكن بد من استجلاب الحبوب والماشية . ناهيك بان الاكياس الخمسمائة التي كانت الدولة العثمانية قد تعهدت بتأديتها سنوياً للبنان كتعويض عادل عما اجتثته السياسة الغاشمة من أراضيه ظلت حبراً على ورق ... (١) » .

ز — واحجات الصناعات التقليدية في لبنان : الحرير والخمور . الحرير خاصة كان مورد الحياة لمئات القرى . بحر التوت والدود كان يتحول في المواسم الى ذهب فلما فتحت قناة السويس هزم الحرير المحلي . ضربه الحرير الياباني الارخص ثم اصابته الامراض المدمرة فترة بعد فترة . ثم مات ذلك الحرير ومات مواسمه نهائياً با كتشاف الحرير الصناعي منذ سنة ١٩٢٠ . أما الكروم فتسلطت عليها دودة الكروم (الفلوكسيرا) منذ سنة ١٨٩٣ فدمرتها سنة بعد سنة ولم يجد الكرمون انتاجاً آخر مباركاً يحل محل العنب !

ح — وافتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ — وإن أدخل الوطن العربي مجدداً ضمن التيار الحضاري العالمي — إلا إنه قتل في سورية ولبنان طرق التجارة التقليدية . وأخصها تجارة الترانزيت وما تمر من دخل كبير . انهت القوافل ومحطاتها والمكارية والطرق الطويلة البعيدة في البر ... الى ايران والهنـد ! العاملون على هذه الطرق تحولوا الى البطالة والى الهرب البعيد !

القساطلي المعاصر بدوره يقول :

« ... وعندما فتحت ترعة السويس حلت بلية عظمى وطامة كبرى على تجارة دمشق لأنها سلبت كل مابقي لها من التجارة البرية وفتحت باباً قريباً للحجاز فامتنع الحجاج عن الاتيان اليها فخسرت جداول الذهب الغزيرة التي كانوا يسكبونها بها ذهاباً وإياباً ... وقد كلفت هذه السنة (١٨٧٦) اضرار ترعة السويس بتجارة دمشق لان مابقي لهـا من تجارة العراق فتح له طريق على السويس فتحول عن موانئ سورية ...(٢) » .

---

(١) توفيق ضعون في كتابه (ذكرى الهجرة) ص ٤١ .

(٢) القساطلي : الروضة الغناء ص ١٢٤ .

لقد حاول اللبنانيون بعد سنة ١٨٦١ وانقطاع التبـــادل الاقتصادي العادي بين الجبل والشاطئ المجاورة أن يعوضوا عن ذلك بالعمل في « المكاراة » عملوا في نقل التجارات على البغال والجمال والحمير . كان بأسهم والقامات الجبلية المتينة خير عون لهم على الطرق الوعرة وعلى قطاع الطريق . وامتدت شبكة « المكارية » حتى شمالي العراق وأرمينية. كانت تجلب الحنطة والماشية خاصة الى لبنان في سفرة أشهر . ولكن هذه المهنة سرعان ماتدهورت لقلة جـــدواها ، ولأن القناة والبحار قد فتحت الطريق الكبرى ...

ط — وأخيراً كان وما يزال مألوفاً للناس في الشام أن يهجر الفلاحون الرجـال وعمال الريف اراضيهم في سنوات المحل والقحط الى حيث يلقون بعض العمل في المدن أو في مناطق أخرى مجاورة ... ويرسل المجدود وغير المجدود بعض المال لمن تركهم في القرية من عيال . وقد سجل العقدان الأخيران من القرن الماضي انخفاضاً كبيراً في محاصيل الحبوب كان يزداد مع كثرة المهاجرة التي تلتهم الاذرع الشابة ! أما الآفات الزراعية والجراد فكانت مواســم دورية دائمة الزيارة . أهناك ماينعيها أو من ينعيها .

ي — يتبع هذا كله ، في النهـاية ، وجود الكثير من البؤر والاكواخ الفقيرة فقراً يتراوح بين الحاجة وبين أفجع الجوع . من دوافـــع الهجرة دون شك : « ... قدر لا تعرف اللحم الا مرة في السنة ، ونعجة يرعاها (الفـــلاح) اثني عشر شهراً لـكي يذوق لحمها في المرافع . واقطاعية تفرض ارادتها فتمالىء صاحب السلطان وولي الهيكل وتستعبد الضعيف وتشرب دمعة الفقير(١) ... » والمهاجرون — على قول الشاعر المهاجر يوسف فاخوري — من الفقر :

لو لاح في المريخ طيف غنى شدوا الى المريخ وارتحلوا !

ك — في باب الاقتصاد أيضاً يمكن أن ندرج أثر المعارض والأسواق الاقتصادية ، في أوروبا ، وفي الولايات المتحدة خاصة . كانت تجتـذب اهتمام وشوق اولئك المتصلين بالغرب. منذ معرض شيكاغو سنة١٨٥١ الى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٨٠

---

(١) الـكاتب المهاجر حبيب مسعود . من محاضرة في طرابلس سنة ١٩٤٨

الى معرض شيكاغو سنة ١٨٩٣ ومعرض سانلويس سنة ١٩٠٤ ومعارض نيويورك المتعددة، أولئك الذين كانوا يذهبون لمزف (التجيرة) وركب الخيل بالملابس الشرقية والسيف والرمح، وبيع مصنوعات فلسطين المباركة من الصلبان والايقونات والمسابح ... كانوا يتأبون السير في هذه الارض الجديدة، ويجرون وراءهم أيضاً من يلحق بهم، ويأخبار نجاحهم، من الوطن، وما دامت بضاعتهم (التي يستوردونها أحياناً من أوروبا) تستمد من أرض السيد المسيح قدسيتها والبركة، فالربح وفير وفير. ويجذب من بعدهم الكثيرين!

ثانيا : العوامل السياسية والدينية

كانت هذه العوامل مرتبطة مشتبكة الحدود لأن الحكم العثماني، في طريقته، كان لا يفرق كثيراً بينها من جهة، كما أن الاطماع الاستعمارية، كثيراً ما استغلت بعضها لاثارة بعضها الآخر من جهة أخرى.

واذا كان الحكم، نوعه وطريقته وأحداث الناس فيه، هو الخلفية التي نسجت عليها العوامل السياسية والدينية للهجرة، فذلك الحكم العثماني!! «حكومة تغل الفكر واللسان وصنم جاثم على ضفاف البوسفور يعبد جهراً ويلعن سراً وفي فمه الحياة والموت»(١)، كان سلطنة غزاة. السلطان المنقول مع باشاواته واقطاعه العسكري والحريم وأكياس نهاية السنة، من أواخر القرون الوسطى — المملوكية، الى القرن التاسع عشر، كان يحاول البقاء والتعايش، مع العصر الحديث كله .. دون ان تتكسر القواقع؛ «يلدز» رغم انه الى الغرب من البوسفور كان يتطلع دوماً الى الشرق. كان التطور بالنسبة اليه سخرية مرهقة. يمشي اليها مرغماً ويحطي بعليتة وفي خطط تعليبة، جعلت الاكثرية المسلمة تعتقد باستمرار ان هذا التطور انما هو تدخل كافر، فرنجي، لتهديم الاسلام ومن الدين والتقوى أن تناصبه العداء. بينما تظن

---

(١) حبيب مسعود الكاتب المهاجر : من محاضرة في طرابلس

الأقلية المسيحية في ذاتها الانفصال عن البلاد والدولة ، وعدم الانتماء وان المذهب الديني هو الوطن وأن الغرب المسيحي هو وحده الحماية والملجأ الأخير! الفرامانات الشاهانية : (خط شريف كلخانة) ، (الخط الهمايوني) ، دستور سنة ١٨٧٦ ، وحتى دستور سنة ١٩٠٨ لم تكن ، عند أسياد (اسلامبول دار سعادت) سوى مظلات وقائية ، وورق من الورق عليه الطغراء ، خدر على الدرب الطويل.. لم تكن مهمتها المسيرة بالمجتمع العثماني الى الغد ، الى المساواة والحرية والتنظيم الحديث ، ولكن ان ترضي « الملل والنحل » وتسكت دبابير القناصل والسفراء والبلاطات البعيدة . . الى حين !

واذا كان النزاع الدولي المتعدد الاطراف والاطماع حول ارث (الرجل المريض) قد أمد في عمر السلطان والسلطنة ، طوال القرن الماضي ، على الأقل ، الا إنه فرض نوعا من الاستقرار البغيض المستقصي فيها . فرض أن تتجمد السطوح والاطارات على أعماق ممزقها ألف تناقض داخلي وألف اصبع غريب .

برز هذا خاصة ، في ولايات الشام ، التي لم تكن في مفهوم العثمانيين والملي ، اكثر من مجموعة ملك . هنا ، كان السلطان الصغير ، الباشا ، لا يرجو في منتهى طموحه الاداري اكثر من سكون الرعية ، وملء (الكاصات) بما يرضيه ويرضي جشع (المابين) و (يلدز) ، ثم .. (بادشاهم جوق يشاه !)

الا إن نفوذه ، مع ذلك ، لم يكن يستطيع صعود المرتفعات ! المناطق الجبلية الصعبة من لبنان مثلا وجبال العلويين وجبل حوران الدرزي ، ظلت دوماً لحكمها الاقطاعي العشائري . وما كان ذلك النفوذ يهتم بغير المسلمين . لأولئك رؤساؤهم الروحيون . انهم ، في العرف العثماني ، ليسوا رعايا من الدرجة الاولى ، وذلك ما تركهم نهب التأثيرات الغربية . ثم لا شأن للباشا باضطراب الناس في السوق للرزق

أو سعيهم للعلم أو شكواهم من الداء : ليس الانسان الا ماسيى . شأن الباشا هو العسكر والسجن والجابي والقاضي وحلقة البكوات والافندية المالكين سعداء .

أما تلك الطبقة الوسطى التي كانت تتجمع من المتعلمين والحرفيين والتجار والموظفين والاطباء وصغار الملاك وأغنياء المزارعين — ومعظمها لاسيما في البدء ، من ابناء الطوائف المسيحية — والتي كانت تحمل كل ثورة القرن ة كانت تتكون وتنمو في معزل عن دنيا السلطان ، وبالرغم منه .

على ان احداثاً متتابعة كانت تصدع ذلك البناء الهمايوني المتكلس :

أ — الفتح المصري (١٨٣١ — ١٨٤٠) كان أول حدث هام دس الـ (Statu - quo) أصاب جود الوضع الراهن بضربات كثيرة . « ... وسنة ١٨٣١ ابتدأت الحوادث المهمة والانقلابات العظيمة في سورية فكانت نتيجتها ... ادخال انوار التمدن اليها (١) ... » تلك كلمة المؤرخ المعاصر . فتحت الأعين ، أثناء الفتح ومن بعده ، على الغرب القوي . وضعت بين الأيدي تجربة الغرب في الفكر والصناعة ومبادىء الحكم . دخلت الارساليات التبشيرية البلاد ، لا الى لبنان فحسب ولكن الى حلب ودمشق والناصرة والقدس وتبعتها المدارس الكثيرة والمطابع ثم ... الجرائد . تعدد القناصل ونوابهم في حلب خاصة وفي دمشق والقدس وبيروت ونابلس ، والكثير فيهم كان من مسيحيي البلاد أومن اليهود . تكاثر دخول التجار الأجانب مع مصالحهم وجاء السواح من الأمراء والشعراء والمترفين والمغامرين وراء حلم صحراوي من الف ليلة !..

واتصلت الشام بدورها مع الغرب بالمقابل . فطلاب علم ، وزوار ، وتجار ، ومهاربون... ومن لم يستطع فقراءة كتب وتسقط أخبار !

ب — والوجود المصري في الشام لم يفتح الاعين على الغرب فقط ولكنه زرع مبدأ المساواة الاجتماعية (المسلمة - المسيحية) أيضاً :

سمح النصارى بالمراكز الحكومية العالية أركبهم الخيل بعد الحرمان . ألبسهم العمائم البيضاء . منح بعضهم لقب بك . امتيازات المسلمين صارت لهم بجانب الحرية الدينية أيضاً . وتوطدت تلك

---

(١) القساطلي : الروضة الغناء ص ٨٩ .

المساواة قانونياً على الاقل (بخط كلخانة) العثماني سنة ٨٣٩ فكان من الصعب العودة عنها ، ولهذا لم تمض سنة على خروج ابراهيم باشا ، حتى كان أبناء الشام نهب التحريض الفوغائي من جانبين : باشا السلطان الذي يدعي لنفسه — تعويضاً عن الهزيمة والضعف — صفة الدفاع عن الاسلام ضد الكفر . والقناصل الأجانب الذين يفتش كل منهم عن ركائز لتدخل بلده باسم حماية هذه الطائفة أو تلك من المسيحيين والدفاع عن المساواة وحرية العقيدة !

هكذا سجلت السنوات العشرون التالية عدداً من الفتن ، في اكثر من مكان من بلاد الشام . لم تكن كلها بين المسلمين والمسيحيين ولكنها كانت أيضاً وفي أحيان كثيرة بين الطوائف المسيحية المتباينة نفسها وبتأثير التدخل الأجنبي ذاته وبزعامة القناصل والمرسلين أيضاً ! في دمشق بعد فتنة الأب توما الكبوشي سنة ٤٠ (بين المسيحيين واليهود) ثارت توترات بين المسيحيين أنفسهم ثم ثارت مع المسلمين سنة ٥٨ بسبب البدل العسكري المسيحيين وحوادث جدة وتدفق اللاجئين المسلمين من كريت (١) وفي حلب قامت سنة ٤٥ فتنة مسيحية ثم قامت سنة ٨٥٠ فتنة اخرى ضد العثمانيين حولوها طائفية . وتكرر التوتر المشحون سنة ٥٨ وسنة ٥٩ . وفي القدس قامت مشاكل وفي غزة وفي يافا وفي الناصرة (بين المسيحيين منذ سنة ٥١) وفي نابلس (سنة ٥٦ بين المسيحيين ثم مع المسلمين) … وهي فتن أشعرت الطوائف المسيحية — باعتبارها الأقلية — بالقلق وعدم الاطمئنان الروحي والاقتصادي والاجتماعي . بدأت في تقطيع جذورها العريقة بهذا التراب ، وتشويه الصفاء القديم بين أهله .

ح — ولم يختلف حظ الجبل اللبناني بين هذه الحظوظ من الفتن أيضاً . عواصف العداء التي ثارت إثر الانسحاب المصري ، بين المارونيين والدروز لم تكن مبررة . كانوا في وئام أعجب به الأجانب الزائرون (يثوس ، ولامارتين) وكان الجميع ، مع السنة والشيعة ، قد ثاروا معاً وتعاهدوا بوثيقة (العامية) التي أصدروها في انطلياس سنة ١٨٤٠ على طرد ابراهيم باشا . وهذا النزاع المستجد إنما وراءه التنازع الفرنسي — الانكليزي على النفوذ .

ثم انضم اليها عامل محلي آخر ، استغلوه ليلعب دوره ، هو ان الفلاحين المارونيين كانوا قد اعتادوا المسيرة نحو الجنوب الدرزي للعمل في الأرض . كانوا افضـــل الفلاحين وكان

---

(١) هؤلاء المهاجرون المسلمون ثم الذين تركوا منهم كريت الى دمشق اثر احتلال اليونان للجزيرة سنة ١٨٩٨ هم الذين نزلوا بسفح قاسيون وتكون منهم ولهم (حي المهاجرين) .

(المقاطعجية) الاقطاعيون الدروز بحاجة اليهم بعد هجرة عشرات الألوف من مناطقهم الى جبل حوران في الداخل . وقد جاءت حوادث سنة ١٨٤١ ثم سنة ١٨٤٥ فقطعت بالكراهية ، ماين الطرفين المتعاونين وأفقرت ، بالتالي ، الطرفين ! ...

وشهدت السنوات التالية لعب القنصلين الفرنسي والانكليزي بالدماء . وتراكم الفلاحين العاطلين في المناطق المارونية (كسروان خاصة) وازدياد التوتر الديني ، والاجتماعي ـ الاقتصادي ضد الاقطاعيين المشايخ هناك . كانت الثورة الاجتماعية الشعبية اذن تتجمع ، وعلى أساس الحرية والمساواة ! وقامت « مشيخات » الشباب « بقوة الجمهور » فاستولت على املاك المشايخ المقاطعجية ، وأضحى (طانيوس) البيطار علماً كالباشا والشيخ والقنصل والبطريق ! ولئن انتهت الثورة بالاخماد الا انها انتهت ايضاً بالقضاء على الاقطاعية — وهي مارونية — في وسط لبنان الشمالي خاصة ، وبتملك الفلاحين للأرض واسقاط سلطة العائلات التقليدية الاقطاع . كان ذلك ، في الواقع ، أحد التعبيرات عن التمرد على الظلم الاقطاعي وعن تكاثر الأيدي دون عمل . التمرد والتكاثر ، أعطيا في هذه الثورة الشعبية صيغتها الأولى وحلها البدئي وهما سوف يعبران عن نفسيهما مرة أخرى ، بالهجرة !

● — ثم جاءت حوادث سنة ١٨٦٠ التي نكبت مناطق الاقطاع الدرزي الجنوبية في لبنان كما نكبت راشيا وحاصبيا وزحلة ونكبت المدن وخاصة دمشق . أضحى معروفاً أنها كانت مؤامرة استعمارية غربية بجرمة استغلت جهل المتعصبين من الطرفين وعمى العثمانيين ! ولعب بها الغرب كله (الانكليزي والفرنسي أولاً ثم الروسي والنمسوي والروسي والامريكي) كل أوراقه . واذا كان من نتائجها إقامة نظام خاص بجبل لبنان كرس المساواة السلفة — المسيحية قانونياً الا ان من جملة تلك النتائج وضع الخطوط الحلقية في أسباب الهجرة السورية اللبنانية ، الى مصر ثم الى أمريكا بالذات .

أحداث سنة ١٨٦٠ لم تكن السبب المباشر في الهجرة ولكن الجراح العميقة التي تركتها ظلت معلقة ، كالقناديل السوداء ، في أذهان الكثيرين ، اصبح قطب التجمع للعوامل الأخرى ! كانت ذكراها تشعر المسيحيين ، خاصة وبسبب من أقليتهم ، بالانفصال ، بعدم الارتباط الكامل مع المجتمع الذي يعيشون فيه . لهذا لانسجل الهجرة من البلاد أحداً بعد سنة ١٨٦٠ مباشرة . أفرادٌ هم المهاجرون في هذه الفترة كما كانوا أفراداً أولئك الذين هاجروا قبلها . أول مهاجرين معروفين (حنا مرقس سنة ١٨٥١) و (انطون البشعلاني سنة ١٨٥٤) لم يهربا من أحداث سنة ٦٠ ولذلك لايمكن أن يكون الأفراد الذين هاجروا بعدها قد فروا منها . بعد

سنوات بدأت هجرة أعداد محدودة من الوطنيين المسلمين خاصة ومن التجار الى مصر ، في اعقاب التغلغل الأجنبي هناك وبدفع منه في ذلك. حتى سنة ١٨٧٥ لم تسجل أية هجرة جماعية من البلاد. ويجب أن ننتظر السنوات التي تلتها لتبرز : الهجرة .

لو كانت أحداث سنة ٦٠ هي السبب الاساسي لهاجر الناس إثرها ، لتراكضوا على الدروب في السنوات التالية . ولكنها إنما بلغت الذروة في إشعارهم بالواقع — الجديد — القاسي . كما أشاعت القلق حتى لدى المسلمين المتنورين . كان الطرفان المسلم والمسيحي ضحية ظلم مزدوج : عثماني — استعماري معاً . الثورة على حكم (السراي) المطلق ، وعلى الابتزاز الاقطاعي في الحقل ، وعلى السلطة الأبوية في العائلة ، والهيمنة الاكليركية من وراء الكنيسة ، هذه الثورة التي برزت في (جمهورية) طانيوس (البيطار) الشعبية ، في شمال لبنان ، كانت موجودة ، على مستويات متفاوتة ، في نفوس الكثيرين من سكان دمشق وحمص وحلب ومدن فلسطين .

تقرير معاصر يقول :

« ... إن الوضع السياسي القلق في الشرق كله ، وقلة محاصيل الحبوب جعلا الشعب في قلق على مصيره . لقد دخل الناس هنا في اتصال حميمي مع الحضارة الأوروبية . رأوا تفوقها . ولكنهم شعروا باستحالة الانتقال الى هذا المستوى ضمن قيود الحكم القائم ... (١) » .

الفرق في هذا الاستياء النامي بين فئات أهل الشام ، أن الصورة لم تكن يائسة ، في اذهان المسلمين. فهم الاكثرية وفيهم الحكم ، بينما انضمت اليها أشباح الفتن لدى الطوائف المسيحية فاذا الهوة بينهم وبين باقي المجتمع ... سوداء عميقة اوجبات الجاذبية التي يشكلها « الذهب » و « الحرية » ، والاشتراك في الدين مع الغرب (الاوروبي والامريكي) فأيدت وعمقت عوامل الفصل والطرد في نفوس المسيحيين. أبرزت الشعور لديهم بظلم وعبثية (المواطنة الناقصة) ! فأضحى الجو المسيحي ، في الشام كله ، يتطلع خارج البلاد !

هـ — أبرز النتائج الأخرى لسنة ٦٠ نتيجتان أثرتا التأثير المباشر في تحريك الهجرة من لبنان خاصة :

---

(١) التقرير الثالث والثلاثون للبعثة البروتستانتية الاميركية (المطبوع في نيويورك سنة ١٨٨٠) نقلاً عن كتاب (نولتون) .

أولهما انفصال لبنان والنظام الخاص الذي جعله متصرفية . يقول كاتب لبناني مهاجر قريب من تلك الفترة :

« ... السبب الأول في مهاجرة الالوف من اللبنانيين الذين في عنفوان العمر كل عام ، تلك المهاجرة التي خفضت عدد سكان لبنان الى ثلاثة أخماس ما كان يجب أن يكون في أحوال عادية ، هو ذلك القانون الاساسي الذي وضع سنة ١٨٦١ و سنة ١٨٦٤ . فان أشد ضرر جلبه على لبنان الذي أنا وضع لنفعه هو حصره ذلك الجبل في حدوده الحالية (يقصد سنة ١٩١٩ قبل أن يعلن لبنان الكبير سنة ١٩٢٠ ثم الجمهورية اللبنانية سنة ١٩٢٦) ... ولولاه لما كنا رأينا ذلك المشهد المؤلم ، مشهد أناس في ضنك شديد من العيش يرمون من أعالي صخورهم نظرات اليأس الى من عند سفح جبلهم من السهول الواسعة الخصبة التي يفصلهم عنها اختلال الامن واستبداد الحكام العثمانيين ...(١) » .

لقد أوجد انفصال جبل لبنان ، بملابساته يومذاك ، نوعاً من شعور العداء والتباعد بينه وبين المناطق المحيطة به ولاسيما في الساحل وبيروت ولم يكن العداء منصباً على المسيحيين ولكن على الدروز أيضاً وجميع سكان الجبل .

كاتب مهاجر آخر يقول :

« ... لقد كان من نتائج تلك الحركة ، أن لبنانيي السهول والسواحل دون أن ينقلوا قدماً وجدوا أنفسهم بين ليلة وضحاها منفصلين عن إخوانهم الجبليين ، وغرباء في عقر دارهم . وسكان الجبال الذين كانوا أصحاب ممتلكات زراعية في السهول كما أن لهم فيها مصالح تجارية وصناعية رأوا أنفسهم بأسرع من لمح الطرف مضطرين الى الاقامة في بلاد والاشتغال في أخرى. وغدا الكثيرون منهم يرجئون بل يلغون سفرهم لضرورات قاهرة ، وعلى الاخص الى بيروت تجنباً لما يتوقعونه من محرجات بل اعتداءات مجرها عليهم من لا خلاق لهم من رعاع المدينة وبعض المتعصبين الذين كانوا يكرهون سكان الجبل وعلى الاخص المسيحيين منهم . وكان المعتدون يتفالون في إحراج الجبليين حتى يخرجوهم ...(٢) » .

النتيجة الثانية : زيادة تغلغل الغرب بين الطوائف المسيحية وظهور سمعة امريكا خاصة بالغنى ! فقد تنشر القناصل من بعد سنة ٦٠ وتغلغلوا حتى أعمق القرى وتكاثرت الارساليات الدينية . وزاد الاهتمام الغربي بسورية . بعد ان شغلت المشكلة أوروبا سنتين !

---

(١) اوغست اديب باشا — لبنان بعد الحرب . الترجمة العربية ص ١٠٤

(٢) توفيق ضعون — ذكرى الهجرة ص ٤٢

وتقسم المرسلون الاميركيون الأراضي المارونية في لبنان فشكل مرسل قطعة يزور سكانها اسبوعياً وشهرياً ليوزع عليهم المؤنات، ويضحي، مع الأيام، على علاقة حميمة معهم. أما السكان فقد أضحوا يعتقدون أن اميركا التي توزع عليهم ماتوزع لهي جانب من الغنى والذهب عظيم... تقرير معاصر يقول:

«... الفقر وفقد حس المسؤولية، البخل، الاعتقاد بغنى الاميركيين الهائل، والرغبة في القاء الاعباء عليهم، جعل من الصعب اقناع المسيحيين في سورية بدفع الحسنات... ومع تكاثر مراسلي الصحف الأجنبية الكبرى في البلاد، تكاثر اهتمام الغرب وتكاثرت بالتالي البعثات التبشيرية والمساعدات. ولم تمض سنوات حتى لم تعد تخلو قرية تقريباً من ارسالية منفردة أو مدرسة إرسالية...».

و – ودخل السواح والتجار الاجانب والزائرون الفضوليون، هذا الشرق القريب هم وماينفقون فأبدوا الفكرة بغنى الغرب وخاصة بغنى اميركا الذي لاينفد. الأدلاء المكاريون. الحرس. أصحاب الفنادق... اتصلوا بجماعة الافرنج وفاتتهم وتعرفوا، من خلالهم، على العالم البعيد، رغبوا في تعلم أولادهم بالمدارس لغات أخرى ورغبوا أيضاً في الرحيل!

من أبرز السواح الحجاج إذ ذاك (دون بدرو الثاني) امبراطور البرازيل. زار الارض المقدسة ولبنان مرتين (سنة ١٨٧٧ و سنة ١٨٨٧). أذهبت الزيارة الامبراطورية دوت صدى؟ ولقد عقد معاهدة الهجرة مع الدولة العثمانية (١) وافاد منها القادمين الى أرضه من سورية بكل عطف ورعاية وأعرب عن رغبته في أن يرى أكبر عدد منهم في بلاده... التي كانت – ولا تزال – تحتاج المهاجرين. ولقد أثار، مثل غيره او أكثر من غيره رغبات الكثيرين في التعرف الى أرض الخيرات الوافرة. مجيء الربيع هل يرفضون المغامرة؟

ز – حجاج الارض المقدسة كان لهم شأن آخر في فلسطين والهجرة يختلف عن شأن السواح في لبنان والشام والراكضين الى تدمر. القدس، بيت لحم، الناصرة، رام الله والقرى التي حولها كانت تتلقف الحجاج ثم يسير بعض شبابها وراءهم حين

---

(١) بدأت مباحثات هذه المعاهدة زمن الامبراطور ولكنه أخرج من البرازيل سنة ١٨٨٩ ثم أبرمت المعاهدة من بعده في ٩ تشرين الثاني سنة ١٨٩٢.

يذهبون .. الى حيث يذهبون ! وكانوا يعرفون موضع الاستغلال في الغربيين فيحتفظون بالعمامة والقنباز والشال ويحملون الايقونات وأعمال الصدف والمسابح، بضاعة مباركة من أرض السيد المسيح!

جماعة من هؤلاء (أبرزهم حنا سرقس) وصلوا معرض شيكاغو سنة ١٨٥١ وعرضوا بضائعهم بملابسهم الشرقية ثم ذهبوا الى المكسيك فأقبل الناس على التبرك بهم... وعلى الشراء والدفع. كان نجاح هذه المغامرة وحده كافياً ليلحق بهم آخرون... على النهج نفسه ، الى المكسيك والارجنتين والى كل مكان بحيث اضحت المسابح والايقونات والالبسة العربية هي « التجـارة » لمهاجري فلسطين خاصة وللآخرين ، خلال العقود الاخيرة من القرن الماضي .

ح – ومصر بدورها شكلت بؤرة جذب لأهل الشام في عهـد الخديوي اسماعيل ، كان وادي النيل يرقص برفاه الديون ويفخ « ولي النعم » . وقد خرجت أعداد وفيرة من الشاميين الى مصر لأن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية هنـاك ، كانت تحتاج خدماتهم وأعمالهم ومهاراتهم التجارية والثقافية والادارية . أما هؤلاء فكانوا يتصورون أنهم – بدون أن يخرجوا أو يبعدوا من اطار ديارهم العثمانية والعربية – يستطيعون العيش في جو من الحرية والمساواة القانونية ، ومن الامكان المفتوح !

على أن هذه الهجرة الى مصر ، صارت بالنسبة للكثيرين ، المرحلة الاولى في السير الطويل نحو الغرب الاوروبي والاميركي والى الشرق الاقصى الاسترالي أيضاً ! ثورة عرابي ضد التدخل الانكليزي هي التي أخرجت معظم المهاجرين الشاميين من مصر وقذفت بهم الى مهاجر أخرى!

ط ـــ ونامت الشام ثلاثاً وثلاثين سنة على يد عبد الحميد.. نامت ؟ لا !

قد يكون الستار الحديدي الذي ضرب من حول الدولة قد خدر الجموع . خنق الكثير من البراعم وقتل الفرصة الاخيرة لانقاذ عرش يلدز . ولكن الطلائع المحركة في المجتمع ، القوى الثورية المتطورة قد استطاعت الفرار في صمت .. وفي كثرة كبيرة ايضاً . الظلم الخانق ، الفساد الوقـح المهمل ، الرجعية البيضاء العيون ، الارهاب الذي لاقلب له ، الحريات المتاحة فقط . لأسماك البوسفور، كلها كانت تطرد خارج الحدود ،طوعاً او كرهاً ، القوى الشابة الجديدة وتضيف الى أسباب الهجرة أسبابا منها النفي او الهرب السياسي والبحث عن الحرية !

ي ـــ ثم جاءت ١٩٠٨ والدستور العثماني فأضيف عنصر جديد للهجرة المسيحيون الذين كانوا لايؤدون الخدمة العسكرية فرضها عليهم الدستور. كانت المتاعب العسكرية للدولة بجانب اعلان المساواة تستدعيان ذلك . ولكن تطبيقه كان ثقيلاً ، ثقيلا يشبه السخرة المقيتة وحين

تكاثرت الحروب المهزومة على السلطنة في طرابلس الغرب والبلقان كثر الفرار من الجندية البغيضة التي يخدم فيها غير المسلمين لغية لا يؤمنون بها كما قد يقاسون أحياناً فيها الكثير من العنت والاحراج!. وكان الفرار غالباً الى خارج البلاد!

« ... كان من المنتظر ان تغير الثورة التركية جانباً كبيراً من الشرور التي دفعت السوريين الى الخارج وتزيد من التسهيلات وجاذبيات الحياة في سورية بصورة تحمل الاعداد الكبيرة من المهاجرين الذين هاجروا طوعاً يعودون تبعاً لعودة المهاجرين النفيين فيأهلون من جديد المدن والقرى . على أن « الفرمان » السلطاني الذي أدخل غير المسلمين في الخدمة العسكرية ، والاحصاء الجديد الذي أعلن في لبنان الآن والذي ثار الريبة في أنه ليس أكثر من حجة لتشمل الجندية لبنان أيضاً ، جعلا حتى الهجرة ترتفع من جديد . وهي تحرم البلاد الآن من جماهير من أحسن شبابها ، الذين لولا ذلك لكانوا يحرثون أراضيهم ، في سلام(١)... »

ك — وهدأت الهجرة مع الحرب العالمية الاولى . أكانت ممكنة ؟ المجاعة المدمرة التي أصابت لبنان خاصة والارهاب « الجمالي » لم يكن منها مهرب الا الى الثورة..وحين انتهت الحرب بدأت عودة المهاجرين الى البلاد . وصلها الكثيرون وتهيأ الكثيرون للوصول . . ولكن ما إن وجد الناس الحكم الفرنسي والانكليزي – الصهيوني يقسم الشام ورأوا ثورات الناس المتتالية وألا أمل في الاستقرار مع الاستعمار حتى هرب بعض العائدين وعادت موجات الهجرة من جديد . ولكنها في هذه المرة ، على الأقل ، ولأول مرة كانت هجرات مصممة على عدم العودة!

ل - وظلت النكبات السياسية تلعب الدور الاولي في هجرة هذه الفترة ومابعدها .

لقد أخرجت – بجانب الهجرة العادية التي بدأت في الانقطاع منذ سنة ١٩٢٩ – موجتين:

الاولى : عند نكبة اللواء السليب (١٩٣٧ – ١٩٣٩) أخرجت ابناء اللواء الى البرازيل خاصة .

---

(١) التقرير الثالث والسبعون للبعثة البروتستانتية الامريكية (المطبوع في نيويورك سنة ١٩١٠) نقلا عن نولتون .

الأخرى : انما كانت في نكبة فلسطين ١٩٤٨ من ابناء النكبة . وبينما كان اليهود يجمعون من انحاء الارض ، على البواخر ، بيودهم ، كان الفلسطينيون بالمقابل يبدأون قصة الشتات لافي البلاد العربية حيث يضيفون الآن ولكن في الاراضي الاسريكية حيث .. لاعودة !

ثالثا : العوامل الاجتماعية — النفسية والمحلية

وكانت بذورها حشدا من وراء المهاجرين !

ا — سمعة الغنى والحرية التي كسبتها اميركا في الشرق . لقد أيدها في الناس وجود المجال الاوسع فيها لاستيعاب الهجرات المختلفة ولتمكين المهاجر المجدود من النجاح، ومن الثروة سواء في ذلك الولايات المتحدة التي كان يعنيها الناس بكلمة « اماا كا » أم الاصقاع البكر في اميركا اللاتينية . أضحت اميركا في تلك الفترات من أواخر القرن الماضي ، عجلاذهبيا له خوار . غدت اسطورة الثراء والرفاء والحرية . مغارة (علي بابا) السحرية التي لاتنتظر سوى « سمسم » السفر لتتدفق بالجوهر !

« أبو حنا اذا هاجر مع أم حنا فانما هاجر أملا في أن يكنس كم سلة ذهب من اميركا ويأتي بها الى وطنه فيبني قصراً ويشتري ما كورة حلوة ويعيش مع أم حنا وأولاده بمدخوله الكثير دون هم ولا تعتير(١)... » (أميركا أم ستة) كذلك كانوا يقولون ويقلون الآمال ! في ستة واحدة يجمع المهاجر زاد عمر . ان السر هنا لايعدله الا الرخاء الهين هناك ولهذا لم يتردد الشاعر المهاجر (مسعود سماحة) ولاغيره فصورة البلد المقبل واضحة :

سأضرب في الأرض لا خائفاً ... من البر أو لجج الأنهر
وأنزل في بلد دونـه ... سمو المجرة والمشتري
يدب الهنـاء على تربـه ... ويجري الرخاء مع الأنهر

وحين تكون شقة البحر هي وحدها ، الفاصل بين دروب الجوع او أشباحها وبين مدارج الذهب المبذول فان كل جهد للامساك بالرا كفين يضحي عبثاً من العبث !

ب — الشعور بالذلة والخسف والارهاق الروحي . كان هذا الشعور — فيما يظهر — كا لكابوس الخفي ، يعتصر كل الصدور . لا فرق بين ملة وأخرى فيه مادام

---

(١) عبد المسيح حداد (حكايات المهجر) ص ٢٢٨

لا يخاب الا الطلائع ، كل الطلائع ! ولعل هذا الشعور ما ازداد واتضح الا في العهد الحميدي . كان التناقض بين تياري السير فاجعاً ! كل ما كان يمشي بالشام الى الحياة الحديثة ، كل «الخطوط» والدساتير ، كل محـــاولات المصلحين بقيت خارج عتبات بلدنا . أما بلدنا نفسه فكان يعتصم اكثر فأكثر في قوقعة الماضي !

الكتاب والشعراء خاصة هم الذين عبروا عن هذا الموقف الرافض . حين سألوا أنفسهم : فيم هاجروا ؟ لم يجدوا من جواب سواه . شكر الله جر يقول :

ايه لبنان يشهد الله أنا ... ماهجرناك عن قلى وصلابة
انما اصبح المقام بأرض ... الأرز للحر ذلة ومعابة !!
وطن نام كالنعاج بنوه ... نومة أيقظت عليه ذئابه !

والشاعر القروي بدوره يعلن :

أبيت جـــوارها أرضاً ... بغـــير الذل لا ترضى
بـــلاد خسفها أمسى ... على أبنائهـــا فرضا !
أجس يـــد الرجاء فلا ... أحس بقلبه نبضا !!

وفوزي المعلوف يقسم :

قسماً بأهلي لم أفارق عن رضى ... أهلي وهم ذخري ور كن عمادي
لكن أنفت بأن أعيش بموطن ... عبداً ، وكنت به من الأسياد

ومسعود سماحة يبرز معنى الحرية التي يفتقد :

سأترك ارض الجدود ففيها ... حياة الجبان وموت الجري
تقيـــد أقلام أحرارهـا ... وتطلق أيدي ذوي الميسر !!

على ان هذا الشعور كان أكثر قسوة وألماً في نفوس المسيحيين . كان شعورهم بالانفصال يزيد من احساسهم بالمهانة والضيم . الأب خرباوي الذي أرخ لتاريخ المهاجرة السورية في أمريكا سنة ١٩١٣ ذكر بين أسبابها : « ... ان نصارى الشرق لا وطنية تجمعهم فهم في وطنهم في زمن دولة الاتراك كفرة و .. خونة ونحو ذلك من الالقاب التي يجود بهـا عليهم أسيادهم ..

عندما يفتح النصراني عينيه يرى حواجز منيعة تحول دونه ودون الوطنية التي أجبر على ألا يفقه لها معنى فينتمي الى مذهبه لا الى وطنه .. ساكن تركيا ينعتونه بالعثماني ظلماً وهو إما مسلم أو نصراني أو درزي أو غير ذلك وأما النصراني فأول مايجعله يشعر بكونه غريباً وليس وطنياً تذكرة النفوس التي تعطيه اياها حكومة الاتراك فتذكرة المسلم تنطق بأن جنسيته عثماني وأما تذكرة المسيحي فتصرح بأن تابعيته عثماني فهو ليس عثماني الجنسية ولكن عثماني التبعة (١)...»

٣ — وثمة بعد ذلك الجو النفسي الاجتماعي الذي خلقته دوامة الهجرة من القرى والاحياء :

كانت الهجرة « غيرة » أحيانا وعدوى احيانا اخرى ، او تقليدا او منافسة او حسدا ولكنها في كل الاحوال كانت تجر مجموعة الصحاب كما لو كانوا حلقات في سلسلة واحدة . ارأيت كيف تجر الساحرة ، في بعض الاساطير ، اطفال القرية جميعا وراءها الى الغابة . مأخوذين ؟

وكانت رسائل المغتربين لذويهم ورقى من السحر المقيمين. الحوالات التي يرسلونها، واصداء النجاح الذين اصابوه كانت تتردد كالنداء السحري الذي يغري الجميع . اما عودة بعضهم بالغنى و (حلة قرميد) فكان يدوي ، كالطبل الرن ، في القرية والقرى المجاورة ، نداء يخدر الحواس ويجمد الأفكار والآمال عند كلمة واحدة : الهجرة !

٤) وثمة من جهة أخرى جمهور المنتفعين بالسفر :

فعملاء السفر وشركات البواخر غذوا الهجرة . كانوا في الغالب ، ممن هاجر وعاد تستخدمه الوكالات في الدعاية . جولاتهم في القرى كانت حديثاً في المجالس عن الفرص الرائعة في المهاجر ، عن الطرق السهلة لكسب الذهب ، وعن كل ماقد يحتاج مزمع الهجرة أن يعرف .. ويتلقون اثر ذلك العرابين والدفعات الاولى من ثمن البطاقة !!

والمرابون بدورهم كانوا يدفعون الهجرة . يقرضون المال بالربا الفاحش والرهن على الأملاك وقد يبيعون بطاقة السفر أيضاً لحساب الشركة ويغنمون منها الربح الوفير ... هؤلاء ، فرصة جمع الذهب كانت تتاح لهم دون هجرة !

وقد يعمل الوسطاء والمرابون بالاتفاق مع مختار القرية والمتنفذين . يدفعون لهم العمولة « على الرأس ! » ، عن كل رأس مهاجر ! وقد يعملون بالاتفاق مع شبكة واسعة على طول الطريق الى المهجر .

---

(١) باسيليوس خرباوي : تاريخ الولايات المتحدة وتاريخ المهاجرة السورية ص٧٤٣ .

تقرير معاصر يقول :

« ... مهنة الهجرة أضحت رابحة جداً . الطريقة المتبعة في المانيا سنة ١٨٧٠ هي التي تستخدم هنا . يزور أحد العملاء القرية ، وهو ، في الغالب ، ممن كان في اميركا . ويقصد المجالس واضعاً الطريقة الرائعة لجمع المال ، معلماً الناس أين يذهبون ؟ وماذا يصنعون ؟.. ومن النادر أن لايحصل على عدد من الراغبين لتذكرة الباخرة . هذا الرجل هو واحد من تيار كبير من العملاء يمتدون على طول الطريق ، من سورية الى مرافىء اميركا الشمالية والجنوبية . هذه السلسلة من العملاء ، ترسل بين حين وآخر ، كما تتلقى ، التعليمات لتحاشي منطقة ما أو اعطاء الأفضلية لهذا المكان أو ذاك . ان كان للمهاجر مريضاً تحاشوا به نيويورك ، وأخذوه أولاً الى المكسيك ثم الى الشمال . انه دون شك مخطط رائع للحصول على الوكالات الممتازة من شركات الملاحة . التيار ، في هذه الآونة ، متجه نحو الأرجنتين . ولنستطيع الكلام عن الذهب الذي جمعه الوطنيون ووكلاء البواخر والمراكب ... في المرافىء . انها طريقة نجم عنها الكثير من الآلام الانسانية والمشاكل بل والجرائم أحيانا ... (١) »

هـ) وثمة المهاجرون الذين يجرون المهاجرين !.. ما أكثر مايبعث المهاجر فيستقدم اليه في المهجر ، قريباً أو صديقاً أو زوجـاً ، يدفع نفقته أو بعض المال عنه أو يؤمن عائلته في البلد . وقد يعود بعض المهاجرين أحياناً الى قريته بنفسه ليتشوق بعض المهاجرين الجدد: يذهب بجماعة منهم يتدبر امرهم في السفر وعلى البواخر وفي المرافىء ... حتى أماليكا !! كانت تجارة رابحة بما يتلقون من عمولة من شركات السفر والفنادق والمخازن ! وبما يسلفون من ثمن البطاقة ومن المال ليستردوه هناك أضعافاً !

كانت هذه الطريقة تتم باتفاق شفهي أو عقد مكتوب معرف مثله في اليونان وفي جنوب ايطاليا ، وفي المانيا ، في تلك الفترة نفسها . واطلق عليه اسم (نظام بادرون) . الذين كانوا يجمعون المهاجرين في اوروبا كانوا يحملونهم على العمل اجراء أو لاعبين أو موسيقيين أو بائعي زهور أو صانعي أحذية ، أو عمالاً في مختلف الاشغال القذرة والشاقة ... وربما يتم استيفاء المبالغ التي دفعوها عنهم مع الفوائد ... أما السوريون فكان السداد عملاً من نوع واحد : يستخدمونهم باعة متجولين في الكشة ... حتى توفى الديون !

---

(١) التقرير الثاني والسبعون للبعثة البروتستانتية الامريكية (المطبوع في نيويورك سنة ١٩٠٧) نقلاً عن نولتون .

و) وثمة الكثيرون أخيراً من آثر الهجرة على قبول بعض الظروف الاجتماعية أو السياسية . اولئك هم الهاربون . بعضهم هرب من الزوج التي اختيرت له أو من العمل الذي فرض عليه أو من المدرسة . وبعض فر من عائلته واولاده أو من اسرته . وثمة المتآمرون ، والقلقون ، وذوو الاطماع والفوضويون ، ومجرمو العدالة ، والفاشلون في الحب ... كلهم هرب الى الهجرة لأن المجتمع وقف دون رغائبه !

وثمة من بعد ، بعض المثقفين والتجار ورجال الاعمال الحرة ، الذين اشتركوا ، او أخذتهم الشبهات في بعض الاعمال أو الاراء او المؤامرات ضد الحكم التركي . هؤلاء هاجروا برغم ان الهجرة بالنسبة اليهم كانت منفى اختياريا .. واحيانا اجباريا . ولكنهم في الغالب اصبحوا قادة الرأي والناس في المهاجر الجديدة !

★

كانت الهجرة كالسيل الآتي ، ضاعت فيه ، حين تكون ، الكثير من الروافد الثانوية والتالية والفرعية التي كونته . وجرف معه ، على الزمن ، وفي طريق واحد ، الى الربى الأخيرة جماعات متفرقة الدوافع والاغراض والطبقات والأماكن ليكون منها روافد وعناصر في مجتمعات أخرى غريبة !

بلى ! ان هذه العوامل والأسباب التي ذكرت ، متفاوتة الشأن والتأثير في الهجرة : كان بعضها أساسياً هاماً ، تتراءى ظلال الراكضين من خلاله ، وبعض ثانوي الأثر جانبي أو لاحق أو عارض ، وقواها بدورها : كان بعضها ايجابياً ، وقوى نابذة طاردة تخرج الشباب الهادىء من مستقره وتفلت يده عن المحراث ، وكان بعضها الآخر سلبياً يجذب الناس من البعيد جذباً لا أقوى ولا أقهر . ومعنى تلك العوامل والأسباب أيضاً وأيضاً : كان في ظاهره عملية افقار ونزف ، تنفثه بشرية طوفانية ، من فقرنا ، لبلاد متعددة بعيدة ، مع أنه في واقعه العميق ، احدى صور النهضة العربية . ولكن اجتماع تلك العوامل معاً ، في فترة زمنية واحدة ،

واتجاهها بالناس الى ماوراء البحر ، هو الذي اعطاها ذلك الشكل القدري الذي رهبه الناس ، على فم ذلك المجنون الصارخ . حسبوه نداء المصير ذلك النداء الذي كان يطالعهم به ، كل يوم ، صاحب القصبة ، على الأزقة والدروب :

« رجالكم ! نسوانكم ! اولادكم ! دجاجكم !
عَ البحور ! عَ البحور »



بين العقل والتجربة

للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا
— بيروت

ليست التجربة كل شيء في بناء صرح العلم ، وليس لها ذلك الشأن الذي يتبادر الى الذهن لاول وهلة . ولو كان الامر موكولاً اليها وحدها لما وجد العلم ولما سَمَق بناؤه .

فالعلم ليس قوامه الملاحظات التجريبية ، ولا يقتصر امره على رصد حوادث الطبيعة وظواهرها ، وإلاّ لكان تاريخاً وسرداً للوقائع دون ان يعنى بتفسيرها والبحث عن الروابط واستقراء شبكة العلاقات بين الاشياء ، وكلها امور تدق عن الحس ولا يبلغ

عداها سوى العقل ، والعقل وحده . فكل تقدم في المعرفة انما هو انتصار للعقل على الظواهر التجريبية والاحاسيس المشوشة .

ان التجربة ليس فيها مايضمن انها اذا حدثت العدد (ع) من المرات سيحدث ايضاً العدد (ع + ١) . فهي اذن عاجزة عن وضع القانون . ولكن العقـــل ليس عاجزاً عن ذلك ، فهو الذي يتولى وضعه ويستبق الحوادث ويقوم بالتعميم .

فليت شعري ! مامعنى التعميم اللهم الا ان ماهو صحيح بالنسبة الى العدد (ع) ينطبق على عشرين مثلاً ، وان ماهو منطبق على عشرين ينطبق على أية مجموعة من الاشياء عددها عشرون : عشرون حجراً او عشرون كتابا اوعشرون قلماً الخ ، وان ماينطبق على عشرين حجراً ينطبق على العشرين حجراً هنا او العشرين حجراً هناك ، والآن ، و بعد مليون سنة والى مالانهاية له من السنين ؟

قلنا ان التجربة ليست كل شيء في بناء صرح العلم . فهي تجمع مادب وهب من الثابت الراسخ والوهمي الخيالي ، من الحق الذي لاجمجمة فيه والباطل الذي لاسند له ، من الارتباطات المنطقية والتقريبات الاتفاقية . فلا بد والحالة هذه من تدخل العقل لينقح التجربة وليميز الخبيث من الطيب ويستخلص السمين من الغث . لابد من افتراض ان الواقع شبكة من العلاقات ، وان هذه العلاقات ترتبط فيما بينها برباط من الضرورة ، لابد من ذلك ليمكن الاستنتاج وليمكن الانتقال من فكرة الى اخرى على سبيل الضرورة ، وليمكن استباق التجربة في المستقبل . واذن فان العقل لايقتصر امره على تنقيح التجربة ، بل انه ليمكنه الاستغناء عنهـــا بالكلية في حالات التعميم وهو يفترض فكرة الضرورة عقداً لها .

وهكذا تنعكس العلاقة التي تزعم النزعة التجريبية اقرارها بين التجربة والعقل . فليست التجربة هي الاساس في معرفة القوانين ، وانما العقل - أي القوانين - هو اساس التجربة . ان جسمي ليس تحمله ارض الغرفة ، بل تحمله قوانين التماسك. وليس الهواء هو الذي يجعلني احيا ، وانما تحييني قوانين الهيموغلوبين والتأكسد. وليس سوء الحظ هو الذي يجعل المقامرين يخسرون في اغلب الحالات، وانما هي قوانين حساب الاحتمالات . وهكذا دواليك . فالطبيعة انما هي مجموعة القوانين المنطقية المختبئة في ضباب كثيف لا يبدده سوى العقل ، والعقل وحده . فوراء الظلمانية الفيزيائية التي تغشى حياتنا وترين على احاسيسنا ، عقل يقبض على الاشياء بيد من حديد ويُمسكها ان ينفرط عقدها ، ويحفظ عليها انتظام اشكالها، بل ونكاد نقول يوحي الينا بوجودها .

هذا وان التعميم الذي شُيد عليه صرح العلم منبثق من الايمان بقيمة العقل المطلقة وبأن الطبيعة سائرة بالضرورة حسب نواميس العقل، وبأن الاستقراء فكرة يقينية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها... ولا يتسع المجال الآن لمناقشة مزاعم العقل هذه ، فلعل فرصة ذلك تسنح لنا في المستقبل . وحسبنا ان نقول الآن ان هذه المزاعم تثير شكوكاً كثيرة وانها لا تعدو ان تعبر عن ميل العقل الى احلال الخالص مكان المشوب ، والنظام محل الفوضى ، وما يجب ان يكون من الوجهة المنطقية محل ماهو كائن بالفعل ... وبالتالي ان العلم طريقة مصطنعة لمعرفة الكون. فلا يجوز ان يستبد بنا استبداد فلسفة ارسطو بعقول الصفوة المختارة من رجال القرون الوسطى . وليس في ذلك دعوة الى انكار العلم او جحود لمآثره ، ولكنها محاولة لتعيين حدوده واستشفاف أبعاده .

لغة العلوم

- ٣ -

تقدم (المعرفة) الحلقة الثالثة من تحقيقها حول موضوع اللغة العربية وتدريس العلوم. وهو الموضوع الذي بحثه باسهاب الطبيب الدكتور بشير العظمة. وتناوله في التعليق - حلقة ثانية - الطبيب الدكتور أحمد شوكت الشطي، والطبيب الدكتور سلمان قطاية.

في الحلقة الثالثة هنا ننشر رأي الدكتور صلاح أحمد - كلية العلوم - ورداً للدكتور الشطي حول ماورد في رأي الدكتور قطاية. سيشترك في الحلقات القادمة، بعض الجامعيين الذين سبق ان عانوا المشكلة ومارسوها تدريساً وتأليفاً، مع الطلاب، أو في مجامع اللغة، أو في مناسبات ومؤتمرات ثقافية. ونتوقع أن يتسع التحقيق، فلا يقتصر على الموضوع من حيث انه لغة فحسب بل يتجاوزه الى انه قضية ثقافية اجتماعية، ذات امتداد في شؤون حياتنا العقلية العامية وتنظيمها وتطويرها.

نشكر للأساتذة الأصدقاء اهتمامهم بالموضوع، ونرجو أن يتوافر لنا حوله القدر الكافي من الأجوبة التي تحدد اهميته، وتكشف عن مختلف الآراء والاتجاهات في مجابهته، ليتمكن تحرير المعرفة من اصدار التحقيق في كتاب على حدة، تعميماً للفائدة، واشراكاً للعدد الأكبر من القراء العرب في معالجة قضاياهم الثقافية.

— رئيس التحرير —

الدكتور صلاح احمد

اللغة العربية لغة علوم من الدرجة الاولى

١ — إن لغة أية أمة من الامم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتاريخ هذه الامة وتطورها الاجتماعي والعلمي والاقتصادي وتفاعلها مع بقية الامم، وهي تبعاً لذلك كائن له حياته الخاصة، ينمو ويتطور، أو يضمحل ويزول. لغات حية انطوت أو اضمحلت بانطواء الاقوام الذين تكلموها أو بتضاؤل دورهم الحضاري، ولغات مهملة أخرى تطورت فزادت مفرادتها وتنوعت قواعدها وتبسطت فاكتسبت بذلك حياة قوية. ولقد فرض هذا التطور على هذه اللغات الأخيرة عجزها - في حالتها التي كانت عليها آنذاك - عن التلاؤم مع مقتضيات التقدم الذي رفع أهلها لواءه في فترة من الزمن.

فاذا نظرنا الى لغتنا العربية التي لاتزال بوجه عام على ماكانت عليه منذ آلاف السنين لرأينا أنها تنفرد من بين لغات العالم بقدرتها العجيبة على التعبير عن أدق المفاهيم وأكثرها تجريداً وليس ذلك من التعصب القومي في شيء. لقد استطاعت هذه اللغة العظيمة أن تحمل المفاهيم الفلسفية والفكرية الدقيقة فألبستها كلمات تضج بمحمولها وتنم عنه بشكل عجيب. نعم لغة الصحراء هذه حملت، عبء حفظ التراث الانساني بكل تظاهراته المعقدة المثيرة، وإغنائه بكل مبتكر فريد. ولاشك عندنا أن جهل ابناء هذه اللغة بما تحتوي عليه من كنوز،

مقترناً بنفوذ الثقافة الاجنبية علينا مسؤول بشكل اساسي عن الاتجاهات التي أخذت طريقها في معظم الاقطار العربية والتي ترمي الى تجاهل لغتنا العربية وتقرير عجزها عن أن تكون لغة للعلوم .

لقد اثارت مجلة المعرفة مشكورة هذا الموضوع الهام فكتب فيها الاستاذ الدكتور بشير العظمة مقالا عالج فيه هذه القضية بطريقة لايقل من قيمتها الموضوعية ذلك الحماس الخير للفصحى الذي يتفجر خلال السطور ولعمري لقد لمس بيد « النطاسي البارع » كثيراً من مواقع الداء . ولذلك فسنقتصر على معالجة بعض النواحي التي لم يتعرض لها الدكتور العظمة أو التي لم يتعرض لها بشكل كاف ، أو أخيراً تلك التي نخالفه بعض الشيء في الرأي حولها . كما اننا سنعنى في كل ما سيأتي باللغة العلمية لغة العلوم الاساسية .

٢ – حول المصطلحات العلمية

يرتقي فن المحاكمة والجدل بارتقاء التعبير ، إذ الكلمات هي التي تدل على الفكرة وتحفظها وتنقلها الى الناس ، فكما انه ليس بالامكان أن تكون اللغة العلمية جيدة إلا بالعلم الصحيح ، فان الافكار التي تحملها الكلمات ، مهما تكن جيدة تنقل للناس بشكل خاطىء أو مبهم عندما تكون التعابير المستخدمة رديئة وغير دقيقة .

إن لغتنا العربية قادرة على التعبير الجيد وهي لغة علوم من الدرجة الاولى، إلا أن مؤلفاتنا العلمية على قلتها هي بوجه عام رديئة الاسلوب وكثير من مصطلحاتها العلمية مترجم بشكل بعيد عن المنطق والاتزان ، وعن مبدأ تسهيل نقل الفكرة وتيسيرها بل ويتم أحياناً عن جهل فاضح من جانب واضعها بالمحمول العلمي الحقيقي

الذي يراد لهذه الكلمات أن تحمله وتنقله ، ولعل أفشل المصطلحات الموضوعية هي تلك التي وضعتها المجامع اللغوية وما مردّه ذلك في رأينا إلا الى ضعف مساهمة العلميين او انعدامها في وضع هذه المصطلحات. وهناك نموذجان اساسيان لهذا الفشل:

النموذج الأول : ويتجلى في استخدام مصطلحات اجنبية الدالة على آلات أو مفاهيم لها ما يقابلها في لغتنا العربية ، فلم يجد احد المجامع اللغوية غير كلمة بندول لترجمة الكلمة الاجنبية Pendule في حين توجد في لغتنا اكثر من كلمة تدل على هذه الآلة كالنواس أو الخطار . وما يصح على هذه الكلمة يصح على هذه الكلمة يصح أيضاً على كلمات أخرى مثل كنترول وقومسيون و ....

نحن لسنا ضد أخذ كلمة غير عربية وإدخالها في لغتنا العربية بعد تأنيسها ووضعها بقالب عربي ، بل هذا في رأينا أمر لامفر منه ، ولكننا ضد استبدال كلمة أجنبية بكلمة عربية معبرة عن نفس المعنى ، ولنا عودة الى هذا الموضوع بعد قليل .

النموذج الثاني : ويتجلى في استخدام مصطلحات غير معبرة عن المعنى المقصود . ليكن لدينا مثلا متحرك تتغير سرعته في كل لحظة ، ان المجمع اللغوي المذكور يدعي ذلك بالعجلة أو التعجيل وكلا الكلمتين تفيدان السرعة ولكن ألا يمكن ان تكون سرعة متحرك متغيرة في كل لحظة وأن تكون حركته مع ذلك بطيئة ؟ ان كلمة العجلة هذه لاتنم عن المعنى المطلوب وتخلق عند المبتدىء غموضاً والتباساً كبيرين .

ماذكرناه هو مع الاسف على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر، وانك لتجابه من البعض بأن الخطأ الشائع خير من الصواب المهجور ، ولعمري ان هذا

تقد يصح فيا لو كان الأمر محصوراً ببضع حالات فقط ، الا ان هذه الحالات هي مع الاسف من الكثرة بحيث لا يبررها هذا المثل الشائع . يضاف الى ذلك ان لغتنا العلمية الحديثة هي بنت سنوات فقط وقد وضعت المصطلحات في كثير من الاحيان اعتباطاً أو وفق امزجة المؤلفين وأذواقهم الفردية، الأمر الذي نخشى معه أن نلتفت فاذا جل لغتنا العلمية هي من قبيل الخطأ الشائع ، ويضاف الى ذلك أيضاً أن الخطأ الشائع ان كان يؤثر على الصواب المهجور في لغتنا العادية أو الصحفية أو حتى الأدبية فهل يمكن أن نقبل بهذا المبدأ بالنسبة للغة الاكاديمية التي يجب أن تعبر عن الحقائق العلمية بدقة تامة ؟ ثم أليست لغتنا هي الفصحى فهل يجوز لنا أن نهجنها؟ أفلا نكون بذلك قد خنا هذه الأم التي حنت علينا وحفظت كياننا ودعمت وحدتنا ؟ ما أعقنا لو فعلنا ذلك .

هذا الفشل في لغتنا العلمية هو بالضبط الحجة التي يتذرع بها أعداء تعليم العلوم بلغتنا العربية ولكنه برأينا ليس فشلاً للغة العربية بل هو بكل تأكيد فشل لأولئك العربيين الذين لم يأخذوا هذه القضية بما تستحقه من الاهتمام ، كما انه في رأينا حافز لجمهرة العاملين في حقل العلوم واللغة على العمل بأسرع وقت ممكن وفق خطة منسقة لاعادة النظر ، على أسس جديدة محددة ، في قضية المصطلحات العلمية . اننا نرى أن تؤلف لذلك لجان دائمة يشترك فيها علميون ولغويون يتصفون بالاتزان العلمي المطلوب الذي ينأى بهم عن التعصب الضيق للمصطلحات التي ألفوها وبذلك نتلافى الفوضى والتعثر في لغتنا العلمية ونقيمها على أسس سليمة .

وبرأينا أن على هذه اللجان أن تأخذ بالخطوط العريضة التالية :

أولا : يجب ان نجتهد في أن نحتفظ للاشياء والمفاهيم بأسمائها المعروفة بها في لغتنا وفي مجتمعنا وذلك ماوجدت هذه الاسماء ويجب ألا نتأى عن هذا المبدأ

الا بالنسبة للاشياء والمفاهيم التي اعطيت لها اسماء من زمن وجيز ولم تحز بعد على القبول العام ، أو تلك المصطلحات القديمة التي لم تعد ملائمة لما قد تخلق من التباس بين معان متقاربة أو لوجود ماهو أفضل منها .

ثانيا : يجب أن يعاد النظر في جميع المصطلحات العلمية وبشكل خاص تلك الحديثة منها ، وعندئذ يجب ، ما أمكن ذلك ، أن تكون المصطلحات المختارة معبرة عن الخاصة العامة المميزة للأشياء او المفاهيم التي وضعت من أجلها هذه المصطلحات فنخفف بذلك الحمل على ذاكرة المبتدئين الذي لايحفظون عادة الا بصعوبة ، الكلمات الجديدة الفارغة من أي معنى ونكون بذلك قد ساهمنا أيضا في تعويد أبناء شعبنا منذ البداية ألا يتقبلوا الكلمة التي لم ترتبط بفكرة يضاف الى ذلك كله ان لغتنا العلمية تصبح عندئذ نقية مميزة موحية .

ثالثا : تستخدم في اللغات الاجنبية كلمات متقاربة لغويا للدلالة على مفاهيم علمية مختلفة فلا يصح أن نضع مصطلحا في لغتنا موافقا لأحد المفاهيم دون أن نضع في نفس الوقت المصطلحات الموافقة المفاهيم الاخرى والا وقعنا في فوضى كبيرة وهناك أمثلة كثيرة لانرى ضرورة لتعدادها الآن لم يؤخذ هذا المبدأ فيها بعين الاعتبار، فترجمت احدى الكلمات ثم لما جاءت كلمة أخرى لترجمتها روئي ـ ولكن بعد فوات الاوان ـ أن ماترجمت به الكلمة الاولى هو أصلح للكلمة الثانية . .

أما بالنسبة للأشياء والمفاهيم الجديدة التي ليست لها مسميات في لغتنـــا العربية فان امكانية الاشتقاق المتوفرة في لغتنا تكسبها مرونة كافية لنحت كثير من الكلمات الجديدة التي تغنينا بها دون أن يكون هنالك أى ضير اذ انناسنحصل بذلك على كلمات جديدة تبقى معها لغتنا سليمة وتزداد بها غنى على غنى . وكذلك

يمكننا في بعض الحالات ان نحمل بعض الكلمات العربيـــة معاني أخرى غير ما تعنيه لغوياً لكونها توحي بشكل او بآخر بهذه المعاني الجديدة .

الا ان هنالك قضية هامة يجب أن تطرح للمناقشة وان يشارك في بحثها جميـــع ذوي الاختصاص والمعرفة في وطننا العربي بغية الاتفاق على رأي نهائي حولها . ان هذا العصر يتميز بكثرة مخترعاته ومكتشفاته وبتعدد مفاهيمه الفلسفية والفكرية والتكنيكية ناهيك عما لكل اختراع او مكتشف من أجزاء عديدة وقد سميت هذه المفاهيم والمخترعات وأجزاؤها من قبل واضعيها او مكتشفيها ثم أخذ بتلك التسميات معظم العلماء والمختصين من شتى الامم حتى لقد اصبح لها قوة اسماء العَلَم ، فما هو موقفنا نحن من ذلك ؟ هل نكدح حتى نجد لها مسميات مشتقة من لغتنا ؟ ام نحاول ان نضع هذه الأسماء بقالب عربي ونخضعها بعد ذلك لقواعد لغتنا في الاشتقاق والتصريف الخ ..

هذه القضية نطرحها للبحث ولا نرغب في أن يكون لنا رأي نهائي حولها الا بعد المناقشة الواسعة الواعية المخلصة . ان اجدادنا أخذوا بهذا المبدأ في كثير من الاحيان فتبنوا كثيراً من الكلمات الاجنبية بعد وضعها بقالب عربي ورسائل اخوان الصفا هي خير مثال على ذلك . ولاشك أن احتفاظها بالأصل الأجنبي لم يكن جهلا منهم بلغتهم وانما كان على مانعتقد لفهمهم العميق لمدلول هذه الكلمات وتباعده عن مدلول الكلمات العربية المقاربة لها في المعنى فاحتفظوا بالأصل الأجنبي بغية جعل لغتهم العلمية أغنى مفردات وأدق تعبيرا . ثم ألم ترد في القرآن الكريم وهو اكبر عامل في حفظ هذه اللغة ، مفردات غير عربية ؟

نذكر ذلك لنشير الى اننا لو أخذنا بمبـــدأ الاحتفاظ ببعض الكلمات

الاجنبية بعد وضعها بالقالب العربي لا نكون قد أتينا ببدعة بل سبقنا الى ذلك الأجداد في عصورهم الذهبية. كذلك لا بد لنا أن نشير الى أن كثيراً من المصطلحات الاجنبية هي اختزال لعدة كلمات تفيد عدة معان وتدل على أكثر من خاصة فلو نحتنا لها كلمات عربية على هذا الغرار فستكون هذه الكلمات في كثير من الاحيان غريبة على الرجل العادي غرابة الكلمة الاجنبية. ان الأخذ بالمبدأ المذكور يوفر جهوداً كبيرة مضنية ويغني لغتنا بمفردات كثيرة ويجعل عمالنا وفنيي بلادنا قادرين على متابعة دورات تدريبية في البلاد المتقدمة كما يسهل عليهم متابعة تطور هـــذه الآلات ويوفر الكثير من جهودهم وطاقاتهم التي نحن بحاجة لها في الانتاج.

٣ – حول اللغات الاجنبية

ان اكبر خطر يترصد بنا في مسيرتنا العلمية الصاعدة أحد أمرين: أن نصاب بعقدة الاجنبي فنعتقد أننا لسنا أهلاً للابداع والانتاج، او أن نصاب بالغرور فنعتقد أننا علمنا كل شيء ونحن لم نعلم شيئاً. لن يجدينا نفعاً أن ننام على أمجاد أجدادنا وأن نكتفي بالتفاخر بها كما أننا لن نفيد شيئاً من التبجح في حاضرنا بل يجب أن نحدد مكاننا الحقيقي في هذه المسيرة العظيمة لتكون انطلاقتنا هادفة واقعية واعية.

ان الانتاج العلمي العربي رغم بعض الباكورات التي تبشر بالخير العميم لا يزال قطرة في خضم المنجزات العلمية الذي يزخر بكل عجيب، كما أننا لا نزال في دور تلقي العلم والتقليد فيه بوجـــه عام، لذلك فان تعليم العلوم باللغة العربية لا يعفينا أبداً من اتقان اللغات الأجنبية التي يبدع أهلها في وقتنا الحاضر في مختلف المجالات العلمية.

لقد انكب العالم على انتنابوسمها درساً حين كنا نرفع خفاقاً لواء الحضارة . والآن ونحن في دور تلقي العلوم لا بد للعاملين في هذا الحقل من اساتذة وطلاب أن يجيدوا عدة لغات اجنبية حتى يستطيعوا أن ينهلوا من موارد العلم الأصيلة ويطلعوا على آخر المنجزات . وبذلك نلحق بالركب ويكون لنا بالتالي دورنا في الانتاج العلمي المبتكر . « ان سبع عشرة جامعة عربية ومائة مليون عربي غير قادرين على فرض لغتنا كلغة علمية في المجال الدولي ما لم يتوفر في بلادنا الانتاج العلمي المبتكر الجيد الغزير » . ان وجود لغة علمية عربية جيدة وموحدة ليس كافياً لوحده أن يجعلها تدرس وتنتشر في العالم ولا بد لتحقيق ذلك أن يكون وراء هـــذه اللغة مؤسسات علمية منتجة لها سمعة طيبة وسلطة علمية قوية .

وعندما يجيء ذلك اليوم الذي ندخل فيه مرحلة العطاء ، وانه لآت لاريب فيه ، فسنكون حينئذ بحـــاجة أيضاً الى اللغات الاجنبية لنستطيع متابعة تطور مبتكرات الانسانية الرائعة . الا انه عندئذ سيجد العــالم نفسه هو الآخر مضطراً لدراسة لغتنا بغية الاطلاع على مبتكراتنا وعلى مساهمتنا في دفع عجلة التقدم . ان العصر الذي نعيش فيه عصر فريد في التاريخ لما لحضارته من صفة انسانية ؛ ان الميزة الاساسية لهذا العصر هي في انه سيتاح لجميع أمم الارض بجهد بنيها أن تقفز الى مصاف الدول المتطورة ، وقد تسبق أمة في بعض الميادين وتقصر في بعضها الآخر ولكننا لا نعتقد بأن أمة بلغت في وقتنا الحـــاضر مكانة مرموقة في العلم يمكن لها أن تعود القهقرى حتى ترجع الى حالة التخلف . لذلك فان تعلم اللغات الاجنبية سيكون دوماً ضرورياً لنا ولغيرنا مالم توجد لغة علمية عالمية.

وأخيراً نرى انفسنا مسوقين الى دراسة اوضاع الجامعات والتعليم والبحث

العلمي في بلادنا والى مناقشة مسألة ديموقراطية التعليم ومشاكل المثقفين وارتباطهم بالقضية الوطنية الا اننا لانرى مجالا لذلك الآن . ونكتفي بالاشارة الى اننا لسنا على اتفاق تام مع ماذكره الاستاذ المعظمة حول هذه المواضيع وعسى أن تتاح لنا عودة الى ذلك في مستقبل قريب .

ولا يسعني في الختام الا ان اشكر مرة أخرى مجلة المعرفة الغراء على هذه المناسبة الطيبة التي اتاحتها لنا لابداء الرأي حول هذا الموضوع الهام الذي نرجو ان يشارك فيه جميع المفكرين في وطننا العربي ولا شك أن بينهم من هو أجدر مني وأقدر على معالجة هذا الموضوع وليس ماكتبناه الا خواطر مستوحاة من معاناتنا للتدريس العلمي باللغة العربية ارجو ان يكون في عرضها بعض الحقيقة والفائدة .

الدكتور أحمد شوكة الشطي

نشرت لنا مجلة المعرفة الغراء في عددها الخمسين مقالا حول لغة العلوم شجبنا فيه الفكرة القائلة بجعل اللغة الاجنبية لغة رسمية في كلياتنا الجامعية وقلنا في آخره اذا كنا نناهض جعل اللغة الرسمية في كلياتنا لغة اجنبية فلا يعني ذلك إمكان استغناء الطالب ـ سواء في الكليات العملية والنظرية حتى الفرعية منها ـ عن معرفة كافية بلغة اجنبية .ووعدنا بذكر بعض السبل المؤدية الى بلوغ هذا الهدف . ويحلو لنا قبل ان نخوض هذا البحث ان نعلق على ماجاء في العدد نفسه من مجلة المعرفة من قول مزاه ناقله الى الاوساط الثقافية في بلاد المغرب العربي الكبير ، يروي ــ ذلك القول ــ ايمانها بعقم اللغة العربية « كذا » حيال العلوم، حتى قال بالحرف الواحد. « ان مجرد سرد بعض الاصطلاحات العربية تثير بسمات السخرية (كذا) » . وكم كنا نود من الكاتب ان يصرح باسم واحد من اولئك الأعلام على الاقل ، لان مانعرفه حق المعرفة وما لمسناه بانفسنا في بعض المؤتمرات الطبية المنعقدة في بلاد المغرب ذاتها ، وما نسمعه عن مكاتب التعريب فيها ينافي ذلك تماما ، وفي نظري ان قائل هذا القول واحد من ثلاثة ــ في المغرب او في المشرق ــ : جاهل باللغة العربية لم يسمع شيئا عن ثروتها ، أو خائر العزيمة لايسعى الى بذل بعض الجهد لينبش عن ذخائرها و كنوزها ، او اناني **يقيس بالدولار والجنيه والفرنك ماتكلفه ساعة تدريس باللغة العربيـــة من عناء ووقت** بالنسبة الى تدريس تلك الساعة باللغة الاجنبية التي اتقنها ، فيجد لجهله بلغة بلاده ان مايضحي من الوقت في سبيل التدريس باللغة العربية يعادل عشرة اضعاف الوقت الذي يصرفه في سبيل تحضير الدرس باللغة الاجنبية التي ألفها فينعكس ذلك الى مدخوله الزمني فيسيل لعابه عليه فينضم الى النادبين بعقم اللغة العربية .

لهفي على روحك الطاهرة ياشاعر النيل « حافظ ابراهيم » فقد احسنت وصف هؤلاء يوم كان لايجرؤ حتى العميل ، بل ولا الدخيل ، ان يرمي اللغـة العربية بمثل هذا الاتهام الذليل فاذا بابن العرب الاصيل يرويه ، وأملي ان يكون الكاتب لما قيل ، غير مؤمن بذلك التضليل حتى يصح فيه القول السائر ، ناقل

الكفر ليس بكافر ، ويحلو لي بهذه المناسبة ان اثبت بعض ابيات من قصيدة شاعر النيل في هذا الشأن لما فيها من صدق وبلاغة . قال رحمه الله منددا بالقائلين بعقم اللغة العربية :

رموني بعقم في الشباب وليتني عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي رجالا واكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف اضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق اسماء لمخترعات

ولنرجع الآن بعد هذا التعليق الذي كان لابد منه الى موضوعنا عن ضرورة معرفة الطالب العربي الجامعي بلغة اجنبية لأننا من الحريصين على التدريس باللغة العربية ، المنادين بتوفير السبل امام الطالب لمعرفة لغة اجنبية تضمن له استمرار النظر فيما استحدث من نظريات وعمليات ، وآراء وخبرات يتوقف عليها قيامه بعمله الطبي على اكمل وجه وتساعده على توسيع ثقافته بعد التخرج في معاهد اختصت بذلك اوتعينه على التعرف بالمستحدثات ، التي تثبتها المجلات . ولنا ان نتساءل الآن عن السبل المؤدية الى معرفة الطالب لغة اجنبية تيسر له بلوغ الاهداف التي ذكرناها .

الواقع ان حل هذه المشكلة يجب ان يتم قبل الدراسة الجامعية وقد انتبهت الى ذلك وزارة التربية فجعلت اللغة الاجنبية واجبة بعد الدراسة الابتدائية وزادت من عدد ساعاتها وهي ساعية الى ان تجعل سلّم علاماتها عالي الدرجات ان في ذلك كله ضمانا للشباب الجامعي المقبل في المستقبل . ولكن لابد من حلول مؤقتة صالحة للبقاء مجدية ونافعة .

والحقيقة ان الحلول التي لجأت اليها الجامعة لم تبلغ الهدف المرجو منها اذ جاءت بنتائج بعيدة عن الأرب ، ولقد تمثلت تلك الحلول باساليب مختلفة ، منها تدريس اللغة الاجنبية كمادة دراسية من قبل اساتذة خبراء باللغة غير فنيين : لقد جابه هؤلاء الاساتذة طلابا ذوي كفاءات لغوية مختلفة ، فمنهم الخبيرون باللغة ومنهم ضعفاؤها ضعفا تختلف درجاته . فساروا بسير الأضعف كما يقضي بذلك المنطق فأهمل الطالب القوي اللغة الدرس وعاد عنصر شغب فيه حتى انقلبت بعض الدروس الى مهازل مضحكة مبكية ، على أن الضعفاء منهـــم لم يعيروا أي اهتمام للدروس اللغوية لانهم رغبوهـــا لغة شاملة لمفردات طبية فاذا هي بعيدة عنها ، لذلك استعيض عن الاساتذة غير الفنيين باساتذة فنيين ، حاولوا افادة طلاب استضعفوا العناية باللغة الاجنبية واهملوها فكانت نتائج تدريسهم افضل ولكنها بعيدة عن بلوغ الهدف . وقد لجـــأ بعض الاساتذة الى تدريس جزء يسير من الابحاث بلغة اجنبية فلم يشجعوا على الاستمرار ، على ان لهذه الطريقة محذوراً كبيراً هي ترغيب الطلاب عن اللغة العربية بدلا من ترغيبهم فيها والانزلاق في مزلق خطر هو ترجيح تدريس الطب بلغة أجنبية على تدريسه باللغة العربية ، ولقد القينا بدلونا في الدلاء فوضعنا تذكرة معجمية في حياة الانسان الرحمية باللغتين الانكليزية والفرنسية فأقبل الطلاب عليها ، سواء كانوا خبيرين بلغة اجنبية او غير خبيرين ، ذلك لأنهم وجدوا فيها ضالتهم حتى حفظها الكثيرون منهم عن ظهر قلب وقد اطلعنا بعض الأساتذة على عملنا فحبذوه وتحمسوا له ، ان الطريقة التي اتبعناها تضطر الاساتذة لتلخيص المعلومات باللغة العربية جهد المستطاع وهذا مايتلهف الطالب اليه ويتحسر عليه ، اذ يسهل عليه درس المادة مكثفة أيام الفحص بينما يدرسها موسعة أثناء الدراسة ، كما ان ذلك يزوده الى جانب الخلاصة العربية بخلاصة

اجنبية عن القرر بتفهمها ويحفظها . وتنفع أيضاً هذه الخلاصات الطالب الخبير بالانة الاجنبية اذ يجد فيها زبدة مركزة تساعد على ائتلافه اللغة العلمية ، ذلك الائتلاف الذي لا بد منه والذي لا يستفيد الطالب بدونه من اللغة الاجنبية التي اتقنها . وقد جربنا في الواقع ذلك على فئة من طلابنا الخبيرين لا بل المتقنين احدى اللغتين الانكليزية والافرنسية بان عرضنا عليهم كتاباً باللغتين المذكورتين وطالبناهم بترجمة بعض النصوص فتعثرت خطاهم وكأنهم لا صلة لهم باحدى اللغتين المذكورتين . على ان دراسة هؤلاء الطلاب خلاصات مكثفة بلغة اجنبية يخلق انسجاماً بين اللغة الاجنبية التي تعلموها واللغة الطبية التي لم يألفوها في كتب طبية اجنبية ومتى وجد هذا الانسجام تم الحصول على المقصود . وهكذا فان اضافة خلاصات بلغات اجنبية وعربية على الكتب المؤلفة باللغة العربية تيسر للطالب الجاهل باللغة الاجنبية متابعة البحث والدراسة بعد التخرج في الكتب والمجلات والنشرات الطبية كما تعلم الطالب الخبير باللغة الاجنبية التعابير والاصطلاحات الطبية التي يجهلها .

غير ان ذلك ليس سهل التحقيق كما تبسطه هذه السطور بل تعترضه صعوبات جمة ، فقد لا يحسن المؤلف الا لغة اجنبية واحدة فيضع خلاصة ابحاثه فيها فيجيء الكتاب خلواً من تعدد لغة الخلاصات فلا يفي بالمقصود ، وقد يكون المؤلف ملماً الماماً كاملاً باللغة ولكن ينقصه طلاوة اسلوبها في التعبير فتجيء خلاصته مدعاة للنقد وقد يشعر بذلك فيحجم عن الاقدام لكي لا يفتح عليه باب نقد لا يستطيع سد مصاريعه ، وهو أولاً وآخراً ليس مكلفاً بذلك ، ولم يسبق لكلية طب في العالم ان شرطت على الاساتذة فيها قدرتهم على التأليف في اكثر من لغة واحدة . وهناك صعوبات اخرى عديدة ليست ذات شأن اذا ماقيست بالعثر الكبرى التي ألمحنا اليها .

وفي رأينا ان تذليل هذه الصعوبة ليس عسيراً الى الدرجة التي يتوهمها البعض الذين ينقصهم حب الاقدام ، فان من يقدم إما ان ينجح نجاحاً كلياً باهراً أو أن يفشل فشلاً ذريعاً أو يكون عمله ناجحاً في نظر البعض وفاشلاً في نظر الآخرين وهذه امور حيوية يصعب على من توطدت مكانته العلمية ان يفتح عليه باباً تنفذ من مصاريعه ريح سموم تزعزع الثقة بمكانته وتعرض الى اللغط سيرته العلمية التي اكتسبها بشق الأنفس وبجهاد صرف عمره في سبيل توطيد دعائمها، لذلك يرجح دوام الحال كما كان ويبتعد كل الابتعاد عن تنفيذ هذا الاقتراح وهو محق بذلك وله في نظري ملء المعذرة .

على ان هذه الصعاب لا تحيز في نظري ان تثني عزيمة المخلصين فان إحداث دواوين للترجمة الفنية الى جانب دواوين الترجمة الادارية تذلل الصعاب، وعلى هذه الدواوين ان تساعد الاساتذة في نقل ملخصات ابحاث كتبهم الى لغات اجنبية وان تشترك معهم في ذلك .

قد يظن ان في مثل هذا الاقتراح شططا قريبا من الخيـال ، وان تنفيذه بعيد المنال .وجوابي الى اولئك المترددين والمحجمين والمنتقدين هو ان بعض المجلات في عدد من البلدان العربية لجأت الى مثل ذلك فنجحت نجاحاً باهراً ، كما ان الكتب التي تصدر عن المؤتمرات يشرف عليها ديوان ترجمة في يضع خلاصات متعددة اللغات لكل الابحاث التي قدمت فيها فيتعرف عليهـا رجال العلم من دول مختلفة ، لغاتها متعددة ومتنوعة .

وخلاصة القول ان اللغة العربية لغة طاعة حويصة تسيغ وتهضم كل ماتستطيع ان تلقاه امامها من انواع البحث والعلم والحضارة على

اختلاف فروعها ،وان في المناداة باحلال اللغات الاجنبية محلها في الكليات الجامعية ازدراء بها لاتستحقه ، واهمال لها لايصح ان يُنادي به ابناؤها. لأن اللغة تحيا وتنمو بعلومها ، اكثر مماتحيا وتنمو بآدابها إن في عدم السعي الى اكساب اللغة العلمية العربية مكانة سامية اهمال لأعظم ركن في دعائم قوميتنا ، ان مثل هذا الاهمال لم تقبل به حتى أصغر دولة عريقة تحترم كيانها ، مثال ذلك ايزلاندة ، تلك الدولة المحدودة النفوس لاترضى بديلاً عن لغتها القومية في مدارسها وكلياتها العلمية والادبية .

سلسلة

التراث القديم

تصدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي ، سلسلة التراث القديم ، لنشر الكتب المخطوطة التي لم يسبق نشرها ، والتي تكشف عن غنى حضارتنا العربية في مختلف الميادين ، وذلك بعد تحقيق هذه المخطوطات تحقيقاً علمياً وافياً .

يطبع في هذه السلسلة الجزء الرابع من مخطوطة (مجمع الآداب في معجم الألقاب) لعبد الرزاق بن الفوطي . قام بتحقيق هذا الجزء العلامة المعروف الدكتور مصطفى جواد . صدرت حتى الآن الأقسام الثلاثة الأولى من هذا الجزء الرابع كل منها يجاوز ستمائة صفحة . ويباع في جميع المكتبات المشهورة . ثمن القسم الواحد ٦٠٠ قرش سوري .

اعتمد الفوطي ألقاب الرجال ورتبها ترتيباً معجمياً وقد جعل فيه اسم العلم مقسماً الى ستة أقسام : أولها اللقب وثانيها الكنية والثالث للاسم والرابع لاسم الأب والخامس للنسبة والسادس لاختصاص العلم المترجم بفن أو بمهنة . ثم يترجم للعلم ترجمة مكثفة لاتعدو أحياناً ثلاثة أو أربعة أسطر يوفي بها الغرض من التعريف بالعلم .

وتضم هذه التراجم أعلام الأدب والفكر في التاريخ العربي في عصر ازدهار النهضة العربية حتى أواخر القرن السابع الهجري .

الكتاب والموضوعات

● غوته والأدب العربي ـ ٢ ـ
للمستشرقة الألمانية كاترينا مومسن
ترجمة حنين حاصباني

● الهجرة والصدع
قصة لحيدر حيدر

● امي والضيف
قصة الكاتب الكوري يو ـ سوب شو
الناقد الكوري كاب ـ دونغ شو
ترجمة الدكتور خالد الصوفي

الآداب

غوته GOETHE

والأدب العربي

٢

للمستشرقة الألمانية كاترينا مومسن
Katrina Mommsen
ترجمة عن الفرنسية حسين حاصباني

لقد تأثر شاعر الألمان الكبير « غوته » بالأدب العربي وبالشعراء العرب تأثراً كبيراً تحدثنا عنه في القسم الاول من هذا المقال (١)، ورأينا اعجابه بالمعلقات واصحابها وبالشاعر تأبط شراً ، كما رأيناه يتشبه تارة بحاتم الطائي ، وطوراً ، بالمتنبي ، وأخيراً بقيس ، المشهور بمجنون ليلى .

وفي « الديوان الشرقي » يشغل الحب حيزا لايقل عن الذي يحتله في الشعر العربي، بل ان غوته يعلن عن عزمه على أن يجعل الحب موضوع الديوان الاساسي. وهو يقول : « اذا ماتغنينا بالشعر ، فخير غوض من اغراضه هو الغزل ، ونحن جديرون دائماً بأن نجعل الغزل مقدماً على كل ماعداه » .

(١) المنشور في العدد ٥٢

وقد استوحى أجمل قصائده في الديوان من معلقة امرىء القيس المشهورة. فبعد أن فارق غوته حسناءه التي يدعوها (زليخة)، ويئس من أن يلقاها، اعتاج في نفسه الألم الحاد، والحزن العميق؛ وأراد أن يعبر عما عانى من شدة الوجد، وغصة البين، فلم يجد سوى معلقة من المعلقات الرائعة، تصلح قدوة له ومنوالاً لتعبيره عن أساه وجواه. فاذا به يتمثل نفسه بدوياً حزيناً يبكي في الصحراء المترامية فراق محبوبته؛ فينظم غوته الأبيات التالية، وقد التزم فيها الاسلوب الرائع الذي تميزت به المعلقة الخالدة:

وكما يقول امرؤ القيس: (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)، يقول غوته:

دعوني أبكي، وقد لفني الليل في الصحراء التي لاحدود لها.
لقد استسلمت النوق والابل لسِنَة الكرى.
وهجع أصحابها، وراكبوها، وأخذ النوم بمعاقد أجفانهم
أما الأرمني فهو ساهر يقظ، يعد دراهمه، ويحسبها
وأنا قربه.. أنا مثله ساهر مسهد. لكن الذي احسبه هو المسافات التي تترامى بيني وبين (زليخة). وافكر في تلك المنعوجات التي تجعل الدروب أكثر طولاً
ألا دعوني ابكي، فليس البكاء عاراً.. وعندما يذرف الرجل عبراته، فانه طيب بل اطيب مايكون.
ألا دعوني أبكي.. لأن الدموع تحيي التراب وتنعش الثرى فيتنسم المرء رائحة العشب المخضوضر المبتل.

★ ★ ★

وهكذا نرى أن غوته يتخيل نفسه بدوياً في قافلة تجتاز الصحراء ، فيلح عليه الحنين الى منازل قومه وديار احبته ، وذلكم هو الوضع الاساسي في جميع القصائد المعلقات. فهي قصائد بدوية تغنى بها الشاعر في البيد ، وفي دروب القوافل ومواقفها ، في ركب من رعاة الأغنام الثاغية ، وسائق الابل ذوات الحنين . ثم ان عمود الكلام عند غوته هو ، هنا ، غزل وحنين . وهذا بالذات عمود الشعر عند اصحاب المعلقات؛ وليس بخاف على أحد ذلك التماثل الذي أشرنا اليه ، في استهلال القصيدة عند غوته ، وفي مطلع قصيدة امرىء القيس .

وقصيدة غوته ، تمتاز بهدوء النغمة ، وهناءة اللحن ، لأن الدموع تنعش التراب اذا تساقطت عليه . والآلام والعبرات تبعث خضرة جديدة ونمواً جديداً ؛ ومعنى ذلك ان الفراق ، وان هو ألم وادمع ، ثروة للشاعر وبث لمواهبه ، وان حزنه ، وان امض واوهن ، مصدر الهام له ، ومفجر لأغانيه وشدوه... كما ان الحبيبة الهاجرة النائية التي لن يرقى اليها عاشق ، هي نفسها ملهمة غوته في اكثر ما كتب ونظم . وان غزله ونسيبه ليسا موضوعاً مكتفياً بذاته ، وانما يشكلان ، بصورة عامة ، مقدمة لغرض آخر من اغراض الشعر ؛ افليس هذا بالذات هو عمود الشعر عند العرب الأقدمين ، وعند اصحاب المعلقات بشكل خاص ، فهم يلتزمون تقديم النسيب ، والاستهلال بالغزل،ثم ينتقلون الى مايريدون من اغراض.. وقد راع اساليبهم غوته واستهواه ، اذ الفاه منسجماً تمام الانسجام مع اساليبه الشخصي في نثره ونظمه .

وبعد . أفليس من الغريب ، الطريف ، بل من المعجب المؤثر أن نرى شاعراً من طراز غوته ومقامه ، يجد أن المعلقات هي أكثر الآثار الادبية تفهما لموضوع الفراق ، وأحسنها تصويراً له وتعبيراً عنه ، فينسج على منوالها ، وينهج

نهجها كلما أراد أن يصف مايلقى من عنت الشوق وتباريح الهوى .. وانه لحوار نفسي رائع وتلاق مدهش بين أصحاب المعلقات وبين شاعر الألمان .. أجل انه القاء عظيم عبر مئات السنين وعبر حدود المكان والسكان .

بيد ان هذا النغم الحزين الكئيب الذي أوحى به الشعر العربي يظل أقل ظهوراً في الديوان الشرقي من النغم المشرق المرح في أناشيد الهوى المنشورة في ذلك الديوان ، عدا بعضاً منها سيطرت عليها نغمة الكآبة والحزن . بل ان أناشيد الهوى كلها ، ومهما كانت ، مشرقة مراحة أوهادئة حزينة ، ليست لتخلو تماما من وحي العالم العربي وأدبه .

ومن الامثلة على ذلك ، كلامه عن « العمامة » ، فهو يصفها وصفاً جميلاً في القصائد التي يتداولها « حاتم » ، و « زليخه » فيقول « انها مصنوعة من الحرير الابيض الناعم المخطط بخيوط « الفضة » وأنها « هي الاكليل الذي تتوج به الجبهة هامة شاعرها » وانها « أجمل ماتتزين به رؤوس الرجال » ، وأكثره عزة وإباء ومهابة » .

وفي قصيدة أخرى من الكتاب الاول (أي كتاب المنشد) تبرز العمامة مرة أخرى على أنها « انبــــل غطاء للرأس » .. أما هذه القصيدة فعنوانها « النعم الأربع » . وقد نظمت حول ماروي للشاعر على انه من أمثال العرب ومأثورهم . وفيها يقول :

« ولكي يتمكن العربي من أن يجوس خلال المسافات المترامية في بلاده ..

ألعم الله عليه ، بنعم أربع .

فأعطاه اولاً : العمامة . وهي أجمل وأبهى من تيجان الأباطرة.

وأعطاه ثانيا : خيمة ينقلها من مكان الى مكان ويتخذ منها
مسكنا ومأوى أيان ذهب ، وأينما حل .
ثم وهبه سيفاً . سيفاً أفضل وأجدى من الأسوار العاليـــة
وأكثر منعة من الصخور المتراكمة
ثم حَبَاهُ شدواً لطيفا محببا ،تلتفت اليه الصبايا ، ويستهوين.

* * *

وهكذا فالنعم الأربع التي منحها الله للعرب والتي أشار اليها غوته مراراً في ديوانه هي العمامة والخيمة والسيف والشعر.

وان الحياة الطليقة الحرة ، المرضة للأخطار ، المليئة بالمغامرات ، حياة البدو سكان الخيام ، وأهل الوبر ، هي مصدر إلهام للشاعر الالماني الكبير . وقد كان لانتقال غوته بالخيال الى هذه الحياة المتنقلة ، المتحركة ، هذا العالم البعيد ، الغريب تماما عن بيئة غوته ووطنه وقومه .. كان لهذا الانتقال تأثير شديد على نفسه . فألهبها وأذكى جمرتها وبث فيها النشاط والقوة . وان إتصاله بدنياالعرب البدائية ، وحياة رعاتهم وفرسانهم ، جعل الشاعر يحس وهو في الخامسةوالستين، أنه قد ولد ولادة جديدة ، على حد تعبيره . ولعلنا نجد دليلا على ذلك في قصيدة عنوانها « القافلة » .. وفيما يلي تعريب بعض أبياتها :

في القصي المترامي بغير نهاية .
في خضم النجوم
لم أكن ضائعا .
إنما كنت كمن ولد ولادة ثانية

. . .

وكانت التلال مكسوة بأمواج متعاقبة من الخراف البيضاء،
وكان بعض الرعاة ، في وقار ورصانة ، يولونني عنايتهم
ويمتعونني بضيافتهم البسيطة ، بقوامه الصريح الصادق ،
وكانوا كثيري اللطف ، كثيري الهدوء ، مسالمين ،
كلهم كانوا كذلك . كلهم أعجبوني

. . .

على أن هذه النغمات الريفية أو البدوية ، المفعمة بالفرح العميق الهادىء ، والطمأنينة النفسية الصادقة ، تسكت فجأة لتبرز مكانها لوحة المخاطر والأهوال التي تحيق بالبيد ، وحياة البداة :

وفي الليالي الراعبة . ليالي الهول ، المهددة بنشوب القتال .
كان حنين الابل يتغلغل في الآذان وينساب الى النفوس .

وتختم القصيدة بلوحة رائعة عن حياة النقلة والارتحال ، وكأنها تصور لحالة نفس غوته وخياله الكثير التنقل ، الدائب الحركة :

« ودائماً الى أمام . دائماً نحو الأوسع والأكبر ، هكذا كانت مسيرتنا . لذلك كانت تشبه فراراً دائماً وهروباً أبديا أماوراء الصحاري ، وخلف الجيوش والمقاتلين ، فتمتد البحار الخيالية الزرقاء »

وجماع القول ان هذه القصيدة المسمّاة « بالقافلة » هي تصوير لعدم الاستقرار الذي تتصف به البداوة ، كما تتراءى لغوته من خلال الشعر العربي القديم .. وإن الديوان كله متأثر ، الى حد ما ، بهذا الشعور الدائم بعدم الاستقرار . فأولى

القصائد الطوال في الديوان ، اسمها « الهجرة » وفيها يشير الشاعر الى التقاليد المتوارثة والأساليب الحياتية عند العرب .. أما « هجرته » هو فهي اغتراب عقلي، وارتحال نحو وضع نفسي أكثر جدة وأشد طرافة وتنوعاً ، وضع أكثر أصالة ونقاء من وضعه الشخصي في محيطه ، وقومه ، وزمانه . لذلك يخاطب نفسه قائلا :

هلم فانج بنفسك ، وسر الى الشرق الصافي النقي ، وتنسم فيه هواء الأجداد القدامى .

وهناك . في النقاء . وفي العدل ، احب أن اعاود المصادر الأصيلة ومنابع البشرية الأولى ، أيام كانت تتلقى من لدنه تعالى شرائع السماء مصوغة في كلمات الارض ، هبة من كريم رحيم ، فلا هي تُعمل فكرها ولا هي تُعنّتُ نفسها ، لسن القوانين ووضع الشرائع .

ولشدّ ما أحب أن اخالط الرعاة ، وأن أنعم برطوبة الواحات . وأن أسافر مع القوافل التي تتاجر بالحرير ، والبن ، والمسك .

أودّ أن أسير في كل درب ، في كل طريق يسلكه الذاهبون الى المدائن » .

• • •

وقصيدة « الهجرة » التي اوردنا منها هذه المقاطع هي بمثابة عرض وتقديم « للديوان الشرقي » فهي تدلنا على معنى الديوان ومرماه . ويقول غوته : ان الشاعر في سفر . وها قد بلغ الشرق . فاذا الشرق متعة كله . فتنة كله ! أخلاقه وعاداته وأعرافه وعواطفه ومذاهبه الدينية .. وإذا قالوا عن الشاعر ، بعدذلك، إنه من المسلمين . فما يخشى قولهم ولا يداريه .

وان هذا الاعتراف المذهل يشهد على أن غوته ، كان يعيش مع العرب بالفكر والخيال ، وفي رضى وسرور ؛ يعيش معهم في حياتهم التي يستهويه منها آثار الحياة القبلية القديمة جداً ، وتشهد بعض مؤلفاته الاخرى على حبه لهذا العالم الذي كان يستحوذ على فؤاده منذ أن كان شاباً طري العود . وفي كتابه (أسفار ولهلم ميستر) تقريظ كثير لحياة البداوة .. ولم يأت هذا كله بطريق الصدفة . فهذه الرواية الكبرى التي وضعها غوته في شيخوخته ترمي الى الدلالة على أن الارتحال هو الاسلوب الوجودي للانسان ، وان البشر هم جميعاً ركب مسافرون ، لايزالون في حل وترحال ، أبد الدهر . وان البدو هم النماذج الاولية للانسان في حالة الحركة والنقلة ، وأنهم المثال الاعلى للمسافرين . ولذلك يكثر اطراؤهم والثناء عليهم في الكتاب العظيم للكاتب العظيم .

* * *

وبعد . فلعل من الخير ان نقف عند هذا الحد في الكلام عن هذه الناحية من أدب غوته . ولعل من الخير أيضاً أن نشير ، ولو إشارة مختصرة وإلماعة عابرة ، الى نقطة أخرى من هذا الأدب . وهي علاقة غوته بألف ليلة وليلة.

وهذا الكتاب الأدبي الكبير يعتبر ملكاً للعالم العربي كله . لأن لغته هي العربية . ولأن اقساماً كثيرة منه هي من وضع أدباء عرب . حتى أن الناس كانوا يطلقون على هذا الكتاب ، في أيام غوته ، اسم « الحكايا العربية » ولا يزالون يسمونه في بعض اللغات : « الليالي العربية » .

وان العلاقة بين الف ليلة وليلة وبين أدب غوته ذات أهمية خاصة ، لأن الكتاب المذكور يُعَد واحداً من أعظم الآثار الأدبية العالمية . ولأن تأثيره على الشاعر الألماني كان تأثيراً قوياً وعميقاً .

ولن أذكر هنا تفاصيل هذه العلاقة ، ولا دقائق هذا التأثير . فما يتسع المجال هنا . وانما اقتصر على ايراد الخطوط الكبرى للموضوع ، وفيها كفاية وغناء .

كان غوته طفلا عندما بدأ حبه لأقاصيص شهرزاد . واستمر على ذلك طول حياته ، فما خلا عهد من عهودها من التأثر بها واستلهامها . وفي أشهر مؤلفاته يمكن أن ترد مواضيع وشخصيات وأفكار معينة الى بعض حكايا شهرزاد . ولما صار شيخاً طاعناً في السن ظل غوته وفياً الملكة الشرقية الساحرة ، وظلت لياليها الألف ، كتاباً أثيراً عنده ، يلجأ اليه دائماً لينفي عنه ما كان ينزل به من انهيار وخور في ليالي الشتاء الطويلة وليالي المرض والألم . وكان اصدقاؤه وخلطاؤه يعجبون أشد العجب ، لدأبه الطويل على مطالعة الأجزاء العديدة التي تتألف منها ألف ليلة وليلة ، فهو يقرؤها ، ويعاود قراءتها مرة بعد مرة .. ونجد عدداً لا يحصى من الاشارات اليها في رسائله وفي مذكراته الشخصية وفي الأحاديث التي كان يديرها مع الناس مما يسمح لنا بأن نخلص الى استنتاجات هامة ، وبصورة خاصة الى ان فكرة جديدة تماماً قد تكونت عن الفن القصصي عند غوته ، وهي فكرة لا يمكن توضيحها واستكمالها إلا اذا اخذنا بعين الاعتبار علاقاته بالقصة العربية الكبرى ، وهي علاقة ظلت حتى الآن شبه مجهولة ، فلم يفطن اليها أحد بما يجدر بها من الاهتمام والمتابعة ..

ومع ذلك فكثيراً ما قورن غوته بشهرزاد شاعراً وقاصاً .. والمقارنة هذه صواب وحق . وهي تهدينا مباشرة الى نواح من مؤلفاته يعتبرها شراحه ونافدوه وقراؤه ، نواحي ضعة التعليل والشرح ؛ منها ميل غوته الى النظم على أوزان خفيفة جداً نجد أمثلة عليها في بعض آثاره . وقد كثر الجدل حول (ولهلم ميستر) الذي يتميز بأن الشاعر قد أباح لنفسه فيه حرية كثيرة في النظم ، فجاء الشعر فيه

خالياً من قيود القريض المألوفة ، وقد تساءل النقاد عن سر ذلك ؛ ولكنه تساؤل لاطائل تحته ولا مجال له طالما أن غوته نفسه يقول لنا انه جرى على طريقة شهرزاد ونهج منهجها . فان بدا لنا ، بعد ذلك ، أن (المبنى) في هذا الكتاب لم يحظ باهتمام جدي من قبل الشاعر ، فليس مرد ذلك الى وهن الشيخوخة . بل ان اسلوبه في رصف القصص واحدة بجانب واحدة ، دون أية محاولة للربط بينها ، هذا العمل على طريقة صانع الأكاليل ، إذ يرصف الزهرة والزهرة واخواتهما ، فينتظمن في اكليل واحد ، (وهذا التشبيه أورده غوته نفسه) ، هذا الاسلوب في العمل ليس وهناً ولا عجزاً بل هو رأي واجتهاد معقولان مقبولان ، ونمط في الانشاء توصل اليه ، كما قال ، عن طريق الف ليلة وليلة ، فهو قد كتب (ولهلم ميستر) في اسلوب الملكة شهرزاد .

ولم يقف تأثير القصاصة الفاتنة عند هذا الحد . بل ان هنالك نواحي أخرى برز فيها تأثير شهرزاد على غوته . منها ، بصورة خاصة ، ميله الى عدم دفع الكتاب الى الجمهور دفعة واحدة ، بل هو يؤثر ان تنشر مؤلفاته على سلاسل متتابعة ، سواء أكانت قصصاً قصيرة ، أم روايات طويلة او مسرحيات تمثيلية . وفي رأيه ان في هذا التقسيم والتجزئة وفي هذا الفصل والوصل ، والوقف والانقطاع ثم المعاودة والاستئناف ، في هذا كله يكمن سحر القصة ، وجوهرها وسر تشويقها . وهو يقول حرفياً : ان هذا الاسلوب يتيح للكاتب استثارة اهتمام القارىء وحبه للاطلاع ، وذلك بطريقة خفيفة ، ذكية ، لطيفة . وان الكاتب حري بأن يتعمد الوقف وقطع الكلام في الموضع المشوق المثير ، فيبقى انتباه القارىء في حالة التوتر والتيقظ ، وفي كتابه (أحاديث مع مهاجرين ألمان) وهو من آثاره التي نشرت

بشكل حلقات متسلسلة ؛ يصرح غوته بجلاء بأنه يطبق اسلوب ألف ليلة الذي يجعل القصة الأولى تدخل في القصة الثانية ، وحيث يثار في القارىء اهتمام كثير في إثر اهتمام كثير .

وفي مؤلفاته التي روى فيها ترجمة حياته ، ومنها كتاب (الشعر والنثر) اتبع ايضاً اسلوب القصص العربي ، فيجد القارىء فيها مرة اخرى ، ماتحدثنا عنه آنفاً من تدفق الكلام على السجية ، دون تكلف حدود او سدود ، وفي تحرر كثير من ضوابط القريض والتزام قيوده . ونرى فيها ايضاً ميله الى تجزئة الكلام ، والى نشر المؤلفات في سلاسل وحلقات . فكل المجلدات التي يتألف منها (الشعر والنثر) ، وبصورة خاصة (الرحلة الى ايطاليا) انما نشرت على سلاسل متقاربة أحياناً ومتباعدة أحياناً . وكان الشاعر يحب ان يسمى هذه المؤلفات التي تحوي سيرة حياته : (الف ليلة وليلة في حياة رائعة مذهلة) . ان هذه التسمية وحدها ذات دلالة وافية وكافية .

وكذلك نشرت قصة (ولهلم ميستر) اجزاء اجزاء . وعلى هذا الشكل أيضاً نشر القسم الثاني من (فاوست) ونحن إذ نرى الكاتب يضع في آخر كل جزء عبارة (البقية تتبع) فلسنا بحاجة الى من يدلنا على سبب ذلك . ولقد أصبح من المؤكد القائم بالبرهان ، أن غوته كان ينهج نهج الف ليلة وليلة وأنه يتنافس في فن القصص مع الملكة الشرقية الشابة ، وانه ، كلما قطع الكلام في موقف مثير ، فكأنه يقول : وهنا أدرك شهرزاد الصباح ، فسكتت عن الكلام المباح .

• • •

وفوق كل هذا . واعظم من كل هذا ، يبدو تأثر غوته بألف ليلة وليلة ،

في استقائه منها صورا ، ومواضيع ، وشخصيات ، وخطوطاً لقصص بكاملها . ولست أملك الآن أن استقصي الكلام في هذه الناحية . وإنما اسوق بعض الامثال عنها ، مشيرة الى أني وضعت عام ١٩٦٠ كتاباً عن (غوته والف ليلة وليلة) . وقد عُرّب هذا الكتاب وستظهر قريباً ترجمته العربيـة ، وهذا مايشرح نفسي ويُثلج صدري ، .

كان غوته في السابعة عشرة عندما كتب « نزوة العاشق » وقد استعار أسم البطلة « أمينة » من الف ليلة وليلة؛ ومنها أيضاً استمار حبكة القصة ووصف أمينة ، ونوع جمالها ، وسقوطها ضحية الغيرة العمياء ؛ والعبرة في هذه القصة عند غوته تماثل عبرة مايوازيها في الف ليلة وليلة ، وذلك ان الرجل الفائر الثائر يأسف على مابدر منه ويندم على ماأبدى من سوء الظن ، وطيش التصــرف ، والأنانية الناشئة الظالمة .

وا كتفي بالاشارة العابرة الى كل ما اقتبسه غوته من الف ليلة وليلة ليصف الحوريات ، ومغامرات الجن ، وذلك في مؤلفات له كثيرة ، أذكر منها « باريس الجديدة » و « ميلوزين الجديدة » و « احاديثه مع المهاجرين الألمان » و « ولهلم ميستر » حيث يشير الى علاء الدين والمصباح السحري ، والى حلاق بغداد . وفي كتـاب آخر ، يستعمل غوته قصة « أبو الحسن وشمس النهـار » وهي من قصص الف ليلة وليلة أيضاً .

ومما يثير دهشتنا تأثره بألف ليلة وليلة في القسم الثاني من (فاوست) . ففيه فصول كاملة نسجت على منوال القصة العربية ؛ ومنهـــا تنزل فاوست بهيلين ومطارحتها غرامه ووجده ، ثم زواجه منها ، ومنها ايضا ماجاء في الفصل الاول

الذي تجري حوادثه في بلاط الامبراطور ، وقد أظهر الشاعر اعجابه بشهرزاد وتقديره لها ، فيما وضعه على لسان الامبراطور عندما يخاطب مفيستو ، وزير بلاطه :

ما احسن القدر الذي ساقك الينا ،
فجئتنا ، آتيا من دنيا الف ليلة وليلة .
فاذا كان لك فكر خصيب . وعقل مبدع حصيف
كعقل شهرزاد ،
فوالله لاجزينك بكنوز رائعة لامثيل لها .

ولعل ان غوته يعبر بهذا عن عرفانه لجميل الف ليلة وليلة ولأياديها عليه فقد كان آنئذ في فترة كان تأثيرها عليه تأثيراً حاسماً ، ولقد استوحى منها مقاطع كبيرة من (فاوست) من الف ليلة وليلة ، وكان يعيد قراءته لها ، في تلك الفترة بالذات ..

وان لدينا دليلاً آخر على شعوره بفضل الف ليلة وليلة عليه وبأنها ألهبت خياله ، وكانت مصدر إلهامه في كثير مما كتب ونظم . وهذا الدليل نجده في صفحة خط عليها غوته بضعة أبيات على لسان فاوست الذي أصبح ، دون أن يدري ، شخصية غريبة فيها مزيج من الغرب والشرق . قال غوته :

من كان يعرف نفسه ويعرف الناس
لا بد أن يعرف أيضاً مايلي
ان الشرق والغرب
لا يمكن بعد الآن ،

أن ينفصل أحدهما عن الآخر .
وبين هذين العالمين ، أحب أن أتأرجح
ألا فلتكن خيراً وبركة
تلك الحركة ، بين الشرق والغرب

وبهذه الأبيات لنوته، أختم مقالي، فهي خير مايختم به مثل هذا الكلام



الهجرة والضياع

قصة لحيدر حيدر



مهداة الى الصديق ع . ابو عبد الله الذي لم ينس اصوله

لوحة الغياب

كنت استلقي عارياً فوق اثباج الرمل الحارة ، وقدمي اليسرى مطوقة فوق اليمنى . مستنداً براحة كفي على بقعتي رمل . وعيناي تشردان في الافق المترامي . تعبران البحر والمدى ولا تستقران على شيء . كان دفء الرمل ينسل خدراً خفيفاً مموجاً باللذة . والنماس بعد الطمأنينة والدعة في حنايا الجسد . تتمدد الغبطة في مسامي ، فأتمدد فارداً ساقي ، ويستريح الرأس على فرجة الراحتين المتشابكتين ، تتصاعد من الاعماق ترنيمة سلام :

« عومي في الغبطة يانفس الانسان .

ابتلي بالسلام الهادىء الرخي

وانت أيها الجسد الكثيف

ادخل الرمل الحار الى مراقدك البارد »

بذلك ترنمت النفس الهاجعة . فهنا على هذه الكثبان الحبيبة المترعة بضوع الطفولة تتوارى كل احزان الارض . يعمر القلب بالفرح يصرخ في نشوته « آه ... لو يشتق ابد الانسان في ساحات أزمنة الطفولة التي سافرت ولم تعد »

عن يميني قامت الارياف . قرى متباعدة بيوتها المطلية بالجوار تتوهج في اصائل الايام تحت شمس الخريف الغاربة . واشجار التوت والتين والزيتون المعمر تسفعها ريح الشمال العنيفة . ريح لايحبها القرويون جافة محملة بالكوارث والأوبئة .

وتنحدر العين من الريف الفارش اعالي الجبال والسفوح باشجاره الوريفة ، وزهو لياليه المقمرة في سهرات الصيف وحكايا الفلاحين ، نحو السهول المتاخمة

للساحل ، حيث تتناكب مروج الفستق الخضراء وتنهض مزارع السمسم باسقة كالقبال فوق فسيح الارض . تميل صوب الجنوب حيث تتفارع شجرة الجيز القديمة عملاق السهول الخضر وحارسها ، تطل من فوق عصورها الرحبة قيصرية شامخة كتمثال اغريقي مبسوط السواعد يشير نحو جنده الفانين في اسرة السهوب الهيدة ، تقص حكايا البشر المهاجرين الذين بددتهم المسافات، من تخطفه البحر ومن اعشوشبت الارض على لحده .

بعيداً . . . بعيداً في السهل المتموج الخضرة ، خلف مد البصر ، يكور فلاح قبضتيه كالبوق . ينفخ فيها ، يفرك راحتيه ويتناول مجرفة الى جواره . يهزها باعتزاز ثم يرفعها الى الاعلى بكلتا يديه ويشدخ بها الارض . ضربات متلاحقة يتخلع منها مجموع بدنه .

قليلا . . . وينتشي ، فيسفع صوته السهل بموال عتابا يتماوج عبر اركان الفضاء ، ويرف مسحوراً فوق مياه الساقية المترعة وهي توزع الماء في مساكب الارض ، تتغلغل في جذور الفستق فيرتوي القلب بالفرح والزهو .

وعلى تخم الارض المجاورة تجلس صبية نضرة القسمات ، شهية الوجه تنكش الارض بعود يابس .

وفوق ذراعيها المكشوفين غفا زغب ذهبي راح يلتمع تحت شمس الخريف . وحول الوجه الطفلي الهادىء انسدلت خصلات شعر أخذ نسيم السهول يرقصها ، يرفع الثوب فتقذف العود بعيداً وتعيد ثوبها . آنذاك يقع بصرها على مجرفة صغيرة مرمية قربها .

قال الأب :

ـ لماذا تجلسين كالصنم هكذا يابنية ؟

وتشمخ قامته وسط الخضرة المائمة ، شاهقة كأنصبة المحساربين في ساحات روما .

بينما تنعكس الشمس على وجه شوته حرارة الأيام ، وفي اخاديد الوجه العاتم المومياتي ترتسم حكايا السنين . حكايا مريرة ، خفية ، مقهورة ، وجه نمرا مشوه فيه شطوب من عراك قديم جاهلي . ولو اطار الهواء قبعته البيضوية المتكفئة ابدا لبان اثر ضربة سكين في نصف الجمجمة ، من ثورة النبع الشهيرة التي وقعت بين الفلاحين واقطاعيي السهول لتقسيم ميـــاه النبع التي ورثها الاقطاعيون من الحكام الأتراك .

لم تجب الصبية . تتململ ، تهم بالنهوض ، ويشرئب وجهها الطلق في أصيل السهول .

يهتف الأب التعب ثانية بصوت اجش ، من زمن قريب تغيرت يابنت . ماغيرك ؟ كنت تضربين الأرض دوغا ككل من الفجر حتى المغيب . أيكون ذلك لأنك صرت مروسة ؟ يوم خطبت امك ازدادت همتهـا في السقي والتعشيب وقلع الفستق . على اكوام الفستق كنا نتبادل الحب والبسمات .

ويهز رأسه قليلا وهو يسحج التراب المحفور ليجمعه بوابة لتوجيه المياه: ام انما يقولونه في الضيعة صحيح؟ وتتثاقل ناهضة عن التخم المعشب تمسك مجرفتها وتهم باتجاه المساكب الجافة حابسة في مقلتيها دمعة . يستمر الأب في رفع التراب بينما تهجم مياه الساقية الغزيرة نحو البوابة ، تدمم جدارها وتهيل قسما من التراب المذاب في جوف الساقية . آنذاك تنحرف حزمة المياه الهاجمة المتدفقة تغمر مساحة المسكبة المستطيلة ، تنعش وتروي جذور الفستق اللابد بأديم الأرض . يتـابع

الأب حديثه بينما تنتثر قطرات موحلة ـ تحدثها ضربة مجرفة ـ على ثيابه فتبقعها . في الضيعة يحكون ان خطيبك نزل الى مستواك . هو تخرج من الجامعة واجمل بنت في العالم تبوس حـــذاءه . ومع ذلك رضي بك عروساً . واكثر من ذلك ـ وهذا ما أثارني ـ انه لن يسمح لك بالعمل في مزارعي . اصحيح هذا يا ابنتي، اصدقيني الخبر !

وتصمت البنت . تنحني فوق المسكبة التالية تفتح نافذة للماء بعد ارواء المسكبة السابقة . ويهب نسيم الشواطىء رخيا فاترا يدغدغ الشعر الذي قص حديثا . تمور النشوة في ضمير السهل المترامي . ويزقزق عصفور في جوف تينة قريبة . يطير حتى حافة الساقية ، يشرب ويبتل ثم يرفرف ويخترم الفضاء .

قال الأب بحزن : ايحتقر « زاهي » التعب ؟ يخاف تقشير جلدك ، ان تبقعك الشمس بالكلف ، ان تشقق يداك وتتحفر قدماك ؟ المهم يا ابنتي ان تبقى نفس الانسان صافية . الجمال يسكن النفس ، والجسد طعام للدود . ماقيمة بدن ابن آدم ان لم يعمل ؟ نحن فلاحون ونفهم الحياة هكذا . ربما كان عريسك يخجل ان يقال له ابن فلاح اما نحن فهذه مفخرتنا .

كان العرق قد بدأ يسيل بين شعرات ذقنه التي لم يحلقها منذ ايام ، تتراكم حبيبات بلورية اسفل الذقن المدببة وترتمي مختلطة بالمياه والوحل . يتوقف برهة متكئا على المجرفة يرقب اندياح المياه في عرض المسكبة وهي تتلألأ فضية تحت الاشعة . يحس ثقل القبعة يشيلها عن رأسه ويرميها فوق التخم المجاور . « طبعاً ابن الجامعة اكبر من بنت الفلاح . يعتبر نفسه افهم منك هو يأمرك وأنت تطيعين . عمرك كله يا اميرة سيمضي في الذل والاهانات . هو فوق وانت تحت . والله سيأتي

يوم لن يسمح لك فيه باجتياز عتبة دارنا . منـذ الآن يمنعك من العمل في اراضينا ويحرضك على عصياني وانت كالنعجة تسيرين الى المسلخ عمياء بدون ارادة .

وعن بعد يلوح البرج القديم. كومة من الاحجار البنية كصخور الجزر. لم يبق منه مايدل على انه كان مرصد البحار غير كوى صغيرة شبكها العنكبوت بنسيجه الرمادي وفوق اعلى صخرة فيه انتصب احد ملوك البوم يسحق بمخلبه حية صغيرة تحتضر .

ويروح الأب يتابع انتقاداته . وكأنما حديثه نجوى سرية حبست منـذ زمن وفاضت الآن : « انا لست طامعا فيه ولا بشهادته . امه وابوه عزيزان علي . نقلت شاب مثقف ، يفهم ، جارنا وابن الضيعة ليس غريبا . زن الامور بميزان العقل . لم يخطر ببالي يوما ان زاهي سيقف هذا الموقف الجاحد . يحمل شهادة عالية ، صحيح ، ولكن هل شهادته نزلت عليه بقفة من السماء . أليس ابن فلاحين ، وكرم الزيتون الوحيد الذي يملكونه مايزال مرهونا حتى الان من اجل سيادته . عاش الابوان على الزيتون والبصل حتى نال هـــذه الشهادة ، والان كل الضيعــــة تقول راح الامبراطور ، ها هو الامبراطور يمر لايلقي تحية على انسان ، صار اكبر من كل الضيعة . والله لا اذكر يوما ناداني فيه ياعمي ولا سلم علينا . يدخل البيت وكأننا غرباء عنه . ايه ياخسارة العلم !! »

في عين الصبية تترقرق دمعة ساخنة وفي النفس تتواثب احاسيس غريبة محزنة ، متناقضة . كانت تبدو كوثقة بحبلين في ساحة وثمة مباراة محتدمة بين الاب والعريس كلاهما يشد الحبل الذي امسك بطرفه . لم تكن تملك اجنحة لتطير وتعلم ان الاب هو الخاسر . وتذكرت كلمات فارسها الغائب عن الشعر

والحب والمدن الغريبة . عن فردوس الزمن المغلق عن البشر والعزلة والحياة الغامرة بالدهشة ، بالنشوة ، بالاحاسيس الغفل الفارهة . كانت الكلمات ذات مفعول سحري قاس « انا او اراضي والدك » اختاري بيننا . الى الشيطان الارض ووالدك وامك واخوتك . انت لي واريدك لي فقط . انت مملكتي ، ارضي ، شمسي ووطني . منذ الان لست لاحد ، انني اطلق العالم لانضم اليك ، لاصنعك من ترابي الخاص لن تضربي في الارض بعد الان معولا . انا الهك اتفهمين ؟ ويضيف : جلدك ليس للشمس ، سأصد الشمس والريح والتعب عن وجهك النقي . صمت ملايين السنين انحرمت . قبح البشر باحذيتهم المسمارية في عيني . نهشوا طفولتي . زنوا بي . واليوم انا نفسي لست ذلك الاخر . ساجرك معي الى نهاية العالم . نهرب . وعلى تاريخي الطويل آلاف اللعنات .. »

يومها ارسل الرسالة من بلد بعيد . كم بكت بعد قراءتها . ودت لو تطير اليه ، لو تبقى قربه حتى نهاية الدهر . ويمسح الاب عرقه المتصبب بطرف كمه بينما تميل المياه في احد دفوف الفستق فيسرع ليوجهها فاتحا ثغرات متباعدة بطرف المجرفة . يوازن الميـــــاه ثم ينفض الوحل العالق بجرفها على التخم القاسي المشوشب بضربات قوية على قفاها . يضعها في غمرة الساقية الأم ، يخضها مزيلا اخر كتلة وحل . وتصرخ البنت : أبي فاضت المياه في المسكبة اقطعها . اقطعها .

ويثب كالنمر يجتاز الارض والمياه الوحلة ترشق ثيابه وتنقطها ، وقدماه تغوران وترتفعان مرة تلو الاخرى باعثا في هرولته وانخفاضاته ضجة كتلك التي تحدثها الاقدام في كومة طين يعجنها الريفيون لتطيين بيوتهم . يقطع الرجل الماء عن المسكبة بضربات سريعة متقنة ويوجهها الى المسكبة التالية ثم يقف لاهثا « ليس التعب عارا يابنيتي انما هو شرف الانسان والانسان الشهم لاينسى اصله .

يذكر الميلاد والكفن . يذكر الارض مائدته وحده . ابداً لايلبط النعمة ويشمخ ، فالارض وطن الانسان . والله لوصار لي الف ولد ، كل ولد سيعمل كأخيه في الارض حتى ولو اصبح وزيراً . انا ربيتك وانت ابنتي . عندماتتزوجين وترحلين عن بيتي لن اكون وصيا ولن ارغمك على شيء ، اما الان فلن اسمح لغريب ان يتحكم بأموري ويعمي ابنتي علي ..

ويحس ان التعب والحزن قد اخترماه . يتوكأ على المجرفة المغروس نصفها الفولاذي في الوحل ، يمسح يديه المبللتين بثيابه ويمد يمناه الى جيبه ، يتناول منها علبة دخانه العربي الرصاصية ، يفتحها ويلف لفافة ، يبلل الورقة البيضاء الشفافة بطرف لسانه ويختم اللفافة . يعيد العلبة الى مكانهـــا ويشعل اللفافة بقداحة بنزين عتيقة تصدأت ، ويبرح يزفر الدخان والتعب : طاعة الوالدين من طاعة الله يااميرة ، والندم يداهم الانسان بعد الذنب ، ايام الانسان ليست فرحاً ، وإنما الغم والكآبة ديدنا البشر في هذه الدنيا ، وبعد المعصية لن ينفع الندم ، لاتأثمي يا ابنتي ، بالصدق اقسم لك انك ستذكرين اباك والارض وهذه السهول الحلوة . وعندما يشتد عليك الحزن ستقولين : كان ابي محقاً . ياالأيام الطفولة السعيدة لو تعود . سراب .. سراب هي الدنيا ، وابن آدم لايأخذمعه غيرحفنة من تراب في فمه « فما الدنيا الا متاع الغرور » .

كان ينفث الدخان ومع النفثات يرحل الغضب . ومياه الساقية العكرة تغرغر وهي تنزل في شقوق الارض العطشى تحت قلوب الفستق المفروشة كالارغفة .

وعلى خدي الصبية تسيل عبرات تنساب حتى جانبي النحر ويروح نهداها الصغيران يخفقان كفرخي حمام داهمها شاهين جبلي وهي ترفع فأسها لتخدش سطح المسكبة في ليونة ووهن .

وئيداً .. ترجف المياه تنمر قدميها الحافيتين ، تنوران على مهل في سبخة الوحل ، ورويداً تنوصان تحت ثقل الجسد ورخاوة الارض الهشة . والسمة مازال تنحدر .

كان الاب يراقب صغيرته . يسند مرفقه الايمن على عصا المجرفة مائلاً بنصفه .

ويتوجه الحزن . يحس بقسوته وبالصداع ايضا . ببصيرته وتجارب ايامه الماضيات يدرك مصير ابنته ويدرك خطأه فيتمتم لنفسه « الرعاة يقيمون وزنا لمراعيهم الخضراء، والفلاحون وحدهم الذين شقوا مع الارض والشمس لا يتذمرون. لماذا حدث ذلك . لماذا ..؟

يتقدم متمهلا صوب ابنته وفي صدره اشفاق مفاجىء . ضوء ابوي يسطع على روحه تفجره الايام القديمة لبيت كان يمور بالمحبة والفرح والسلام . بيت العائلة الكبير وقد كان سيده وراعيه . البشر والدواب فيه . رائحة الانسان ورائحة الروث ـ لم يكن احد في البيت يتذمر ـ بعيداً عن انوف الغرباء . واميرة تعرف عملها في ايام الصيف وعطل المدرسة ، تثب مع الصبح كالارنبة ، تطعم الابقار والحمير التبن واوراق الفستق المبأة في بيت المؤونة ، تحمل زوادتها وتسرح بالعنزات الى البراري . وفي المساء ـ لدى عودتها ـ تنتظر رجوع البقرات بالسهل . تحلبها وتطعمها والفرح يطفح من عينيها .

حياة .. حياة بسيطة . خصبة ورائعة كالندى فوق الاوراق ، كغيمات محملة ببشير المطر في مواسم الحراثة والبذر . تتوجها العشاء بشواء الفستق والبطاطا الحلوة ، بتفتيت الشعيرة وحكايا الصبايا العاشقات .

كذلك حياة الاسرة كانت تمضي .. وتمضي .. وتمضي .

لنفسه يتمتم وهو يحازي ابنته « ايكون العمر حلما عابرا . ايه يا أميرتي المسكينة ، ايخطفك الغرور ويسدل النسيان فوق روحك الطيبة . يقول الناس : الحمقاء حلت بالقمر فأضاعت الارض »

ويشرق بغصة فقد وهو يلامس جسد ابنته . يخيل اليه انها ليست له . لن تكون بعد الان . سرقت منه . قطعة من جسده يبترها آخر ويهرب بها بعيدا . تصوره يلوح شامتا : ايها الرجل العجوز انت تلد من صلبك ونحن نترف حبات قلبك . عش وحيدا هانحن راحلان بلاوداع . « وفي سمعه ترن قهقهات لص غريب يطوي الوعر هاربا بضلعه المجتث . يغيبان رويدا .. رويدا في الضباب ويتلاشيان .

تتوقف البنت عن العمل يطوقها بذراعيه ويعتصرها بشدة . تنغرز عينها في عين الأب المصاب ويتململ الرجاء ضراعة مغرورقة . كانت كطائر يخبط في شباك الصيد . تود لو تصـــدح السهل و ابي . أنا في الصيد . مصيدة كل البشر . آه لو تدرك محنتي »

وتتموج الآمال تمدو وتتلوى خلف ناطحات السحاب ، عبر شوارع مضاءة تلمع كسطح بلور . أقبية ليلية تفوح بالجنس والدخان والرقص . بعيدا جدا في ليل الوثنيين في مدائن الضباب ، رقص وحشي ورقص حالم تعزفه موسيقى الجاز والروك والتويست والنفس الهاربة .

تويست .. تويست ويختنع الجسد . تتمدد الروح تطارد المدن الغريبة ، تمتطي النورستانا وتجتاز الفواصل . وحيدة مسعورة بالمدى تهدم حدود البشر ، تترك خلفها محطاتهم المعبأة بالحقائب . حقائب مطلية بالغبار منسية من عهد آدم خلف الجدران السميكة .

جريا . . جريا . . لا تلتفي الى الوراء . هاجري يا شقية . بأعدي المسافة مااستطعت . اطوي خرق الايام التعيسة واقذفها في جوف البحر . كل شيء يبدأ بعد هذا الطيلسان الاخضر المفروش على جسد الزمن، هو الفاصل مقبرة الحدود . للايام هنا رائحة التوابيت . والنحل في جراره محصور يفرز السم ويموت ، يغتذي بالحقد ويسنيه المجاف . لتعمر أرض الفستق والسمسم بالبوار . الطفولة..الهذيان القديم . الاصدقاء حكايا خرافية عن مجد الانسان . عن ربيع دائم رغد . وعن شمس تسطع في الظلمة وتتحدى الكسوف .

«هراء .. هراء ليس الا الانسان الممخ وملايين المدى ، وفي المدن البعيدة يولد البشر والرقص ».

ويضمها الاب كما في غابر الأيام ، كما في أزمنة الطفولة وليالي الشتاءات القارسة .

لو يبكي . ود ذلك غير ان الكبرياء يحجمه ، فيتمتم بخفوت دامع : « تتركينني وترحلين مع الغريب . سينفطر قلبي من الحزن يابنيتي . آه . . الثمرة يأكلها الغير ، ربما كانت تلك سنة الحياة ، اما المعصية فان الله لن يقبل بها ، انه سيحزن ، وانت لن تكوني الا تعيسة ، تعيسة الى ابد الآبدين !!

وتغلبه العبرات ، تفيض المياه اسفل المسكبة ، وتتجاوز التخم نحو أرض جاره تتغلغل بين عيدان قصب السكر الصغيرة ويعقب ذلك هدير البحر .

لوحة الحضور

ومنذ خسرت طفولتي وانا أحلم بخيمة مشرعة للريح قرب شاطىء البحر . خيمة من القصب أغفو على عرزالها في أمسيات الصيف الوديعة ، أغزل في الليل

أحلامي القمرية وأغور في بيادر الصمت اسمع الصدى والجنيات وهسيس البحر .

غير ان كل شيء تبدد،حتى الاحلام لم تعد تتخطر في دروب النفس الشقية.
وبقية الذكريات وشجرة الجميز وهذا الشريط الفاصل بين نضرة البحر وخضرة السهول ، خط رملي متعرج لا بدء له ولانهاية ، يزركش ثوب الاطلس ويرهج على حافة الذكرى بين الطفولة وبؤس الرشد .

هاانذا الآن مرمي فوق تخوم الشريط . غريب كنورس البحار ، يخفق في سماواته بهدوء وحزن ، يزقو في نواح زمني دائم وكأنما يضرع للبحر والجزر والشطآن ان تهديه لفراخه التي ابتلعها البحر والصمت .

اني لأتساءل وانا استلقي في مهد ذكرياتي ماالذي بقي لأولئك الفرسان القدامى بعد ان عصفت الارياح بسفينتهم ورمتهم على شواطىء مهجورة بربرية يتيهون عبر مدن كبيرة غريبة وقد حفر على جباههم وشم « الفارون من حريق قرطاجة ! » ؟

تحترق المدن بأصحاب ويدمر مابنته النفس طيلة جيل ما . تنتشر الروائح ويسافر الدخان الى ماوراء البحار ، لكن يظل النورس النواح يحوم ويصيح على شواطىء الفستق والجميز السامق : ذلك مايبقى من رماد المدن المحترقة .

من زهتي الصوفية اوقظني ظل تهاوى قرب قدمي . لمن الظل ؟واغمضت عيني تاركا للمفاجأة فسحة صغيرة .

انهمرت نحنحة . ابتسمتُ وأنا مازال مغمضا :

- بماذا يحلم سندباد ؟ اما آن للهجرات ان تنتهي ؟

وفتحتها رويدا . كان فوقي يطل على جسدي الاسمر المرشوم بالرمل الرمادي .
مددت بسمتي :

— هيه . اهذا انت ، اية لعنة دمشقية قذفت بك؟ اما تزال تحيا؟

ولم اتحرك . حتى المصافحة والتحيات كانت تبدأ بيننا على هذا النحو . نسدد النظر ونبتسم . يلقي احدنا كلمة او يصمت ثم تسيل الكلمات بعفوية دونما خداع دونما جهد مبتذل . قلت : قبل لحظات عبرت في ذاكرتي .

هز رأسه ثم قال : طبعاً بتقييم من نوع جديد ، ولكن قل لي اما انتهت مدة اقامة الشرطة في غرف رأسك ايه . ثم ماذا ؟

— ثم لاشيء . ها انت تحضر قبل ان احضر القضيب ...

وسألني زاهي عن المسبح الجديد . غمز بنصف ابتسامة « لحم سائب فوق الرمل . الشرق يتحرق !! »

وعلى خطوات منا راحت طفلة تثب وقد بللتها مياه البحر . كانت ترتدي مايوهاً فاضحاً ولحمها الاسمر يبرق بنصاعة تحت وهج الشمس . والقطرات تسيل على مهل منزلقة فوق اللحم ثم تتكوم في الثنيات وعلى الارض . نفضت شعرها ، ثم رفعته عن وجهها بتيه وغنج ، فقفزت في الهواء مقدار خطوة او اكثر وانبطحت على دبة الرمل . راحت تؤرجح ساقيها في الفضاء وتقلقل مؤخرتها المكوزة .

وتمدد زاهي على مقربة مني ، يرمح شهواته الباطنية في اللحم المرمي ، يعريه بضربة واحدة من رفة العين فيستوي تحت براثن رغبته المشبوقة مهتوك الستر .

في اوائل تعارفنا كنا نتزل الساعات جدلا حول الجنس والرغبة والتعويضات العرجاء التي تكسر حياة الانسان ، تحيله لصاً يشتهي في الظلمة جميع نساء الارض ، يزني حتى بالمحـــارم . واذكر انه كان لاينفك يردد على مسمعي

الجنس ... الجنس . أحس انني برميل طافح . وهـذا الطفح يحققني.. ان تنقض هذا البرميل نفكر، ببناء الوطن ، ذلك ماينبغي .

وكنت اصفه يومها بالسيالة العاطفية .

ويعقب على كلتي : بناء الانسان معناه ان تصحح الميلان في النفس، ان تخلق توازناً ، انظر الى الاجيال العربية كلها مائلة ..

ولم يكن بيننا خلاف حول الكثير من الامور الخطيرة ، تلك التي تبدو الصارحة فيها شبه محرمة وكنا نتقن انتقاء الزوايا المعزولة ، نفترع فيهـــا اغشية السياسة والدين والجنس بعيداً عن عيون صيادي الاخلاق ، ومن هناك من وراء زجاج النفس الصاحية نبدأ الاطلال على عالم البشر الرحيب والمظلم . ينبسط كل شيء ويتعرى . تتحلل الحوادث الطارئة بقيميات مرفوضـــة ، وتبدو القفزات الاستثنائية خرقاً فذاً ، وحشية مبررة تحيه تحديات العصر والاصابع الخفية التي تغير العالم . وتتوضح الصلات البشرية وجبات يومية من الافيون الرخيص تتناول لتخدير فاجعة وحدة الفرد في كون يحاول الاطلال على مروج طفولته الثورية .

مع الزمن، بنينا ما اسميناه « العالم المتميز » . خرقنا وحدة الانسان بكيفية من طقوسنا الخاصة فانحفرت الصلة كوتد دق في ارض مجفرة ، وحتى الغيـاب الجسدي كان يعني حضوراً في ساحة الذاكرة .

الآن زاهي على بعد سنتمترات مني . قبل برهة كان غائباً وكنت معه على نحو آخر . اتمنى الآن لو امد أناملي لأجسه هـــذا الذي كان يوماً يفيض بالغضب والاحتجاج على وضع الانسان الأسير . التطرف الذي كان يقول « غباء .. غباء .

الانسان هنا يمشي على رأسه . النسف ، لغم الأرض من الجوف ذلك مايصحح وضع الانسان العربي ».

ويومها كنا نحلم بثورة تجتاح وطن العرب . تكتسح الركود والاضطهاد والكبت لتطلق امكانات العربي من اقفاصها المظلمة . تقبر الى الابد البؤس والارهاب وعصور الكهف والشرائق . وكنا نفهم الثورة انفجاراً من داخل الانسان لا من خارجه وانه لابد من ضحايا .

غير أني الآن ارتعش وانا اشعر بحضوره . مازال في النفس ميل ورغبة عامدة لصد التحول الذي انتشـــر كبقعة زيت فوق شرشف حياته الأبيض . وتساءلت بذهول : امن المعقول ان يتحول عالم زاهي الى دوار محموم حول بئر غطست فيه انثى ، ينزح الماء والعين معصوبة؟؟؟

دار الفلك أخيراً دورته ومن ثم توقف عند تلك القدمين ، فوق ذلك الوجه الناصع الطفل ، في مجموع الجسد الشبي الصغير الذي سينهك يوماً ويعود الفلك يدور ...

دُرْ يافلك الزمان فوق القرون . واكسر اقفال الفراديس المغلقة . احمل قرودك الى جزائر اللبان واراضي الشحم الطري ، الى الليل والعتمة السوداء ، الى قفار البؤس والتوحد المرير . زج بهم في آبار اللؤلؤ والوهج . اتركهم وسافر الى اماكن اخرى يحلمون . . يحلمون توشحهم المرارة والندم والنسيان .

ذات يوم كان لا بد للفلك ان يقف بدوزاهي ، على نحو ما . ولكن هل سيكون الثبات على الرأس كبقية البشر ؟ خذروف تبرمه يـــد طفل فوق سطح من البلور الصقيل ؟

وقلت له : هل تصالحت مع البشر زاهي ؟

رد بسمة باهتة :

– تصالحنا ... قامت الثورة ؟

ورنا نحوي بنظرة طاعنة : انا ادرك انك لم تعد مجانبي منذ زمن . ولكني اقول لك ان الثورة مفهوم ضخم . كنا نحاول صيد الآخرين بـه . حبل مبروم يربط البشر به يلوح بهم في الفضاء ثم يقذفهم بعيداً عنه ليبقى هو . ايه ياصديقي القديم كانت ايامنا يانعة رغم مرارتها وكنا اطفالاً . الآن لم نعد . انكسر الطوق. صار بالامكان ان نقفز وتتنشق عبير السهول ونحب الفتيات ونحلم بالمدن الجديدة. صار بالامكان ان نقول : لا !!

– ايحزنك ان اقول لك شيئاً .

– أبدا ..

– يقولون ان لك ظلاً كبيرا .

– جيد .. هذا يعني انني عملاق . من قال لك انني لااتوق لأن اكون عملاقاً يعجن العالم بيديه ويعيد بناءه من جديد، كل شيءهنا يتلف ، ينخر ، هشمه وأعد تكوينه . الثوري ان يتأبد في معابد ثوريته القديمة قد ينخذل أحيانا ،ثم فجأة يرى الضوء . ولاول مرة يحس ان العالم كان يفر ، يعدو وانه خارج العالم ،لنفتح صدورنا للربيع . نصهل كالمهور المشتعـلة بالحرارة والجموح عبر سهول التوق والمدى . الاحلام . الفتوح تكبيرات المجد . هيه .. وعوالم الانسان الخفية ماذا نعرف عنها ؟

وبدا لي عائماً فوق سفينة مهاجرة ، تدخل ممرات روحه السم بلا مجهولة

تفح بالعزاء، بالاجساد الشهية، بالصخب والذهول. وقلت له : اسمع ، أود ان اسألك سؤالا : هل تحب هذا البحر ؟

– طبعا ..

– وهذه السهول الخضر ؟

– بدون شك ..

– وتحب نفسك ؟

– . . ماذا تعني ؟

– لماذا تمنع خطيبتك من العمل في مزاوع أبيها ؟

فاجأه السؤال فتجهم. صار وجهه كالقار. وانعقدت اخاديد من الغضب والحزن على جبهته الصغيرة. تملاني بنظرة بعيدة عن الود القديم ثم انفجر : اجل اجل ،انني امنعها، لماذا ؟ وقهقه بسخرية ثم تابع وهو يحرك رأسه مستخفاً : لماذا لاتوجه السؤال لوالدها. الوالد الكريم الشهم يرهق جسد ابنته كيلا يدفع لعامل اجرة زهيدة لاتتجاوز الليرتين. الى متى تظل مستعبدة له ولمزارعه ؟ ثم ماذا يعطيها مقابل جهدها ؟ لاشيء البتة حتى ولاثوباً ، عدا مواسم الاعياد كما يحدث لافقر انسان في الضيعة ؟

قلت بتوجس : انت ريفي من قرية لبشرها السنة كالسياط ،لهم عيون قاسية تنغرز كالحراب !!

بيده امسك حفنة رمل ثم رشقها نحو البحر. الى الجحيم. لقد جثم البشر فوق صدري قرونا. الان يحق لي ان ارحلهم عني لانني كونتي بيدي. فما مضى لم يكن لي بيت ، سكنت بيوتا لاسقوف لها ،جدرانها مشققة ترشح ، لها رائحة الخرائب. من منهم تقدم ليرأب صدوعي. لم يبق احد لم ينحن ويمسك حجرا

ويرجم ، هؤلاء هم البشر !! تعلى الهياج في عروقه . وبدوت انا خصما في مبارزة . وددت من اعماقي ان اقطع صلتي به وان يتسيب بعيدا عن محاكاتي في غياض الدروب التي يختارهـا . لا ادري كيف شعرت انني آذيته . دخلت صميم رغائبه . وبدت لي سلتنا القديمة على مشارف الاحتضار . كان زاهي انسانا آخر تمنيت ان اعرفه وان احبه من جديد . اتعود عليه من جديد .

انقلبت على بطني فوق منطقة رمل مجاورة اكثر حرارة . رحت احفر في الرمل ابني واهدم كومات تشبه التماثيل وتشبه لاشيء البتة . قلت لنفسي « هذا يوم كئيب »

وفي مواجهتي امتد شريط قصير من شجر الزيزفون ابيض الاوراق ، عبق اريجـــه في محيط احاسيسي . كان البحر والمدى ورائي ، وحضور زاهي الجديد .

مرت هنيهة فكرت فيها بمتعتي بالبحر بالاجساد العارية المرمية بعيدة عني محايدة لاتعنيني وتعنيني . حضورها ثقيل يسبب الاذى والمتعة . وفكرت بالصلات البشرية الشبيهة بحجر الطباشير المبتل . قلت بأسى لنفسي « عندما يهاجر زاهي ربما ان احزن من اجله .. »

خلال هذه النمرة من النم انسحب . نزع ثيابه وارتدى ثياب البحر . مرة اخرى غمرني حضوره . نحيف الجسد ، قصير القامة ، محرق الوجه . بين اصابعه تحترق لفافة حتى منتصفها ، علقها في فمه ثم مصها بشبق وراح يزفرها في الفراغ . كان يتقدم نحوي بخطوات ثابتة ووجه غمرته البهجة . وفجأة سألني وهو على بعد خطوة مني : اتعرف ماهو الاخر ؟

حدقت فيه مليا . ثم انكفأ نظري نحو سور الزيزفون سمعت صوته يقول.

« عجينة ياعزيزي الطوباوي . خميرة في اليد تهصرها حتى تتفتت ، تصب عليها من ينابيعك لتصبح لينة بين قبضتيك وبعدها تبدأ الانامل في صنع التمثال بالشكل المرغوب المشتهي . هكذا الانثى ياصاح . . . »

وبلا وعي تمتمت : « الانثى المستلبة .. الضلع المسروق . الوطن الخاص جداً !! »

لم أنظر اليه، كان الحنق يطفح، وكنت اود ان اقول اشياء مؤذية عن الرجولة والقهر والثوري ، عن الالعاب السائدة يمارسها البشر وكأنهم ابدا في حفلة كرنفال . في وعيي نشب احساس طوفني بالراحة والدهشة لماذا خاتل زاهي نفسه خلال تلك السنين ؟ اكانت سفينة نفسه معطوبة وهو لا يدري ذلك ؟

اقترب اكثر . وركع على ركبتيه ، ثم مد كفه وربت على رقبتي « محال.. محال ان تتزحزح الشرطة من دماغك . ديان حتى آخر الدهر . اسمع جيدا هي زوجتي في المستقبل لن اسمح لها بالعمل في الارض . عملت مايكفي في سالفات الايام اما الآن فلا . يجب ان تتحرر كما تحررت انا من قسوة الآخرين . نعيد بناء عالمنا من جديد بعيداً عن سطوة اهلها، عن سوقية الحياة الريفية وتفاهتها. انها كوخي ، سقفي وغدي . سنهجر بلاد الفستق والريح والبحر ، وستظل الذكرى فقط تلك القروية الصغيرة الملوثة الثياب والقدمين ، والتي كانت تخوض في الوحل من شروق الشمس حتى مغيبها . ولينسج البشر ملايين الحكايا عني وعنها ، اما نحن فسنتخبط في ينابيع رغائبنا وننسى الجميع !!

في اعماقي فار غضب تجشأته سعالا . رمقت زاهي بأسى وغربة . كان بعيداً عني، وكانت المسافة تأخذ في الاتساع ، تتداح دائرة المياه حتى تلاطم حافة البركة ،

كنا منعزلين . كل في شرنقته يغزل حياته على نول منفرد . لا صلة لأحد بأحد ، هكذا منذ بدء الزمن . كانت هناك فقط غشاوة غيمت فوق العين ثم انقشعت . كل الحكايا تمر فوق الشطآن غريبة كنورس البحر النائح منذ الدهر الأول على فراخه التي ابتلعها المحار الأخرس .

وددت لو اقول لزاهي انه مخطىء باتهامي ، وانني شاهد يعبر الدنيـــا على صفيحة جليد عائمة ، والبشر كل البشر مبررون امام نفوسهم ، وانني لا أؤمن بعـالم القضاة . لكني سمعت صوت قدميه الحافيتين تخبان فوق الرمل مبتعداً تهدل الصمت من جديد وعادت النفس من رحلتها . استوى البحر تحت عيني مرصعا بزعفران الشمس الوشكة على الغياب كنت مقبوضا بحبال رصاصية تثقل ضميري .

انحسرت موجة الى جوف امها . تمالكت نفسي واقفا ورحت انفض الرمل العالق بجسدي . من بعيد لاحت الجيزة مشرعة في فضاء الرب . غادرني دفء وبهجة الاصيل وارتمت في الدهاليز كآبة . رنوت الى البيوت الطينية المحورة وقد بهتت في جنازة الغروب . سمعت ضربات المجرفة تهيد شدوخها في التربة الحمراء بلا عون .

وتصورت طائرة تتسلق الفضاء وتغيب في جوف الزمن والسديم حاملة الانثى والصديق ووشاح النسيان . آنذاك بللني حزن السنين القديمة فقفزت كسمكة ثم هويت في جوف البحر .



أمّي والضّيف

- قصة للكاتب الكوري يو ـ سوب شو
- تقديم الناقد الكوري كاب ـ دونغ شو
- ترجمها عن الاسبانية الدكتور خالد الصرفي

عندما نقوم بالتعليق على آداب بلد من البلدان ، نفعل ذلك كما لو كان الامر يتعلق بفن من الفنون ، وفي اعماق ذلك الفن نبحث عن الجمال الذي يشكل مادته الاساسية . ماهو مفهوم الجمال في الآداب الكورية ؟ توجد عدة نظريات حول هذه الظاهرة . بعضها يشير الى ان المرح والحزن هما طابع الآداب الكورية . اخرى تشير الى ان النبل والبساطة هما اللذان يفسران هذا المفهوم الجمالي . ويلوح لي على اي حال ان مفهوم الجمال لدى الشعب الكوري ، لايكمن في النبل ولا في البساطة وانما في مكان متواز بين الاثنين على طريقة الخط الهندسي الذي يميز قصوره ومعابده . بهذا المعنى استطيع ان اقول بأن الرزانة والرقة تشكلان مفهوم الجمال الفني الكوري المحض ، على الرغم من ان الرقة توجد في كل البلدان وفي كل الآداب . المهم ان نعرف مم تتكون تلك الرقة في الادب الكوري .

ليس هناك نظرية تمثل الادب الكوري خلال تاريخه ، لكننا نستطيع ان نرى بوضوح الجو الغامض ، في مكان متوسط ، اي اننا لانرى العظمة القارية ولا الخط الذي يمثل ادب الجزيرة بشكل مطلق . لانشاهد الحيوية الثيرة كما اننا لانشاهد روعة المأساة . اننا نرى فقط صفة الانسان الصابر ، تلك الصفة الناجمة عن الاستسلام .

ليس لدى ادبائنا الكلاسيكيين ، ادب يمكن ان ندعوه بادب السيطرة فيما وراء البحار او بالادب القاري . ليس لدينا ملاحم ايضاً . هنالك فقط موقف ايجابي اعتاد على ان يتغنى بالنصر الروحي للانسان . وهذا هو مايشكل التيار الاساسي الذي يسيل عبر كل الآداب الكورية .

ان الكاتب الذي نقدم له اليوم هذه القصة المترجمة يدعى « يو ـ سوب شو » Yo - Sup Chu . ولد سنة ١٩٠٢ م في « يونغ يانغ » Pyongyang في كوريا الشمالية وكرس نفسه للكتابة منذ سنة ١٩٢٥ .

ان قصته الرئيسية هي « الجريمة » التي نشرت في احدى المجلات الادبية الهامة . ينتمي اسلوبه الى المدرسة الادبية الجديدة التي برزت بعد حركة التحرر الوطنية ضد الاحتلال الياباني في سنة ١٩١٩ . درس في الولايات المتحدة وكان استاذا في جامعة « بيبنغ » PeiPing في الصين . يعيش الآن في كوريا حيث يكتب العديد من المقالات والابحاث في نفس الوقت الذي يدرس فيه في جامعة « كيونغي » Kyunghi في « سيؤول » Seul .

« امي والضيف » اقصر قصة للكاتب الكوري الذي نتحدث عنه . ليست هي حتماً النقطة المركزية للتيار المركزي الكوري ولايمكن ان تمثل بشكل كامل الادب الكوري الحالي لكننا نستطيع ان نلمح خلالها مظاهر الحياة المحلية المحضة ، الحياة التي تجري في منطقة من

المناطق او مقاطعة من المقاطعات . وهذا هو سبب انتقائها كنموذج . انها عالم مرئي من خلال عيني طفلة لم تتعد السادسة من عمرها ، يمكن ان يوقظ خيال القراء .

في القصة تطرح مشكلة امرأة ارملة وابنتها الصغيرة . ان الحياة والقضية الشرقيتين تتجليان فيها ، وكذلك تظهر العادات الاجتماعية لبلد يتمسك تقليدياً بمفهوم محدد تماماً للحياة . يتخلل كل ذلك شيء من الاسلوب الشاعري الرقيق ، ويحتل النصر الروحي ـ الذي تحدثنا عنه سابقاً ـ مكان الصدارة .

امي والضيف

أنا طفلة في السادسة من عمري . اسمي او ـ كي . عائلتي مكونة من شخصين : امي وانا. آه ! كلا ! هناك شخص آخر : خالي . انه طالب في صف شهادة الدراسة الثانوية . لا يلازم المنزل الا نادراً اذ يفضل قضاء معظم اوقاته خارج البيت . وتمر اسابيع احيانا دون ان تقع عيني عليه ، بل انني أنسى شكله .

ان امي في غاية الجمال . انها اجمل امرأة في العالم . عمرها اربع وعشرون سنة . هي أرملة. انا لاأعرف مامعنى كلمة ارملة ولكن جيرانا يدعونني « بنت الأرملة » . أعلم بانه ليس لدي أب بينما بقية الاطفال لديهم . وربما كانوا يدعونني بهذا الاسم من اجل ذلك .

جدتي قالت لي بان ابي مات قبل ولادتي بشهر ؛ وكان قد مضى على زواجه بأمي سنة تماما . كذلك قالت لي بان ابي كان معلما هنا ، ولذلك فقد اشترى بيتا قرب بيتها . وربما انه كان على ابي ان يعيش حيث كان يعلم فان امي لم تضطر للعيش مع حماتها . وقد عاشت امي هنا مع ابي حتى مات . لم أره ابدا ولكنني رأيت مرة صورته . بدا لي في غاية الطيبة . لو لم يكن ميتاً لكان أحسن رجل في الدنيا . انني آسف كثيرا لأنني أضعت أبا في مثل طيبته. في الآونة الأخيرة لم أعد أرى صورته . لقد اعتادت ماما ان تحفظها في طاولتها ولكن امها قالت لها ان تحفظها في مكان آخر . البارحة عندما خرجتُ من الغرفة ، اخرجت ماما شيئا من جرار الدولاب ونظرت اليه . اعتقد بانها كانت صورة ابي .

لقد ترك لنا بعض الميراث . وفي الصيف الماضي . آه ! كلا ! في الخريف الماضي ، ذهبت مع ماما الى مكان يبعد حوالي ١٠ كيلومترات عن قريتنا واقع في سفح جبل. هناك رأيت منزلا

من القش واستطعت ان آكل فيه الكستناء ، ثم لحم الدجاج اثناء الطعام . قالت ماما بان تلك الارض ملكنا ، واننا نستطيع ان نؤمن طعامنا طوال العام بثمن الرز الذي تنتجه تلك الأرض ، ولكن لم يكن لدينا من الدراهم لشراء اللحم والسمك وحلوى من أجلي . لذلك اضطرت والدتي لان تخيط ثيابا للآخرين .

ولكي اكون دقيقة في كلامي أقول بان ماما وانا كنا الشخصين الوحيدين في العائلة ، ولكن بما ان عدد غرف المنزل يزيد عن حاجتنا ، وكانت ماما بحاجة لمن يساعدها في الأعمال الصعبة ، فان خالي أتى ليعيش معنا .

قالت لي ماما بانها ستأخذني الى حديقة الاطفال في ربيع ذلك العام . وقد فرحت كثيرا بذلك النبأ وحكيته لصديقاتي بكل فخر . عندما عدت الى المنزل ، أتى خالي الكبير ، أعني الأخ الاكبر للخال الذي يعيش معنا ،اتى ومعه رجل غريب كان يتحدث واياه في الغرفة الخارجية.(١) عندما رآني خالي ، ناداني وطلب الي ان القي السلام على الرجل الغريب . أحببني ذلك . وسأل الرجل الغريب خالي فيما اذا كنت ابنة اخته فأجابه خالي :

— نعم انها ابنة اختي ، انها ابنة المرحوم كيونغ – سون.

حينذاك قال لي السيد :

او – كي ، تعالي هنا ، ان عينيك تشبهان كثيرا عيني ابيك .

وقال لي خالي :

— تعالي يا او – كي . لقد أصبحت آنسة . تعالي وسلمي على هذا السيد ، انه صديق ابيك وهو سيعيش معكم في هذه الغرفة . سيكون صديقا حميا لك .

فرحت لعلمي بأنه سيعيش في تلك الغرفة ووقفت تجاهه ثم حييته بالحناءة من رأسي . وخرجت راكضة نحو الحديقة .

ضحك خالي وذهبت انا فوراً الى داخل المنزل لأقص على أمي ماجرى .

— ماما ، ان خالي في تلك الغرفة مع رجل غريب وقد قال لي بأنه سيعيش فيها .

---

(١) في المنزل الكوري ، تخصص الغرفة الخارجية للضيوف . تكون مستقلة عن بقية المنزل ويمكن الدخول اليها بواسطة باب خاص ليس هو باب المنزل الرئيسي .

اجابت امي بكل هدوء .

– نعم سيعيش فيها .

– متى سيكون مجيئه نهائيا ؟

– منذ اليوم .

صرخت وأنا أصفق :

– مااعظم ذلك .

واشارت علي أمي بالهدوء وهي تقول: لماذا تفعلين هكذا؟ كفي عن هذا التصرف .

– اذن فان خالي الاصغر سيذهب ؟

– كلا سيبقى كذلك .

– وسيمكث الاثنان معا في تلك الغرفة ؟

– طبعا .

– اثنان في غرفة واحدة ؟

– سنضع حاجزا يقسم الغرفة الى قسمين ، فيبقى خالك في احدهما ويبقى الضيف في القسم الآخر .

كان ذلك السيد على الرغم من عدم معرفتي اياه في السابق ، لطيفاً جداً معي ، ولذلك أحببته كثيراً . ويقول الرجال المسنون في القرية انه كان صديقاً حميماً للمرحوم والدي وانه تلقى دروسه في مكان بعيد عن قريتنا . كانوا يقولون بانه أتى الى قريتنا ليعلم في مدرستها ، وبما انه لم يكن فيها فندق ، فقد اقترح عليه أحدهم ان يتوجه الى منزلنا ويسكن في الغرفة الخارجية . ان المبلغ الذي سيدفعه لنا أجراً لاقامته الكاملة يمكن ان يساعدنا كثيراً .

كان لدى ذلك السيد عدد كبير من الكتب المصورة . وكنت عندما أدخل غرفته ،اجلس على ركبتيه فيريني الرسوم . في بعض المرات كان يقدم لي الحلوى .

ذهبت يوماً لرؤيته بعد الطعام وكان هو مايزال يأكل فجلست انظر اليه . سألني أي نوع من الطعام يعجبني اكثر من غيره علاوة على الارز . فأجبته : البيض . آنذاك أخرج من جرار طاولته بيضة مسلوقة واعطاني اياها، اخذتها وأكلتها . وسألته بدوري اي نوع من الطعام يعجبه اكثر من غيره . فضحك وقال :

– أنا أيضاً أفضّل البيض .

فرحت لسماع ذلك وأجبته بأني سأقول ذلك لها ما .

قال لي :

ـ كلا ، أرجوك الا تفعلي .

بيد انني ذهبت الى أمي وأخبرتها :

ـ هذا السيد يحب البيض مثلي .

حسناً فعلت ، اذ منذ تلك اللحظة أصبحت امي تشتري بيضاً اكثر من ذي قبل . فكلما أتت السيدة المسنة تشتري منها امي دزينة او دزينتين . كانت تقدم البيض المسلوق مع كل الوجبات تقريباً وكانت تعطيني واحدة في كل مرة . هكذا كنت آكل كثيراً من البيض . وعندما كنت أذهب الى غرفة السيد ـ بين حين وآخر ـ كان هو ايضاً يعطيني بضع بيضات احتفظ بهاس أجلي .

كان ذلك السيد لطيفاً فعلاً ، بيد أن خالي لم يكن يستلطفه . أظن انه كان يتحمل كثيراً من المضايقات بسببه ، فقد سمعت ابي يوماً تتناقش مع خالي الشاب بعد العشاء :

ـ أرجوك الا تخرج من المنزل حتى يأتي الاستاذ . عليك ان تأخذ له طعام العشاء .

ـ كلما كنت راغباً في الخروج يتأخر هو في المجيء

ـ ولكن لاحيلة لنا . عليك ان تكون الواسطة (١) .

ـ يا أختي ! لماذا لاتدخلين له انت الطعام ؟ ان العالم قد تغير . ليس عليك ان تتبعي العادات القديمة .

واحمرت امي . كانت تظن انه لايجوز لها ان ترى الرجال وجهاً لوجه وهي في سنها . وضحك خالي منها ، بيد انه وافق على البقاء في غرفته حتى مجيء الاستاذ .

بدأت أذهب الى حديقة الاطفال . تعلمت الغناء والرقص واللعب ، كانت استاذتي تعزف بشكل رائع على الأرغن . وكان أرغن المدرسة أصغر من أرغن الكنيسة لكن جرسه كان حلواً . من المؤكد انني رأيت في غرفة من الغرف العليا في منزلنا شيئاً يشبه الأرغن . وذات يوم ، حين وصلت الى المنزل ، ذهبت مع امي الى تلك الغرفة وسألتها عن ذلك الشيء الذي يشبه الأرغن . سألتها آنذاك :

ـ هل تعزفين على الأرغن ؟ لم تجب فوراً وبدا عليها شيء من الاضطراب وقالت:

---

(١) لاتستطيع المرأة حسب التقاليد الشرقية ان تقوم بأية محادثات مع الرجل او تنظر اليه وجهاً لوجه .

– هذا الأرغن اشتراه ابوك لي خصيصاً وكنت أعزف عليه دوماً . لكن بما ان اباك قد مات لم اعد الى العزف عليه ابداً . كانت امي على وشك البكاء ، لذلك طلبت اليها ان تعطيني بعض الحلوى وعدنا الى الغرفة الداخلية .

كان يطيب لي ان اذهب الى الغرفة الخارجية لتحدث مع ذلك السيد ، لكن امي كانت توصيني الا ازعجه كثيراً . الحقيقة انني لم اكن ازعجه البتة . بل ربما هو الذي كان يزعجني . فبعد حوالي شهر تقريباً من مجيئه الى بيتنا ، كان يخاطبني قائلاً :

– عيناك تشبهان عيني ابيك . لكن انفك الجميل لابد ان يشبه انف والدتك ، وفمك ايضاً . الا تظنين ذلك ؟ وماما هل هي جميلة مثلك ؟

سألته : ألم ترَ ماما بعد ؟ وبما انه لم يجب بشيء ، عدت اقول له : لنذهب لرؤية ماما ، وجررته من اكمامه .

– لا ، لا . لا استطيع ذلك . انا الآن مشغول .

لا أظن بانه كان مشغولاً فعلاً . ولو كان ذلك صحيحاً لطلب الي ان اتركه لوحده ، بيد انه تابع حديثه معي ، وقبل وجنتي عدة مرات بحنان وهو يقول :

من صنع لك هذا الرداء ؟ هل تنامين مع ماما في نفس السرير ؟

كان هنالك شيء غير عادي في كل ذلك . كان لطيفاً جداً معي عادة ، ولكن كلما كان خالي الشاب هناك قريباً منا ، تتغير وضعيته تماما . فلا يعود الى ملاطفتي اوتقبيلي ولا يوجه الي اي سؤال . كان يجلس معي بكل تحفظ ويريني رسوم كتبه ، لابد انه كان يخشى خالي الشاب .

ذات يوم كنت أقوم بلصق بعض الصور امام والدتي ، فحاولت ان اهرب الى غرفة الضيف ، بينا كانت هي تخيط . لكنها ما ان سمعت صوت الباب يفتح لي حتى قامت الي وأمسكتني . لم تكن غاضبة ولكنها قالت لي :

– تعالي ، عليك ان تعتني بشعرك قبل ان تخرجي من هذه الغرفة .

صففته لي ثم زينته بشريطة جميلة وقالت : عليك ان تكوني انيقة دوماً والا ضحك منك هذا الرجل .

ثم تركتني أذهب . في يوم آخر امسكتني وقالت لي :

يا للعار ! انظري الى صدارتك ما اقذرها . ثم تناولت اخرى نظيفة وألبستني إياها .

في يوم من ايام السبت بعد الظهر ، عرض علي ذلك السيد أن أرافقه الى الجبل الذي يقع خلف القرية . سررت كثيراً وقبلت فوراً . لكنه قال لي :

— سلي ماما اذا كانت تسمح لك بالخروج .

وافقت ماما وغسلت لي وجهي ورتبت شعري ثم قالت بصوت مرتفع :

— لاتتأخري في العودة .

اظن انه قد سمع الجملة . صعدنا الجبل ومن هناك كان بامكاننا ان نرى القرية كلها والمحطة ايضا . وارتقى مرافقي فوق العشب بينا كنت اركض من جهة الى اخرى وانا العب . كنت اقطف بعض الاعشاب الصغيرة وادغدغ بها وجهه . وعندما نزلنا امسك بيدي . وحدث عندما التقيت ببعض صديقاتي في المدرسة ان قالت احداهن : **انظرن . هذه او – كي تتنزه مع ابيها .** فاصطبغ وجهي بالاحمرار . كنت أرغب في ان يكون ابي فعلا . كنت أشعر بالسعادة وانا اتنزه معه . وعندما وصلنا الى باب المنزل قلت له فجأة :

— اريد ان تصبح أبي .

عندئذ احمر وجهه وضمني كما لو كان غاضباً وقال :

— يجب الا تقولي هذا الكلام .

خفت واسرعت الى غرفتي . عندما سألتني أمي عما اذا كنا قد ذهبنا بعيداً لم اجبها بل بكيت . ودهشت والدتي وسألتني عما جرى ولكن بما انني لم اكن استطيع ان ادلي بأي سبب تابعت البكاء .

اليوم التالي كان يوم احد . ارتديت ثيابي للذهاب الى الكنيسة . بينا كنت انتظر والدتي حتى تفرغ من ارتداء ثيابها هي ايضاً ، ذهبت الى غرفة الاستاذ وصرت اتلصص لرؤية ماذا كان لايزال غاضباً مني . كان يكتب فوق طاولته . عندما رآني نظر الي وابتسم . هدأت نفسي وشعرت بانني سعيدة أمام ابتسامته . ثم نظر الي بإمعان وهو يقول :

ـ ما اجملك ! الى اين تذهبين ؟

ـ الى الكنيسة مع ماما

ـ الكنيسة ؟ اية كنيسة ؟

ـ هذه القريبة منا .

ـ القريبة منا ؟

وقبل ان استطيع الاجابة على السؤال ، نادتني امي واضطررت الى اللحاق بها . وبما انني خرجت راكضة استدرت برأسي نحو الوراء فرأيت ان وجهه قد احمر من جديد . استغربت لماذا كان حساساً كذلك في تلك الايام .

عندما أصبحنا في الكنيسة ، استمعنا اولاً الى اغنية بعد الصلاة ، وبينما كان الجميع منخفضي الرؤوس . تذكرت الاستاذ واردت ان اعرف ما اذا كان قد جاء ايضا الى الكنيسة . رفعت رأسي ونظرت حولي وفرحت لرؤيته جالساً فوق مقاعد الرجال . شيء ظريف لفت نظري وهو ان الاستاذ لم يكن منخفض الرأس كالآخرين بل كان يتلفت حوله . ابتسمت له لكنه لم يبادلني الابتسامة ، ظننت انه لم يرني ، لذلك رفعت يدي لأشير اليــه فنظر الي وخفض رأسه حالاً . في تلك اللحظة ادركت امي انني لم اكن أصلي وأجلستني الى جانبها . همست في أذنها :

ـ الاستاذ موجود هنا ايضا .

لاح لي ان امي قد خافت ، وأمرتني بالسكوت بعد أن اجلستني فوق ركبتيها . كذلك رأيت كيف ان وجنتيها اصطبغتا باللون الاحمر . كان ذلك الصباح رهيباً . لم تبتسم لي امي مرة واحدة ، وكانت تنظر الي كأنها غاضبة . عندما نظرت نحو الاستاذ لم يبتسم لي هو بدوره وكان يتصرف كما لو انه لم يكن قد رآني . وكلما كنت انظر نحو مقاعد الرجال ، كانت أمي تجذبني ثم تحول نظرها نحو الهيكل . غضبت انا ايضا وكنت على وشك ان ابكي . ولكن بما انني رأيت ان معلمتي في المدرسة كانت قريبة منا ، لم استطع البكاء .

عندما دخلت حديقة الاطفال ، رافقتني خالي في الايام الأولى ، ولكن فيما بعــد صرت اذهب وحدي . عندما كنت اعود الى المنزل كنت ارى امي بانتظاري امام البــاب دائماً فتحملني الى الداخل بين ذراعيها .

عدت يوماً من المدرسة فلم اجدها امام الباب بانتظاري ، ربما كانت قد ذهبت الى منزل

جدتي . شعرت بالوحدة والحزن ، وفكرت في أخاتتها ،ولكن قبل ان اقدم على اي شيء سمعت صوتها خارج المنزل وهي تقول :

— هل وصلت حبيبتي الى المنزل ؟

خلعت حذائي وأمسكته بيدي ثم ركضت نحو الداخل . فتحت دولاباً واختبأت فيه . بعد قليل سمعت صوتها في الغرفة : **او - كي ، أنت هنا ؟**

وسمعت بعد ذلك : **لا لم تأت بعد !**

خرجت بعد ذلك الى الباب لانتظاري. كنت مسرورة وكنت اضحك لنفسي . بعد قليل سمعت محادثة بين ماما وخالي الشاب .

— لم اغادر المنزل طيلة اليوم ، ولكن عندما كانت الصغيرة على وشك العودة ، تنبهتُ الى انه لم يكن في المنزل اية حلوى ، لذلك خرجت لأجلب لها شيئاً منها من منزل الجدة . هذا كل ما في الامر .

— انا ذهبتُ الى المدرسة فقالوا بان الصغيرة قد خرجت منذ حوالي عشرين دقيقة . اذن هي في الطريق . كان ذلك صوت جدتي .

— سألقي نظرة لعلي أراها . اين ترى هـــذه الصغيرة اختبات ؟

كان ذلك صوت خالي الصغير .

بعد ذلك سمعت امي وهي تبكي. فكرت في بادىء الأمر انه يحسن بي ان اخرج ، ولكن قلت بعد ذلك لنفسي انني لم اعاقب ماما بما فيه الكفاية نظراً لرداءة تصرفها معي في الكنيسة يوم الأحد الماضي. فبقيت. كنت اشعر بالحر وبانني أكاد اختنق . ثم نمت . لست ادري كم من الوقت بقيت نائمة ، ولكن عندما استيقظت ، كنت خائفة جداً لأن كل شيء كان مظلماً وغير مريح . لم اتذكر اين كنت وبدأت ابكي . وسمعت صوت امي المندهش :

— ماهذا ؟

وفتح باب الدولاب واخرجتني . ان اول ماتفعله ان خصت جزءاً معيناً من جسمي بعدة صفعات من راحة يدها . ثم مالبثت ان اخذت تلاطفني وتقول :

— او - كي ! حياتي ! لاتخافي . ماما معك . لاتبكي . هل انت بخير؟ أنا لاأريد الا نفعك . لاأحب في الدنيا أحدا كما أحبك . كفي عن البكاء .

حينذاك صاحت الجدة :

ـ ألا تظنين انك تتصرفين بغرابة ؟ هـذه الطفلة مجنونة صغيرة . لماذا اختبأت ؟

وتمتم الخال الشاب : حظ سيء ! يا للمصيبة !

في اليوم التالي عندما عدت من المدرسة ، تذكرت مافعلت في اليوم السابق وأسفت كثيراً من أجل ماما . اردت اليوم ان ارضيها ولكن لم اكن اعرف كيف . وفجأة تذكرت بعض الورود التي كانت موضوعة في مزهرية في صفي . لم اكن اعرف اسمها ولكن كانت جميلة ويظهر انها كانت من خارج قريتنا . كنت اعرف ان امي تحب الزهور كثيراً فعدت الى الصف ولم يكن يوجد فيه احد حتى ولا المعلمة ثم تناولت وردتين ورحت اركض نحو المنزل . تلقتني امي بقبلة

ـ ماأجمل هاتين الوردتين ! من اين اتيت بهما ؟

لم اكن اعرف ماذا اجيب . كنت اخاف قول الحقيقة ودهشت من نفسي حين قلت :

ـ هاتان الوردتان ، اعطاني اياهما السيد الذي يسكن في الغرفة ، هدية لك .

استولت عليها الدهشة وسكتت . احمر وجهها حتى أصبح بلون الوردتين ثم قالت بعـد برهة بصوت مرتجف :

ـ ما كان عليك ان تأخذيها .

وتعجبت لرؤيتها مرتبكة بهـذا الشكل . على اي حال ظننت ان الخدعة كانت في محلها وسررت انها غضبت منه وليس مني . قالت بعد دقائق :

ـ حياتي ، لاتقولي شيئاً من ذلك لأحد ، هل تفهمين ؟

كنت انتظر ان ترمي الوردتين بيـد انها وضعتها في إناء ووضعت الاناء فوق الأرغن الموجود في الغرفة العليا .

بقيت الوردتان اياماً طويلة حتى ذبل آخر برعم فيهما . حينذاك قطعت امي القسم الأعلى منهما بالمقص ووضعتهما ضمن كتاب للاغاني الدينية بعد ان ضغطتهما جيداً .

في تلك الليلة ذهبت لزيارة السيد . جلست على ركبتيه واخذت اتفرج على رسوم كتبه. وفجأة انصت السمع لضجة قادمة من داخل المنزل . كان صوت الأرغن .

ظننت ان امي هي التي كانت تعزف فهرعت لرؤيتها . لم يكن النور مضاء ولكن تحت

ضوء القمر تمكنت من أن أميز امي وهي تلبس البياض وتجلس على الأرض . كانت تعزف بشكل أروع بكثير من معلمتي . اقتربت منها بيد انها تابعت عزفها دون ان تنتبه الي . بعد ذلك بدأت تغني . لم اكن أعرف ان صوتها كان بهذا الجمال . كانت امي اجمل من معلمة المدرسة وكانت تغني أحسن منها ايضا . شعرت انني في الجنة وانا استمع اليها . لكن صوتها أخذ يخفت شيئاً فشيئا حتى سكتت . بعد بضعة ثوان نهضت وعانقتني . في تلك اللحظة كانت تبدو مـلاكا . رأيت دموعا في عينيها .

— لماذا تبكين ياماما ؟

— آي ... بقيت عدة لحظات دون كلام ثم قالت :

— يابنيتي ، انت كل شيء بالنسبة لي ! لست بحاجة الى أحد سواك .

لم نقل اكثر من ذلك .

عندما عدت ذات ليلة الى غرفة ذلك السيد ، أعطاني مغلفا أبيض يحتوي على شيء ما وقال :

— أعطيه الى ماما . هذه أجرة الشهر الفائت .

عندما سلمته لأمي اكفهر وجهها وبقيت دون حراك . لذلك قلت لها :

— انه قال لي بانها اجرة الاقامة .

مع هذه الكلمات ، استعادت رباطة جأشها وعاد لونها الى الاحمرار . فتحت المغلف وأخرجت منه شيئا . كان ورقة نقدية . شعرت بالراحة وتنفست بعمق . ولكن عادت اليها الدهشة عندما نظرت داخل المغلف فرأت انه لازال يحتوي على قصاصة مطوية من الورق . ترددت في بادىء الأمر ثم مالبثت ان فتحتها بتصميم وقرأت ما كان مكتوباً فيها ويداها ترتجفان ووجهها قد احتقنت فيه الدماء . بعد لحظات ، طوتها واعادتها مع الدراهم الى المغلف ثم تركته في سلة من القش تضع فيها ادوات الخياطة .

جلست دون حراك وهي تتنفس بعمق . خفت ان تصبح مريضة فقلت لها :

— هل نذهب الى السرير ياماما ؟

— نعم . قالت لي وقبلتني بشفتين حارتين .

بعد ذلك بقليل استيقظت ومددت يدي كالعادة لكي اتحسس امي بيد انها لم تكن موجودة خفت ورفعت رأسي للبحث عنها . كانت غرفة النوم تلمع تحت ضوء القمر الذي كان يتسرب اليها من النوافذ . ورأيت امي جالسة بلباس نومها في زاوية من زوايا الغرفة قرب صندوق كنا نحفظ فيه ثياب والدي ، اخرجت منه بعض الثياب البيضاء ووضعتها على الأرض . ثم قربت الثياب منها

وضعتها الى صدرها وهي مغمضة العينين تتمتم شيئاً . اظن انها كانت تصلي . اقتربت منها وسألتها بعد ان جلست على ركبتيها :

ــ ماذا تفعلين ياماما ؟

توقفت عن الصلاة وفتحت عينيها . نظرت الي طويلا وقالت لي بلهجة مليئة بالرقة :

ــ حبيبتي او ـ كي

ــ نعم ياه ماما ييتا »

ــ لنذهب الى السرير ثانية

ــ حسنا سأذهب الآن .

كان جرس كلماتها حزينا بالنسبة لي . جمعت ماما ثياب ابي ثم مرت عليها بيدها برفق وعادت الى الاحتفاظ بها في الصندوق . لما انتهت اغلقت الصندوق بالمفتاح .

أخذتني معها الى سريرها فقلت لها :

ــ لنصل قبل النوم

كان من عادات ماما ان تصلي كل ليلة قبل ان تنام . لكنها نسيت ان تفعل في تلك الليلة فتذكرت حين قلت لها واجابت :

ــ آه . نعم . لنصل .

طلبت اليها ان تصلي مي لأنني كنت احب سماع صوتها الناعم . بدأت تتلو « ابانا الذي في السماوات » ورافقتها .

« ابانا الذي في السماوات ؛ ليتقدس اسمك ؛ ليأت ملكوتك ؛ لتكن مشيئتك كما في السماء على الأرض ؛ اعطنا خبزنا كفاف يومنا واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا كما نغفر ذنوبهم وخطاياهم ؛ ولا تدعنا نقع في الخطيئة ... »

وصارت امي تردد هذا المقطع ولربما نسيت مابعده ، لذلك قلت بصوت مرتفع : « بل نجنا من الاعمال الشريرة » . انتهت الصلاة بذلك واعقبها صمت طويل قالت امي بعده : آمين .

ان من الصعب ان يفهم الانسان امي في هذه الايام . كانت تفعل اشياء غريبة . بعض الليالي كانت تعزف الأرغن واخرى كانت تغني . في بعض الاحيان كان غناؤها يتحول الى دموع . وانا كنت ابكي ايضاً حتى تضمني اليها . كانت تأخذني بين ذراعيها وتقول :

– انت كل شيء بالنسبة لي . أليس كذلك يابنيتي ؟ وتعود بعد ذلك الى البكاء . في يوم من أيام الآحاد بعد ان انتهت المدرسة وكنا في عطلة الصيف ، لم تذهب امي الى الكنيسة قائلة بان لديها صداعاً . كنا وحيدتين في المنزل . نادتني وقالت لي :

– بنيتي الصغيرة ، اتريدين ان تري اباك ؟

– نعم ، اريد .

بقيت بضع لحظات صامتة ثم بدأت تتكلم بنعومة :

– بنيتي . ان اباك مات قبل ان تولدي . كان لك اب . ليس هو هنا الآن . لكن لاينبغي ان يكون لك اب جديد . فلو أصبح لك ذلك ، فان كل الناس يحتقروننا ، انت وانا . انت لاتعرفين الناس . انهم سيحتقرونك وستضحك صديقاتك الصغيرات منك . لن تستطيعي الزواج بشابٍ يليق بك ولن تبلغي ابة شهرة حتى ولو كنت تلميذة نجيبة .

هكذا كانت تتكلم وحدها ثم تعود فتقول :

– يا او – كي . ينبغي الا تتركيني . ستعيشين معي ماما . حتى حين أصبح عجوزا ، ستكونين الى جانبي . حتى حين تنتهين من دراستك في حديقة الاطفال ، في المدرسة الاعدادية وفي الثانوية وفي الجامعة ، ستكونين معي . او – كي . بنيتي الحبيبة . كم احبك .

– جـداً . ومددت ذراعي نحوها بكل استطاعتي .

– وانا ارى ايضاً كم تحبينني . حسناً . هل ستحبينني وحدي ؟ ستذهبين الى المدرسة وتتعلمين كثيرا وتصبحين آنسة مهذبة . حينذاك ايضاً ستحبينني انا وحدي .

نعم ياماما احبك كثيرا . فتحت ذراعي وضممتها بكل قوتي .

– طبعاً باحياتي . ماما لست بحاجة لأحد سواك ، الآخرون لايهمونني .

انا بحاجة الى حبيبتي او–كي فقط . هذا هو كل شيء .

داعبتني بعد ذلك كثيراً . في تلك الليلة نادتني امي وصففت لي شعري وألبستني فستاني الجديد . عندما سألتها اين سنذهب ابتسمت وقالت :

– لن تذهبي الى اي مكان .

تناولت منديلاً ابيض مطوياً كان فوق الأرغن وأعطتني اياه قائلة :

– هذا . . . هذا المنديل يخص ذلك السيد . احمليه اليه من فضلك وعودي حالاً .

عندما امسكت به ، شعرت ان بداخله ورقة مطوية . أخذته اليه وناولته أياه . غير ان وضعيته حيالي كانت مخالفة جداً عن عادته ، لم يكن يبتسم وكان يبدو منشغل الفكر دون ان يتكلم . شعرت بعدم الارتياح وعدت الى غرفتي . كانت ماما جالسة امام الأرغن . فهاوصلت وجلست الى جانبها ، بدأت تعزف برقة .

لم أعرف ماذا كانت تلك الموسيقى بيد انها كانت حزينة . عزفت طويلاً والحت خاصة على أحد المقاطع .

ذات ليلة ذهبت الى غرفة ذلك السيد . كان يجمع أغراضه . منذ ان سلمته المنديل ، انقلب الى شخص آخر ، حزين وعاطفي ، لم يكن يتكلم الا القليـــل ولكن كان ينظر الي مليـــا . لذلك أصبح اهتمامي به أقل من قبل ولم اعد أراه كثيراً . عندما رأيته يعد حقائبه ، دهشت :

– هل ترحل ؟

– نعم ، انا ذاهب .

– متى ؟

– الآن ، اليوم .

– هل تذهب في القطار ؟

– نعم في القطار

– ومتى تعود ؟

لم يجب على هذا السؤال ولكنه فتح درجا في طاولته واخرج منه لعبة صغيرة واعطاني اياها قائلا :

ـ يا او ـ كي ، هذه لك ، هل ستنسينني بعد ذهابي ؟

على اثر هذا السؤال شعرت فجأة بالحزن وأجبته .

ـ كلا ، ابداً .

عدت الى غرفتي لأري اللعبة لأمي .

ـ انظري ، ماما . السيد اعطاني اياها . قال بانه سيرحل اليوم بالقطار . بيد ان أمي لم تجب .

ـ ماما ، لماذا يرحل هذا السيد ؟

ـ لأن المدرسة قد انتهت فنحن في عطلة الصيف .

ـ الى أين يذهب ؟

ـ انه يعود الى بيته .

ـ هل سيأتي ثانية ؟

لم تجب . قلت : لأأريد ان يذهب لم تجب . ثم أمرتني : اذهبي الى المطبخ وانظري كم بيضة تبقى عندنا .

اجبتها :

ـ يوجد ست بيضات .

ـ احضريها هنا .

سلقت أمي البيض ووضعتها في صرة ضمن منديل . ووضعت الملح الى جانبه . قالت :

ـ او ـ كي ، خذي هذه الصرة الى السيد وقولي له انها من أجل السفر .

ذلك المساء بعد ان رحل ذلك السيد لعبت بالهدية التي اعطاني اياها انت أمي من المطبخ وقالت :

ـ لنذهب الى الجبل لنستنشق الهواء .

ـ لنذهب ان ذلك يعجبني كثيرا .

اوصت امي خالي الصغير ان يبقى في المنزل حتى نعود .

ـ ماما ، هل استطيع ان آخذ معي اللعبة التي اهداني اياها ذلك السيد ؟

— حسناً ، يمكنك اخذها .

صعدنا حتى قمة الجبل وبدانا متماسكتان يمعى . اشرتُ الى المحطة وقلت :

— **انظري المحطة . لم يعد القطار هناك .**

بقيت صامتة . كان الهواء الخفيف يرفع تنورتها الصوفية بشكل لطيف وبدت امي أجمل من اي وقت مضى .

ظهر لنا القطار من جانب الجبل وكان يسير وهو يصفر نحو المحطة .

صرخت بفرح : انظري هذا هو القطار . هاهو يصل .توقف القطار لحظة في المحطة ثم تابع سيره . وصرخت وانا اصفق :

— القطار يتحرك ثانية .

كانت امي تنظر الى القطار دون ان تتكلم ، حتى غاب في الجهة الثانيـة من القرية ولم يبق في الأفق غير الدخان الذي كان يتصاعد منه .

نزلنا من الجبل وعدنا الى البيت . دخلت ماما الى غرفتها . اقفلت بالمفتاح الارغن الذي كان مفتوحا في الايام الماضية . ثم وضعت سلة الخياطـة فوقه . بعد ذلك فتحت كتاب الاغاني الدينية واخرجت منه الوردتين الذابلتين المضغوطتين وقالت لي :

— **ارم بها .**

صدفة فتح باب الخدم ودخلت بائعة البيض .

— **لانريد ان نشتري بيضا بعد الان . ان الشخص الذي كان يحبها لم يعد هنا .**

قالت امي ذلك بصوت هادىء بعيد عن الحيوية . كنت على وشك ان اطلب من امي ان تشتريها لي ، لكنني لم اجرؤ على ذلك وانا ارى لونها المنتقع . لذلك قلت للعبة :

— **ان ماما قالت اكذوبة . انها تعلم جيدا بأنني احب البيض ،لكن يظهر انها مريضة . انها ممتقعة اللون . لن اطلب منها الان شيئا .**

الفنون



الكتاب والموضوعات

- شاي لشخصين

مسرحية فكرية قصيرة للكاتب السويسري

اندريه ميرسييه

ترجمة الآنسة عصام صبري

- الموسيقى في العصر الاندلسي

مجدي العقيلي



شاي لشخصين

مسرحية قصيرة للكاتب السويسري

اندريه ميرسييه

ANDRÉ MERCIER

ترجمتها الآنسة عصام صبري

(فيلسوف يزور سيدة)

السيدة : قل لي ماهي الفلسفة ؟

الفيلسوف: أصعب الأمور باستثناء أمر واحد .

س : عجباً ! ما أصعب الامور إذن !

ف : هو الكشف هل ثمة علاقة بين المخلوق الانساني والخالق .

س : أليس هذا الأمر جزءاً من الفلسفة ؟

ف : هو جزء من الفلسفة من وجه ، بيد أنه ليس من الفلسفة المحض فهنالك فرق ظاهر .

س : أرى أنك على صواب . أخبرني اذن بنهج اوضح ماهي الفلسفة

ف : أن يكون المرء سعيداً بؤس .

س : ولكن ذاك هراء ! لا يمكن أن تكون الفلسفة «الحال التي انت عليها» وفوق ذلك ليس بوسعك أن تكون سعيداً وبائساً في وقت واحد . إنه لتناقض .

ف : أجل ! الفلسفة ضرب من التناقض .

س : هذا سخف . فلقد علمت أن الفلسفة صنعها رجال عظام ما كانوا ليؤمنوا إيماناً ساذجاً بتناقض ما !

ف : أجرؤ فأقول إنك على حق في هذا . لقد كنت غبياً . إنما عنيت أن أقول إن الفلسفة هي التناقض .

س : ولكنك تكرر نفسك ! يا للسخف .

ف : لم أكرر نفسي . كنت مخطئاً أول مرة إذ قلت « ضرب » من التناقض . وأقول الآن وأصر على ذلك : الفلسفة هي التناقض بأداة التعريف .

س : فهمت . أي إنني لم أفهم . أعطني تفسيراً آخر ، تفسيراً يفهمه الانسان البسيط .

ف : حسناً أظنني من واجبي أن أقول : الفلسفة هي طريق الحب .

س : حقاً ! ماذا تحب أنت إذن؟

ف : من تعنين بأنت ؟

س : أنت .

ف : إذا كنت أنا الذي تعنين ، فانني أجيبك بأني أحب كاني .

س : أنت ماكر . كنت أتوقع أن تقول إنك تحب زوجتك أو لعلك لاتحبها فتجنبت الاجابة الصحيحة . ليس هذا سخفاً بل هو مكر .

ف : ليس هذا مكراً ولا سخفاً . وبهذه المناسبة إنك لم تسألي من أحب ؟ وانما سألت ماذا احب ؟ فأجبتك كاني .

س : هذا صحيح . أظن أن هذا هو أسلوب الفلاسفة في المناقشة للتخلص من الصعوبات ولكن ماشأن كانك بالفلسفة اذن ؟

ف : ربما كان من الأفضل أن اقول ليس كاني هو الذي أحب .

س : أنا لا أقبل ذلك لقد قلت أنك تحبه وعليك أن تحبه .

ف : أجل ! قصدي أنني لست احب كاني في الواقع ، إنما احب ذاك الذي كاني صورة له .

س : إن كانك ليس صورة ، يمكن أن يكون له صورة في رسم أو في مرآة !

ف : تلك هي إذن سورة الصورة . أننا لا نرى قط الا صوراً لما نحب ، وانني ارى كاني وبالأحرى أنا اعزف عليه ولكن ذاك هو الذي اعنيه بالضبط .

س : لقد ادركت الفكرة الأخيرة بغموض . ولكن الفكرة الاولى ممتنعة ، انك لا تستطيع ان تقول انك لا ترى الا صوراً لما تحب ! هل تستطيع ؟ مثلاً انك تحب زوجتك او اخرى لا تريد تسميتها ، وهي ليست صورة .

ف : كلا أنت مخطئة . انها الصورة لما احب . لا تقاطعيني ارجوك اعيري أجوبتي بعض الانتباه قبل ان تلوميني على هذا الأمر او ذاك لوماً في غير مكانه . قلت انها هي الصورة لما احب ، وقلت ان كاني هو صورة ، واحب أن أنوه بالفارق الضعيف بين ان اضع لام التعريف وألا اضعها .

س : ان هذا نحو وليس فلسفة . وربما كان النحو أمراً مُبْرَماً .

ف : لقد فاطمتني . ولكن ربما اصبت في ذلك وأنا كان الأمر بوسعك أن تقولي ان الفلسفة نحو حسن . ولكن أخشى اذا كانت الفلسفة نحواً ليس غير ، أن تغدو أمراً مضجراً . انها في الواقع أكثر من ذلك . انها لغة خاصة تستعمل في منهج مناسب وعندئذ تكون شائقة حقا .

س : ولكن ليس هــــذا كافيا . فالقصة أيضا هي لغة خاصة تستعمل في منهج مناسب ويمكن ان تكون شائقة حقــا . ولا يمكن ان تكون الفلسفة مجرد ذلك كما يبدو لي . اعطني تفسيراً اجود ، تفسيراً ابسط اذا شئت .

ف : يمكن ان تكون القصة فلسفة ، وهي كذلك في الواقع احيانا كما تعلمين .

س : لا أصدق ذلك اعطني مثلاً .

ف : أظن ان كتاب The Ordeal of Richard Feverel يمكن ان يضرب مثلاً صالحا على ذلك .

س : ويحي ! بالكتاب المدرسي العتيق . حسبتك تقترح مؤلفا حديثا أخاذاً وها انت ذا تتكلم عليه كما لو كان شائقاً .

ف : خير لي ألا اتكلم عليه إذن .

ولكنك رغبت في تفسير بسيط . كان علي أن أحاول وضع التفسير على الوجه الآتي وهو أن « الفلسفة تقوم بين الشك والعرفان » .

س : ليس هذا سيئا ولو بدا لي انه لايصيب الهدف تماما . لم لزم ان نستعمل كلة يونانية مطنطنة مثل كلمة الفلسفة بين كلمتين انكليزيتين بسيطتين هما الشك والعرفان .

ف : وأنا كذلك لاأظن اني أصبت الغرض . وبهذه المناسبة لفظ الشك (باللغة الانكليزية) من أصل لاتيني . هل تستطيعين تعريف هذا اللفظ ؟

س : سأجرب . أظن أنه ... كلا . أعني ، عندما أنا ... لا لا ينفع هذا . كانوا في المدرسة يسقطون دائما تعريفنا اذا قلنا « انه عندما .. » ساعدني .

ف : سأجرب أنا ايضا . اظن علي أن أقول ان الشك هو تعليق الحكم .

س : أصبت ، انا موافقة . ماالعرفان بعدئذ ؟ لا ، لاتقل لي . دعني أجرب بنفسي ، أليس هو نتيجة الحكم أوحصيلته ؟

ف : أصبت

س : ولكن الفلسفة حينئذ هي الحكم !

ف : أظنها قريبة جدا منه . وبهذه المناسبة الا تلاحظين أننا نبحث عن لغة خاصة تستعمل بنهج ملائم ؟

س : هذا لايهمني . لاتقاطعني وانتبه الي : ترضى الآن ان تكون الفلسفة هي الحكم وقلت منذ قليل انها الحب فأحد القولين لا بد ان يكون خطأ .

ف : لا .

س : يالك من محبّ للاغراب ، حذار ان تعود للغموض مرة ثانية .

ف : لست بالغامض ، وحب الاغراب جزء من عمل الفيلسوف . أخبريني هل أعطيت حكما يوما ما ؟

س : كلا . أي انني لم أصدر حكما كما تفعل المحكمة في قصر العدل .

ف : ولكنك تطلقين بعض الاحكام أحيانا . مثلا تحكمين على أعمال ابنك الشاب .

س : أجل

ف : وأنت تحبينه .

س : أجل ، ولكني لاأحب مايفعل ، فأنا أحكم على أعماله وأحبه هو ، وثمة فرق .

ف : فرق في الكلام . أظن بوسعنا أن نرتب ذلك في لغة مناسبة . انظري هنا الآن : **أنا أعلم انك توافقين انك تمتنعين عن الحكم على مالاتحبين فاذا فكرت مليا في ذلك تلاحظين عدم جرأتك على الحكم على مالاتحبين وعلى من لاتحبين وأنك تحكمين على ماتحبين ومن تحبين . وبهذا فان الحب والحكم أمر واحد تقريباً . ويختلف هذان الفعلان أحدهما عن الآخر من الناحية الميتافيزيائية .**

س : لقد حذرتك ان تستعمل كلمات يونانية مطنطنة .

ف : لم تحذريني . ومع ذلك فأنا اقدم اعتذاري . لقد قصدت ان اقول ببساطة: عندماتحبين لاتحكمين وعندماتحكمين لاتحبين ولكن لكل من الحكم والحب الهدف نفسه .

س : ماهو ذاك الهدف ، نفسه ، الذي أقصد اليه ؟

ف : يدعوه بعضهم بالكينونة او الوجود وبعضهم بالحقيقة الواقعة ولكنهم يعنون شيئاً آخر وراء الواقع العادي للاشياء التي تحف بنا . انه ليس بالشيء الذي يشار اليه على أية حال . عندما تجيئه لايكون هنا ، يكون حيث لا ينالـه الحكم ، انه ــ ويجب ان استعمل هنا كلة لاتينية كبيرة ــ انه متعال Transcendent ولكن عندماتحكمين عليه، يتعدد في الوجودات الحاضرة مثل ابنك وكلبي وحتى المرأة التي أحب . فعلى الرغم من اني احكم عليهم فأنا اذ ذاك ولذلك لا أحبهم في ذلك الوقت . واني حين ، احبهم ، لا احبهم في الواقع ، وانما احب من خلالهم ، لانهم صور للوجود التعالي . وذلك الوجود هو الذي احب .

س : واها كأن ذلك الوجود حاضر كل الحضور غائب كل الغياب في الوقت نفسه ؟ ألا قل لي ألم نتعلم في الكنيسة اننا يجب ان نحب جيراننا كما نحب انفسنا ؟

ف : بلى لاريب في ذلك . حسبك ان تستبدلي كلة ، الحكم ، بكلمة ، الحب ، لتحصلي على جملة أخرى مفيدة طريفة لها نفس المعنى تماما .

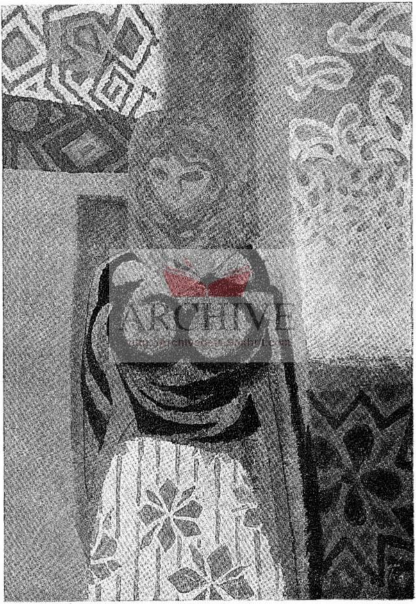
س : لقد فهمت . ولكن أليس الوجود اذن هو الله ؟

ف : انك لفيلسوفة . وعلى أية حال فان سؤالك الاخير صعب علي جدا : انه تقريبا ، أصعب المسائل ، وفوق منال الفلسفة البسيطة . انه يخص توق الانسان الى شراب مجهول ثمين سماوي .

س : اتريد قليلا من الشاي اذن ؟

ف : نعم ، شكرا ، وبدون حليب اذا شئت .

* * *



البستانية الحسناء — للفنان نعيم اسماعيل — مجلة المعرفة

الفنان نعيم اسماعيل

اللوحة
البستانية الحسناء

حاول الفنان ان يستفيد من معطيات الفن العربي ـ وخاصة الزخرفة الاسلامية ـ ويطورها باسلوب خاص به .

واكثر موضوعاته عن الريف العربي السوري بحياته وعاداته وتقاليده .

الموسيقا

في العصر الأندلسي

بقلم مجدي العقيلي

نستهل بحثنا عن الموسيقى العربية في العصر الاندلسي بالبحث عن الاندلس نفسها لنتعرف أولاً الى خصائص تلك البلاد وموقعها الجغرافي وما يحيطها او يجاورها من البلاد الاخرى التي قد تتأثر بطابعها بحكم جوارها لها، ثم دراسة الامم التي حكمتها وتأثرت بثقافاتها وعاداتها وتقاليدها، لنقف بعد ذلك على حقيقة التراث العربي الأندلسي وكيف حل في البلاد الأندلسية وتأثر بأجوائها واتسم بطابعها، ثم لنعود مع هذه الفنون في عودتها من قرطبة بعد الحكم العربي في الاندلس الى بلاد المغرب العربي في شمالي افريقيا، ثم الى الشرق متشحاً بالوشاح الاندلسي الجميل.

والأندلس ، هي شبه جزيرة ايبريا التي تضم بلاد أسبانيا والبرتغال ، وتقع هذه البلاد في الجنوب الغربي من اوربا ، فعند شمالها وغربها يقع البحر الأطلنطي ، وتقع عند شرقها الشمالي جمهورية فرنسا ، وعند شرقها وجنوبها البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق ذلك الممر التجاري المعروف . ويعود سبب تسمية هذه البلاد بالاندلس الى شعب (الوانداك) الذي سكنها حقبة من الزمن ، ولقد ذكرها المؤرخون العرب بإسم الاندلس وذكرها ابن خلدون أحياناً بإسم « فنداش » و « فندلس » .

والوانداك شعب من شعوب القوط ، وأصلهم على التحقيق من شمال اوربا ، هبطوا على المملكة الرومانية واحتلوا شطئان الدانوب، ولما انساحت موجة الهون على اوربا ، اندحر القوط أمامها الى غربي أوربا وسكن الوانداك منهم شبه جزيرة ايبريا بين القرن الثالث والرابع الميلادي ، وسميت منذ ذلك الحين (واندلوسيا) نسبة اليهم وحرّفها العرب لتتمشى والنطق العربي فأصبح اسمها « بلاد الاندلس » منذ ذلك الحين .

ويعود تاريخ اجتياح الوانداك لشمال الافريقي الى اوائل القرن الخامس (٤٣٠) الميلادي بالاتفاق مع الوالي الروماني الثائر على حكومته « بونيفاس » ثم خافهم الوالي وحاول ارجاعهم الى الاندلس بالتفاهم والاتفاق ، فلم يبالوا به ، إذ ادركوا ضعفه واستولوا على الشمال الافريقي حتى « سرت » ، وبقيت دولتهم فيها حوالي قرن من الزمن ، وكان أشهر ملوكهم فيها مؤسس دولتهم « جنسريق » ، ومازال حكمهم فيها حتى دخول العرب الشمال الافريقي فاتحين .

ويشير الاستاذ وانفيل في كتابه (ممالك اوربا) بأن كلمة اندلس مشتقة من « واندلوسيا » أي بلاد الوانداك ، وذكر الدكتور رجائي في كتابه « من

كنوزنا ، بأن الفاندا قبائل هبطت افريقيا واستولت على شبه جزيرة ايبريا بعد ان تغلبت القبائل الجرمانية على روما ، وكانت افريقيا منذ زوال دولة قرطاجنة القديمة في اوائل القرن الثاني قبل الميلاد حتى اواسط القرن الخامس بعده ولاية رومانية ، وكانت شبه جزيرة ايبريا تابعة لهـا ، ولما استولى عليهـا الفاندال في اواسط القرن الخامس بعد الميلاد خرجت من سلطة الدولة الرومانية الشرقية حتى استعادها يوستنيان امبراطور الدولة الشرقية على يد قائده بيلزاريوس في اوائل القرن السادس بعد الميلاد ، وظلت الدولة الرومانية تحكم هذه البلاد حتى غزتهـا الجيوش العربية الاسلامية عام (٧١٠) م وكان هـذا التاريخ نقطة انطلاق وتحول في سائر الميادين العلمية والاجتماعية في هذه البلاد .

وفي عام (٧١٣) م استتب الامر للحكم الأموي في الاندلس ، وبدأ الخلفاء يرسلون لها الولاة لادارتها وحكمها ، وظل هذا النظام سارياً في الاندلس حتى نهاية العصر الاموي في دمشق (٧٥٠) م حيث انتهت الخلافة الاموية بوفاة مروان الثاني آخر الخلفاء الامويين ، وبدأت الخلافة العباسية في العراق بعـد نشوب ثورة عارمة اطاحت بملك الامويين في موقعة الزاب المشهورة في الخامس والعشرين من كانون الثاني من العام المذكور ، تلك الثورة التي يسرت للعباسيين الذين كان مركزهم خراسان استلام الخلافة ، وبذلك انتقلت عاصمة الملك من دمشق الى الكوفة في العراق .

وكان هناك شاب من الاسرة الاموية اسمه عبد الرحمن الداخل استطاع ان يفلت من سيوف العباسيين ، فاتجه عام (٧٥٥) م هارباً من دمشق اثر انحلال دولته ، بطريقه الى المغرب ، ومنها سافر الى شبه جزيرة ايبريا حيث اسس فيهـا دولة منفصلة عن الدولة العباسية واعاد بذلك الكيان الاموي في الارض الاندلسية ،

والقام فيها حضارة عربية اسلامية أضحت فيما بعد محج العلماء وطلاب المعرفة في المغرب والمشرق .

استطاع هذا اللاجيء ان يغير اتجاه تلك البلاد ويرفع كيانها. ففي عام (٧٥٥)م دخلها لاجئاً، وفي عام (٧٥٦)م دخل قرطبة حاكماً فاتحاً واعلن سلطانه عليها، ومنذ ذلك الحين اصبح للبلاد الاندلسية تاريخ منفصل عن الخلافة الاسلامية في المشرق ، ثم نصب نفسه عليها باسم عبد الرحمن الاول ، وظل حكمه سائداً من عام (٧٥٦) م حتى عام (٧٨٨) م وكان ذا حزم وشدة ، فقبض بيد قوية حازمة على القوات العربية القبلية والبربر والمولدين من الاسبان الذين اسلموا . وبذلك نجـــد ان الفضل في تأسيس هذه الخلافة يعود الى هذا القائد الفاتح، وان عبقريته الفذة هي التي خلفت للأمة العربية تلك الصفحات الوضاءة من التاريخ المشرف الذي لا يزال موضع دراسة العلماء والادباء والمؤرخين .

وعند انتهاء دور الدولة الاموية في الشرق ظلت الموسيقى محافظة على كيانها رغم التأثيرات الداخلية وتدخل الفقهاء والمشرعين في شؤونها الفنية بالاضافة الى التأثيرات الخارجية الفارسية منها والبيزنطية التي كانت تحيط بموسيقانا وما ادخل عليها اساتذة الدور الثاني لشراح المدرسة الاغريقية من ألوان ربما تكون غريبة عنها ، فاتسمت بطابعها الى حد ما وسايرت في تطورها تلك الاحـــداث التي احاطت بهـا .

ويعود صمود الموسيقى العربية امام هذه الاحداث القوية الشديدة الى شغف العربي بموسيقاه وتعلقه بسماعها وحرصه على بقائها والاستزادة منها . ويشير المستشرق السرتوماس أرنولد في كتابه (تراث الاسلام) الى تعلق العربي بفنه وموسيقـاه بقوله : « ... ويمكننا ان نفهم عظم منزلتها عنـدهم حق الفهم من الكتب العربية

امثال (العقد الفريد) لابن عبد ربه ، وكتاب (الاغاني) للاصفهاني ، وكتاب (نهاية الأرب) للنووي، وهي ميسورة باللغة العربية فقط لسوء الحظ ، انك لتجد فيها كيف رافق الموسيقى العربي من المهد الى اللحد ومن التهليل الى النوح ، وكل دقيقة من حياة العربي لها موسيقاها ، فمن الجـد الى الهزل ومن تهجد الى الصلاة الى مثار النقع.. **وكاد يكون لكل عربي ميسور الحال مطرب خاص يلازم بيته اكثر مما تلازم بيوتنا الآن هواية العزف على البيان » .**

على أن عبد الرحمن الداخل قد اعاد الى بلاطه في الأندلس سيرة الخلفاء الأمويين الأولى الاجتماعية والموسيقية بموسيقاها وقيانها ورونقها وبهائها ، فكان له قينته المحبوبة غفرة التي كانت تغنيه بمصاحبة عودها، فازدهر الأدب والفن الموسيقي في عهده رغم اشتغاله بأمور الدولة وادارة الحكم ورعاية العلوم والفنون .

وفي عام (٧٨٧ م) تلاه في الحكم هشام الاول الذي دام حكمه ثماني سنوات ازدهر خـــلالها الشعر والادب ، وبذلك اكمل رسالة سلفه العلمية والادبية دون الموسيقية بسبب ورعه الشديد ، ولم يعر الموسيقى الاهتمام الذي تستحقه بسبب تأثير فقهاء المذهب المالكي على بلاطه ، هؤلاء الفقهاء الذين يعتبرون الموسيقى من الامور المحرمة .

وفي عام (٧٩٦ م) عادت الموسيقى الى سابق مجدها وازدهارها في قصور الاندلس ، لان السلطان الجديد أبى أن يسيطر عليه الفقهاء واستنكف أن يسير في ركابهم ، ولذا نجده قد عمل على نهضتها وازدهارها ، ونـذكر من موسيقيي بلاطه العباسي : النسائي والمنصوري وعلّون وزرقون ، ودامت سلطنته مايتوف عن ربع قرن .

وفي عام (٨٢٢) م استلم السلطنة عبد الرحمن الثاني اثر وفاة الحكم بن هشام ، وفي عهده لقيت الموسيقى وجماعتها من العناية والرعاية مالم يلقوه في العهود السابقة ، كما ظل الشعر والأدب يسيران في طريق النهوض والازدهار ،وفي عهده وصل زرياب المغني الى الاندلس هارباً من تهديد استاذه اسحق الموصلي في بغداد ، وعينه السلطان رئيسا لموسيقي بلاطه ونديمه الخاص ، وتأسس في عهده في قرطبة أول معهد موسيقي ، وكان هذا المعهد هو الاول من نوعه في المغرب الاوربي ، وظلت هذه المدرسة الفنية حتى سقوط السلطنة الاموية في الانـدلس ، وبموت عبد الرحمن الثاني عام (٨٥٢) م اندثر الكيان الاندلسي حيث تمزقت أوصاله الى عدد من الدويلات والممالك الصغيرة ، وبقي السلطان يحكم قرطبة شكليا .

وكان من الطبيعي أن يتأثر الأدب والموسيقى بجو البلد وعاداته وتقاليده وفعلا فقد تأثر زرياب بذلك الجو الجميل الذي يوحي بالعزة والكرامة،وبالعادات العربية الاسلامية ، فكان له اليد الطولى في تطوير الشعر الغنائي ، كما طور الغناء المعروف في العصر العباسي من نوع القصيد المسمى بـ (الصوت) الى الحان طويلة متعددة الاوزان بادئاً من الموازين الثقيلة الى الاوزان المتوسطة السرعة والتنقل منتهيا بالأرمال والاهزاج الخفيفة والسريعة الميزان ، ثم وضع لها الحانا موسيقية تتناسب مع ميزانها ، وجعل طريقة عزف هذه الالحان واداثهامن الفرقةالوسيقية بالتناوب ، ولذا سمي هذا اللون الموسيقي بالنوبة .

وكانت النوبة أرفع صورة فنية للموسيقى العربية ، ويرجع تاريخها الى العصر العباسي في عهد اسحق الموصلي ، الا ان(زرياب) وهو المبتكر الاول لها قد طورها في الاندلس بحسب ماأوحت اليه أجواؤها حتى خرجت عن طابعها العباسي واتسمت بالطابع الاندلسي .

تلا حكم عبد الرحمن الثاني في قرطبة خلفاؤه محمد الاول ودام حكمه حتى عام (٧٨٦)م ثم المنذر ودام حكمه حتى عام (٨٨٨) م ثم عبد الله ودام حكمه حتى عام (٩١٢) م. وكما يظهر من هذه العهود ،فان الموسيقى والشعر والادب قد شقت طريقها وشعت انوارها على الاندلس وسائر بلاد العرب عامة على الرغم من تعصب الحاكم الاخير عبد الله وتعنته ضد الموسيقى والغناء .

- كتاب المعرفة — بناء الاشتراكية في الصين

عرض وتحليل الدكتور هشام متولي

- رسائل المعرفة — رسالة باريس

لسعد الله ونوس

- مع الاحداث العالمية - وفاة اوسكار لانجه
- مقابلات المعرفة — مع الأديب اللبناني ميخائيل صوايا
- القصة العربية -
- كتب جديدة
- فنون
- منجزات العلم
- اخبار ثقافية

كتاب المعرفة



بناء الاشتراكية في الصين

- للاقتصادي الفرنسي شارل بتلهيم
- عرض وتحليل الدكتور هشام متولي

وافق الاستاذ شارل بتلهيم ، الاقتصادي الفرنسي الذي اشتهر بمعالجته لقضايا التخطيط والاقتصاد الاشتراكي والمشاكل الاقتصادية التي تتعرض لها البلدان المتخلفة ، على الاشراف على إصدار سلسلة من الكتب الاقتصادية أطلق عليها اسم « الاقتصاد والاشتراكية » .

وكان الكتاب الاول من هذه السلسلة للاستاذ بتلهيم نفسه ، جمع فيه محاضراته عن قضايا البلدان المتخلفة وطرق التخطيط الاقتصادي . وكنا قد نشرنا بعضاً من هذه المحاضرات في مجلة « المعرفة » (١) ، وكنا نود متابعة الترجمة لما يمتاز به الكتاب من أهمية ، ولكن ظهرت له ترجمة في القاهرة تحت عنوان « التخطيط والتنمية » بقلم الدكتور اسماعيل صبري عبد الله .

وهاهو الاستاذ بتلهيم يصدر الكتاب الثاني من السلسلة المذكورة عن « بناء الاشتراكية في الصين » (٢) . واشترك في كتابته مع جاك شاربير ، وهيلين مارشيزيو .

ومن حيث المبدأ ، يمكن القول مع المؤلف ان الكتاب الذي نقدم عرضاً له هنا كان ثمرة جولة دراسات اقتصادية في بعض البلدان الاشتراكية وفي الصين الشعبية على وجه الخصوص . واعتماداً على هذه الطريقة في الذهاب الى تأليف كتاب عن بناء الاشتراكية في الصين ، لم يلجأ المؤلفون الى ذكر مصادر البحث والجداول الاحصائية بقدر ما اهتموا بالدراسة الحية المجسدة للحياة الاجتماعية والتنظيم الاقتصادي المطبق في الصين .

(١) انظر مجلة « المعرفة » الأعداد : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ من عام ١٩٦٥ .

(٢) La construction du socialisme en chine E. F. Maspero. Paris 1965

أما الكتابين التاليين من هذه السلسلة فهما : الانتقال نحو الاشتراكية في فيتنام ، ثم الاقتصاد السياسي للتنمية للاستاذ بول باران .

وإنه عن طريق دراسة تطور هذه الحياة، وتطور هذا التنظيم، يمكن اغناء النظرية الاشتراكية وتوسيع مدى شمول تطبيقها.

ومن هذه الناحية، يمكن اعتبار هذا الكتاب مختلفاً في كثير من نقاطه عن كل ما سبق ونشر عن الصين الشعبية من دراسات اقتصادية. اذ أنه لم ينطلق فقط من الأسس والمبادىء النظرية المتعارف عليها كذلك مما تحقق حتى الآن من تجارب اشتراكية، ولكنه أيضاً، وبالاضافة الى ذلك، نفذ الى «لب» عملية التحويل الاشتراكي ودرسها من الداخل ان صح هذا التعبير. وهكذا فانه كتاب انطلق من الأسس النظرية ليلاحظ «زواجها» من مراحل التطبيق والتحويل الاشتراكي، وليستخلص، في الوقت ذاته، ثمرات التطبيق ومدى مساهمتها في النظرية الاقتصادية للاشتراكية.

وبغض النظر عما له صلة بالقضايا السياسية، نلاحظ أن كثيرين، من مختصين وغير مختصين، من اشتراكيين وغير اشتراكيين، يبالغون في تمجيد وتعظيم التجربة الاشتراكية الصينية، ويعتبرونها التجربة الرائدة، في حين أن آخرين، يبالغون من جهتهم في وضع التحفظات على هذه التجربة. ولكن الاستاذ بتلهيم، وهو من انصار التحليل الماركسي اللينيني، يذهب الى أن اولئك وهؤلاء على خطأ، وأن التحليل الماركسي اللينيني الصحيح يؤدي الى الكشف عن الأوجه الايجابية والأوجه السلبية للتجربة الصينية، وأنه يأخذ بعين الاعتبار الظروف الواقعية والمرحلية للصين التي يبلغ تعداد سكانها ٧٠٠ مليون نسمة، وبذلك تكون أكبر بلد في العالم من حيث تعداد السكان، والتي تبلغ مساحتها ٩،٧٦ ملايين كم²، والتي تتعدد وتتنوع مصادر الثروات الطبيعية فيها، سواء من الناحية الجيولوجية أم من الناحية الزراعية.

واذا كانت التجربة الاشتراكية في الصين لا تقود صاحب الرأي الموضوعي الى القول بأنها اتت بالحلول النهائية والصالحة لمختلف الأوضاع التاريخية، شأنها في ذلك شأن بقية التجارب الاشتراكية، فانها بالمقابل قد طرحت مسائل وقضايا جديدة

لم يسبق للتجارب الاشتراكية أن طرحتها منذ ثورة ١٩١٧ في روسيا.

فمثلاً يلاحظ أن الصين كانت أول بلد « تغلغل » في التطبيق الاشتراكي رغم انطلاقه من مستوى صناعي ضعيف جداً، كما ان الثورة الصينية في الريف لاقت نجاحاً مرموقاً ضمن إطار البلاد الاشتراكية.

قسم الاستاذ بتلهيم — وشريكاه في التأليف — الكتاب الى خمسة اقسام. **تناول في القسم الأول بحث الاسس المشتركة لبناء الاشتراكية في الصين وبقية البلدان الاشتراكية، ثم حدد ما تمتاز به التجربة الاشتراكية في الصين من خصائص تمت بصلة وثيقة الى طبيعة الثورة الصينية، ونوعية الاستعمار الذي هيمن عليها، ثم تحدث عن التركيب الخاص للشعب الصيني والاقتصاد الصيني، وكيف أن التجربة الاشتراكية في الصين انتهت الى طرح** الفكرة المعروفة عموماً عن التجارب الاشتراكية من اعطاء الأولوية المطلقة للتصنيع، كما هو الامر في الاتحاد السوفييتي (١). فالقاعدة السائدة في التخطيط الصيني الآن هي « اعتبار الزراعة كأساس والصناعة كعامل موجه ». وهذا يعني أن سياسة التخطيط الاقتصادي في الصين ترفض فكرة « أولوية الصناعة الثقيلة » في ميدان التنمية الاقتصادية. حقاً أن الخطة الخمسية الأولى (١٩٥٣ — ١٩٥٧) التي أخذت بمبدأ الأولوية للصناعة الثقيلة قد أعطت بعض النجاح، ولكن ذلك لم يكن كافياً لأن المخططين في الصين وجدوا أن الأمر الأكثر أهمية بالنسبة للأوضاع الخاصة ببلد كالصين هو في تحديد العلاقات بين الصناعة الثقيلة والصناعة الخفيفة والزراعة، ضمن إطار الأوضاع الاقتصادية الحالية في الصين الشعبية. لذلك وصل هؤلاء المخططون الى الرأي القائل بضرورة

(١) — انظر مثلاً بحث تطور الاقتصاد السوفييتي في كتاب :
Maurice Dobb : Economic Growth and underdevloped Countries'.
او الترجمة العربية لهذا الكتاب التي ستصدر بقلم كاتب هذه الصفحات عن دار الطليعة في بيروت.

الاعتماد على القاعدة المذكورة . ولاشك أن هذه الفكرة تعتبر غريبة ومفاجئة للذين يحملون فكرة عامة قوامها أن التخطيط الاقتصادي في الصين يتبع النماذج التي عرفتها البلدان الاشتراكية الأخرى .

وكتب السيد « جاك شاريير » في القسم الثاني من الكتاب الذي نحن بصدده بحثا عن كيفية ادارة الوحدات الانتاجية ، أي المشاريع الصناعية وكيفية ربطها بالتخطيط الاقتصادي العام ، ثم الحياة الاجتماعية داخل هذه المشاريع ، ثم الجماعيات الشعبية Communes Populaires وكيفية تنظيمها في مجالي الصناعة والزراعة .

وكتبت السيدة « هيلين مارشيزيو » الفصل الثالث عن كيفية حساب وتوزيع الأجور داخل الجماعيات الشعبية .

وعاد الاستاذ بتلهيم لدراسة وجه من أكثر وجوه الاقتصاد الاشتراكي تعقيدا ، وهو قضية تشكيل الاسعار وتحديدها . فما هو دور النقد والأسعار في الاقتصاد الاشتراكي ؟ وماهي السياسة التي تتبعها الصين في مجال تحديد أسعار الجملة وأسعار المفرق ؟ ثم ماهو دور « أجهزة الثمن » في التخطيط الاقتصادي ؟

وطبعا لابد من بحث الجزء المتمم لذلك ويتناول القضايا المتعلقة بالربح والعائدية وفي اعتقادنا أن هذا الفصل هو أهم فصول الكتاب لتعلقه بجوهر النظرية الاقتصادية ، ولأنه يعالج مشكلة الاسعار والربح التي هي من أهم القضايا التي يعمد الاقتصاد الاشتراكي اليوم الى اعادة دراستها ، ونكتفينا الاشارة العابرة هنا الى ماجرى من اعادة تنظيم اقتصادي في الاتحاد السوفييتي مؤخرا تحت ضغط ماأصطلح على تسميته بـ« تيار ليبرمان » .

ويختتم الاستاذان بتلهيم وشاربير الفصل الخامس والأخير ببعض الملاحظات العامة والاقتصادية وغير الاقتصادية التي ساهمت ومازالت تساهم في بناء الاشتراكية في الصين .

وينتهي الرأي بالمؤلفين الى أن التجربة الاشتراكية في الصين لاتهم البلدان المتخلفة فقط ، ولكنها تهم في الوقت ذاته المجتمعات الصناعية السائرة في طريق

الاشتراكية ، كما أنها تهم المجتمعات الصناعية الرأسمالية التي تنادي بأنهامتجهة نحو « المجتمع المستهلك » . ان الصين تبغي بطريقتها الخاصة الوصول أيضا الى هذه المرحلة ، ولكن ذلك لايمكن ان يتم عن طريق الوهم والتزييف ، بل عن طريق وبغاية التوصل الى مرحلة ولادة الانسان الجديد الذي تخلص من رواسب العلاقات الرأسمالية الفردية الانانية ، بحسب رأي اصحاب الكتاب .

الكتاب غني ولاشك بنظرته الجديدة لآخر تطورات المجتمع الصيني ، وبوضعه النقاط على الحروف بصدد النواحي السلبية للتجربة الاشتراكية في الصين وهكذا فانه اذا كانت النظرية الاشتراكية هي رائد تحليل التجربة الصينية ، فان الاوضاع الخاصة بالصين لاتجعل منها نظرية تطبق بشكل مطلق ، بل تذهب بها الى حدود تطويرها وتكييفها ، أي إغنائها ، وفقاً للمقتضيات الخاصة ببلد كالصين الشعبية .

لاشك أنه من الجدير نقل الكتاب الى العربية ، لكي يطلع القارىء العربي على مدى الجهد والعرق والتعب والصبر ، الى جانب الأخذ بقواعد العلم والاستفادة من التجربة ، من أجل بناء النظام الاشتراكي والكتاب يفيد الآخذين بالنظام الاشتراكي وغير الآخذين به ، لأنه كتاب علمي بالدرجة الأولى . وكون الذين ألفوه من أنصار النظام الاشتراكي لا يغير من موضوعية التحليل النظري شيئاً .



باريس

من سعد الله ونوس

- العزلة .. واحلام يونيسكو المتكرورة
- سينما البحث .. تجربة جديدة تتحدث عنها باريس

لايكاد يلتقي غريبان في باريس — خاصة اذا لم يكونا أوروبيين — الا ويتبادلان خلال حديثهما هذه العبارة : (الفرنسي .ا كم هو وحيد ومغلق !) . وبالفعل ما ان يقترب المرء من حياة الفرنسي في باريس حتى تفجأه عزلته ، وانغلاقه (١) . انه دائماً متشرنق حول نفسه ، يصون صمته المتراكم ، وخلاء وجهه كمادة غلغلت جذورها في أعماق وجوده الباطني. وحينما ستقترب منه متودداً لن تلقى اجابة على ودادتك ، وستظل المسافة التي يمدها بينه وبين الآخرين متوفرة . ان احساساً بالنفور سيرتسم على وجهه حين تبالغ في اجتياز الحواجز ، وفي النهاية لديه دائماً وسيلة أو أخرى يروع بها حماسك أو يهدئه . هذا الصمت .. هذا الفراغ الذي يتمطى في عينيه .. هذا الانقطاع الذي يحذر الوجود الانساني الى خلايا صغيرة معزولة ومحكومة بأن تتحمل كل قلقها دون عزاء ، يجعل الغريب الوافد الى هذه المدينة — وهي صورة عن مدن كثيرة — يفهم أعمق فأعمق نماذج كامو وسارتر وكافكا .. ويتيقن من أنها نماذج محلية بكل أبعادها .. نماذج من لحم ودم ، لم يخترعها الذهن ليصوغ ويمتحن قضايا مجردة

---

(١) وقد يكون الفرنسي بين الأوروبيين أقل عزلة من سواه . وزيارة قصيرة الى لندن أكدت لي ذلك .

سلفية . ورغم أن هذا الكشف المغوي قد يكون اذ نستدعي بعض المقارنات مع تجربتنا الفكرية الحاضرة ، ومع قضايا الفن المطروحة لدينا ، ذا دلالة خاصة وهامة ، فانني لن أتوقف عنده الآن .. ذلك لأنني أنوي الحديث في رسالتي هذه عن باريس ذاتها ، وعن بعض ملامح نشاطها الثقافي خلال هذا الشتاء .

ولن أزعم هنا كشفاً جديداً في حديثي عن وحدة الانسان الغربي . فقد قيل الكثير عن ذلك ، كما قدمت وتقدم مظاهر الثقافة الواردة من الغرب صوراً عديدة عن هذه الوحدة ، تتفق منشأ ، وتتباين معاينة وتصويراً . لكن — مع هذا — كيف كان يمكن أن يتحاشى المرء هذه الرعدة الباردة التي تسري في فقراته ، وعيناه تتزلق على تلك الآلاف من الوجوه المسدودة التي لاتعطي ولا تأخذ ، متحجبة باستقلالها ونظام حياتها اليومية . كيف يمكن اجتناب وخزة الذهول ، اذ يلمس المرء خلف كل الضوضاء .. وتشابك الحياة وامتلائها أيضاً ، خشونة تلك الصحارى التي تعزل هذه الكائنات ، وتبقي كلا منهم في جلده وحيداً بلا خوف وبلا انزعاج وبلا تذمر . كان ذلك مستحيلاً في البداية على الأقل . لاسيا عندما كانت تلوح كل تنظيمات الحياة وكأنها معدة فقط لتكريس هذه الوحدة المخيفة ، ولتعميق جذورها في أرض الوجود الانساني وفي أوسع أشكال « التجمع » التي تفرضها مدنية مبنية على النظام والمشاريع ، كانت تظهر باستمرار أقسى حالات « التقوقع » والانسلاخ » . وكما تنتثر الأبراج الباريسية وحيدة تحت السماء الرمادية ، تذوق ألوجة الريح والمطر وعاصفات المناخ المتقلب .. هكذا الانسان هنا .. برج يدغه صمته ، وقلاع ثقة باطنية عنيدة .. هي في صميمها أوج الاحساس الشامل بالاستقلال .

ومع هذا ، فان يوجين يونيسكو يرى أن الانسان بحاجة ماسة الوحدة ، وأن أهم مايعذب العالم الحاضر هو انعدام « امكانية العزلة » . قال ذلك في واحد من الأحاديث الصحفية الكثيرة التي مهدت لتقديم مسرحيته الاخيرة « العطش والجوع » على خشبة الكوميدي فرانسيز . وقد مضى يجال رأيه قائلاً : (لنأخذ مثلاً من حياتنا اليومية . عندما نركب الأتوبيس في المحطة الثانية نجد دائماً أن المقعد المجاور للسائق مشغول . لماذا ؟ لأن هذا المقعد مفرد . وبما أن كل انسان يريد أن يكون وحيداً .. فان الجميع يراقبون هذا المقعد بالذات . وفي الواقع عمّ يبحث رجل يعمل ؟ انه يبحث عن زاوية هادئة . الوحدة حاجة . وكل امرىء يريد أن يفر من الآخر . وقد كان دستوفسكي يقول .. اذا عشنا ثلاثة أيام مع انسان نحبه ، ففي نهاية هذه الأيام الثلاثة يصبح من نحبه ، هو بالذات اكره الناس الينا) .

وإذن .. فكل مظاهر ذلك « الانسلاخ » المرعشة ، ليست الا شكلاً خائباً وبسيطاً من اشكال جوع الانسان وحاجته الملحة للعزلة . وأمل الحضارة في « الصحة » ان يحققه الا تطرف أشد في الانعزال ، وفي التوحد . وانطلاقاً من هذه

النظرة بتوسع يونيسكو في اضاءة ما اكتنف أعماله المسرحية من غموض . فهو يرى ان النقاد قد جانبوا الصواب كثيراً حينما استنتجوا أن المحور الفقري « للدراما الانسانية » لديه هو استحالة التواصل . ربما كانت مسرحياته بدءاً من « المغنية الصلعاء » و« الدرس » ، وحتى « العطش والجوع » كلها كشوف في الأفق القاتم الذي يتعذر فيه الاتصال ويصعب . . لكن هذا لا يعني أن الاتصال مستحيل ، وأن الانسانية ليس لديها من الوسائط ما يكفي لكي تتواشج فيما بينها ، وتترابط. لو كان هذا هو الواقع لفقد الكاتب اذن مبرر الخلق ان المشكلة كامنة قبل كل شيء في نضوب هذه النماذج التي يجسدها في مسرحه ، وفي اصرارها على احباط أي اتصال مع الآخر . . لأنها في الأساس عاجزة عن التواصل مع « نفسها » ؟ ولأنها تبحث يائسة عن هذا التواصل .

ومع أن المعطى الظاهري لما يقوله يونيسكو قد يبدو لأول وهلة – وهنا فلنته بادىء الأمر – مفارقاً للملاحظات المباشرة التي يلتقطها المرء بعد أيام من سكناه مدينة غربية . فان استكناهاً أعمق لحدود رأيه ، سيؤدي الى نوع من التطابق في النتيجة النهائية على الأقل . ان « الوحدة » التي ينشدها يونيسكو تتجاوز في مضمونها المعنى القاموسي او الشائع ، وتقترب كثيراً من فكرة صوفية خاصة ذات دلالات واسعة جداً . فهي لاترمي اساساً الى احراق الحبال التي تصل الانسان بالآخر . وانما الى القائه في صميم وجوده الباطني باحثاً عن نفسه ، ومتلمساً كيانه الحقيقي ، بمعزل عن ضواغط الحياة اليومية بما تحمله من نظام ورتابة وعادات . انها اتصال عميق وغني بالذات الداخلية التي تخفيها ، وتقمع فعاليتها طرائق وأساليب المدنية الراهنة. اتصال بمثله فقط يتحقق امتلاؤنا ، ونستعيد قدرتنا على محاورة الآخر . بل نباشر الاجابة الصعبة على حنيننا الكوني المطلق . وهي اجابة لن تكون بالتأكيد كاملة أو وافية ؛ لكنها جديرة بأن تهدىء قليلاً جموح الشوق وتوثبه ؛ تماماً كالخيالات والرؤى التي يعرفها المتصوفون في لحظات تماسهم مع العالم . ولهذا فان الادب ــ من وجهة نظر يونيسكو ــ خيال خلاق ، ومهمته تكمن في اغناء قدرة الناس على التخيل ، وعلى تذوق هذه اللحظات الثرية من التواشج مع أنفسهم والآخرين، وبالتالي مع كلية العالم .

لكن السؤال الذي ينفر من هذا التحليل، كما نفر أمام المئات ـ ولا أقول الآلاف ـ الذين سبقوا يونيسكو الى معاينة الداء الانساني عامة لا الاوروبي فقط على غرار هذا المنهج حالمين بنفس النتائج البراقة التي يصل اليها هو : الى أي مدى يمكن تحقيق ذلك الاتصال مع الذات ؟! أهي رحلة في يوم ربيعي الى البرية ؛ أم أنها المستحيل الذي شاخ على تخومه « أوليس » وكل المغامرين الذين تلوه حتى أبطال أونيل وشخوص كامو ؟!

هنا حان الوقت للحديث عن آخر أعمال يونيسكو « العطش والجوع » التي قدمها الكوميدي فرانسيز في موسمه الحالي ، والتي اثارت التعليقات

والدراسات مايربو على أضعاف حجمها .

العطش والجوع

تتألف هذه المسرحية من ثلاثة كوابيس سوداء ، تفترس بطلها جان متتابعة دون تمهيد أولي ، ودون أية إشارة يمكن بواسطتها الفصل بين الوجود الواقعي والوجود المتخيل . (ذلك تأكيد فني لاستحالة هذا الفصل) .

في الكابوس الاول ، يرى جان — وهو رجل متزوج في حوالي الخامسة والثلاثين — أنه قد انتقل وامرأته الى مسكن قديم . كان فيما مضى من الزمان ، اثناء الطفولة يقطنه . مسكن آيل للسقوط ، يغرق في الارض رويداً رويداً . الجدران عالية سوداء .. تشتبك على سطوحها العفونة ، وتعشش العناكب ، والخزانة مليئة بالعفن ، والكراسي منخورة ، والرطوبة ترعش الأطراف وينكمش لها الجلد . وفيما تعيش امرأته في ارجاء البيت سعيدة بمسكنها الجديد ؛ يحس هو على العكس أن هذا البيت المهدم سيكون قبره . مهموم مغموم ، يراود مخيلته خوف غامض وقلق عنيد . وتحاول امرأته المرحة ، والمرتبطة بوليدتها الجديدة ، أن تبدل له أحاسيسه ، لكن عبثاً . ثم يفد الى المسكن شبح حماة قديمة ، يحس امامها بعقدة ذنب مبهمة ، فيتفاقم انزعاجه وتزيد وحشته . وفي النهاية — مستجيباً لندامحنينه العميق — يهرب من البيت تاركاً زوجه التي ترى خلف دكنة الجدران رياضاً متفتحة الورود ، تصهل الشمس في جنباتها . جنة لم تستطع أن تجعل زوجها يراها ؛ لأنها جنة داخلية تفيض من فرح قلبها وامومتها والهدوء الذي يخيم على باطنها .

وينتهي الكابوس الاول ، بعد أن يعطينا بعض سمات الشخصية الاساسية « جان » . فهو يعاني من « عدم تلاؤم » مع وضعه بكل مايدل عليه « الزوجة والمسكن والماضي » .. وهو يبحث .. عم ؟! طبعاً عن فردوسه الخاص ، وبمعنى أدق عن نفسه .. عن تلك اللحظة التي تشع كالماس داخل سيالة الزمن القاحلة . لحظة يرين فيها الاتفاق والرضى ، ويرتوي العطش الطويل والجوع الزمن .

ويمضي البحث مفضياً الى الحلم الثاني . إن جان يلتقي بقمته ، فها هو في مكان قصي بين الجبال ، يغتسل بالشمس والهواء النقي ؛ وقد فرت للحظات أشباح الروماتيزم والعفونة وانهيار الجدران . واصبح بوسعه أن يتنفس بعمق سعيداً . بيد أن ذلك ليس الا الوهم في أكذب ألعابه . فالمكان يحرسه رجلان ممن يعملون في المتاحف (حتى الطبيعة تحولت الى مكان سياحي زائف وغير حقيقي) . رجلان وجدا ليذكراه على الدوام بأنه في غضون زيارة عابرة ستنتهي عما قليل . ويبدأ شعور بالوحدة ينهكه ، لاسيما وان الفتاة التي ينتظرها لم تأت . هي فتاة أحلامه

الموعود بها منذ مولده، والتي لايعرف عنها شيئاً على الاطلاق . فحين يحاول وصفها للحارسين يفشل . إنها هي .. أما اسمها ؛ أما شكلها ، أما صفاتها ، أما ماتلبس .. فهو لايدري شيئاً عنها ! ربما كان قد نسي .. وربما كان منذ الاساس لايعرف عنها سوى هذا الفيض الغامض من الحنين الهلامي الذي لم يتجسد ، ولم يتشكل ... وبعد فترة من العذاب .. من الانتظار والقلق .. من الحوار الميت مع حارسين ناضبين يرخيان ظلهما الحاوي على العالم ، يرحل جان مرة اخرى أكثر قلقاً .. وفي شرايينه لايزال الجوع والعطش ينبحان بشراسة غاية مفزعة . ويبدأ الكابوس الثالث .. إذ تقوده خطاه المتعبة الى مكان غريب . هو مزيج من الدير والقصر القديم والمدرسة والنزل . بناء قاتم يختفر دهاليزه وغرفاته تحت الأرض ، ويعطي حساً مريضاً بالرهبة . ذلك هو عالم الدين بالنسبة ليونيسكو ، وقد تفنن في تصويره حتى جاء الفصل الثالث أغنى فصول المسرحية وأهمها . في هذا المكان ثمة جماعة موحدة الملابس، ترابية الوجوه تعيش حياة منظمة رتيبة . ولهذه الجماعة رئيس يخضع له الجميع وينفذون أوامره . وعندما يصل جان يستقبلونه استقبالا لاتنقصه الحرارة ، ويقدمون له كل العناية اللازمة . واحد يغسل له قدميه .. الآخر يحمل له الطعام ، والثاني يحمل له الشراب . وينقض جان على المائدة رغم البرودة السارية في ظهره ورعدة الخوف التي يحسها في قلبه . ويأكل ويشرب دون فائدة . إن جوعه وعطشه لن يشبعا أبداً ولو التهم كل مافي العالم من طعام أو شراب . وتبدأ الوجوه الترابية تسأله عن رحلته . ماذا رأيت خـــلال تجوالك هناك . أي في العالم ؟! حقاً ماذا رأى ؟ (آه .. لقد رأيت أشياء كثيرة ..) ... (ـــ حسن .. قل لنا ماذا رأيت ؟) .. ويبدأ في استجماع ذاكرته . لقد رأى اناساً وبراري وأشجاراً . ثم ماذا ؟. ـــ واطفالا .. ويحاول ان يتذكر .. آه .. كأن ذلك هو الضباب . وبعد جهد كبير لايضيف سوى بضعة اشياء تافهة تؤكد كم ان حياتنا حلم غارق في الغفلة . ولايشعر بالارتياح فيود ان يتابع رحلته ، لكن الجماعة تقرر أن تقدم له تمثيلية صغيرة وساخرة ، يلعب فيها مهرجان يتناوبان دوريهما المرة بعد المرة . واحد منهما يؤمن بالله ، والآخر ملحد . وهما في قفص ين متجاورين . ويبدأ المشهد بممارسة الوان من العذاب عليهما بغية اذلالهما واجبارهما على تغيير ايمانهما .. تلك هي تمثيلية غسل المخ .. وبالفعل ، مع الجوع والظمأ والتعذيب ، ينتهي المهرجان الى حالة حيوانية مزرية ؛ ويبدل كل منهما ايمانه . بينما تكون الجماعة كلها خلال اللعبة مشطورة الى قسمين ، بعضها مع الايمان .. وبعضها مع الالحاد .. وتتصرف بسوقية تذكرنا بالانقسامات السياسية والرئيس مصر على أن يكون هناك ملحد ومؤمن لكي تستمر التمثيلية ، أو لكي تصبح ممكنة . ويثقل الحزن نفس جان بعد هذا المشهد، ويسرع بالفرار . . لكنهم يستوقفونــه . صحيح أنهم لايطلبون ثمنا لرعايتهم ، لكن على الذين ينالونها ان يخدموا اخوتهم فيما بعد . ويجبرونه على البقاء

وعلى خدمة اخوته في تقديم الحساء . وينادي من صميمه امرأته ... والحب الوحيد الذي عرفه متمنيا العودة الى الرضى ... لكن ذلك قد صار مستحيلا . بعد ان نركب متن عطشنا ونرحل ، لن تكون ثمة عودة .. ولن يكون ثمة ظفر .

ويسدل الستار على صرخاته ، ورنين اللاعق الذي يحثه على الاسراع .. الاسراع الى حد الانهيار والسقوط الشامل ... وهكذا تتمثل مسيرة بحث لاهث عن التواصل والارتواء . فالماضي الذي يرمز اليه الحلم الاول قيد يغلنا ، ويحبط كل محاولاتنا للانعتاق ، وأدراك الصفاء العذب الحر . والطبيعة نفسها افرغت من معناها وتحولت الى سلعة تجارية زائفة . هذا بالاضافة الى ان الشوق أعمق من ان تتقمص غلته حفنة من ضياء الشمس وهواء الجبال النقي . وسياجنا الحنين الى الوجه المبهم القسمات ، وستحبط الخيبة كل المتع الممكنة . والدين ايضا ، وقد انمسخ ، وأخذ شكل العصر السياسي ، متحولا الى تمثيلية مضحكة وجود الملحد فيها ضروري كوجود المؤمن ، لايمكن ايضا ان يكون الحضن الذي نجد فيه الملاذ . تماما كما ان كل « المجمعات » عاجزة عن منحنا هذه الملاذ . ضوضاء ... ضوضاء كثيرة كلها تتوافد كزوابع الغبار حاجبة طريقنا ، مبددة قدرتنا على ملامسة أنفسنا والآخرين . واذن فان البحث عن الذات كما يقترحه يونيسكو يبدو في مسرحية العطش والجوع مأساة مستحيلة نهايتها صرخة سقوط . وماهو بأسهل الامور ان نجد مسارب الاتصال مع دواخلنا والعالم المحيط بنا وقد يقول البعض ان يونيسكو أراد تقديم صورة عن الحواجز التي تجعل البحث عملية فاشلة . حواجز الماضي .. والتنظيم الحاضر للعالم القائم على التجميع وتجاوز الفرد ، وابتذال الدين وتشوهه بالحياة واليومية . الا أن ذلك لايبدل من استنتاجنا . وأنا في الحقيقة لاأفهم كيف يمكن ان يكون البحث عن الذات او عن غناء الخلاص السحري بمعزل عن الماضي وعن التاريخ وعن وجودنا في العالم . هل هي عملية كيمائية نعزل فيها العناصر او نمزجها على هوانا . اننا في صميم الزمان (بمعناه التاريخي) ، والمكان (بمعناه الانساني)ولايمكن ان نباشر فعالية ما من فعالياتنا الا ضمن حدود هذه الاطر الصعبة والمعقدة. ومن العبث الحديث عن تحرر شامل من الحدود ، او عن قفزة عابرة فوقها . ولئن كنا سنجد انفسنا ، فان ذلك سيتم أمام الرياح التي تهب من ماضينا ومن حاضرنا ... من تعقيدات الحياة المحيطة بنا ومن ظروفنا الخاصة. خلال هذا التداخل المدوخ تبدأ دائما المحاولة الصعبة .

والواقع ان يونيسكو لم يضف ـ اذا استثنينا أهمية الفصل الثالث التصويرية ـ شيئا كبيرا في مسرحيته « العطش والجوع » ، فهو يكرر فيها اصداء الباحثين عن مستحيلهم والخائبين في نفس الوقت ، دون أن يعطي أية ابعاد جديدة المغامرة . و « جان » صورة عن كثير من أبطال المسرحيات السابقة . ففيه ملامح من عجوز الكراسي ، وبيرانجيه « الخرتيت » ، وبيرانجيه « قاتل بلا أجر » . وحتى بالنسبة للجوواتكوين

الصورة في المسرحية ، يمكن ان تتذكر على التوالي معظم مسرحياته ، بل في بعض خيالاتها تكاد تكون تكرارا لبعض خيالات « قاتل بلا أجر » . على ان معظم النقاد هنا لم يستشعروا مثل هذه التحفظات حين بادروا « جماعيا » للكتابة عن الحدث الثقافي الضخم ، وقلة هي التي حاولت تحليل المسرحية .

وقد بلغت فرقة « الكوميدي فرانسيز » كما يمكن ان نتصور منتهى حدود الاتقان في المسرحية ولئن كان تقديمها بمثابة اعتراف نهائي بمدرسة يونيسكو المسرحية ، فقد كان هذا الاعتراف كاملاً ، ابدع في صياغته المخرج جان ماري سيرو ، والديكوريست جاك نويل ، والممثل روبرت هيرش .

سينما البحث ..

في حين ان الرواية الجديدة تعاني الآن توقفا مأزوما ، وتغرق اكثر فأكثر في التكرار والترديد المتواصل لاساليب أثبتت – على الاقل على صعيد النقد . والصدى الجماهيري – فشلا واضحا في تقديم رؤية ممكنة لهذا العالم الملي ، والمتنوع . وفي حين ان المسرح نفسه مازال يحاول ان يستوعب « البناء الجديد » الذي عمل كل من يونيسكو وبيكيت وأداموف وبنغي ، كل من جهة على اقامته واعطائه قيمة البناء الكلاسيكي ، فان السينما مستفيدة اتساع امكانياتها ، وارتباطها الواسع بالجمهور ، تمضي أعمق فأعمق عبر مغامراتها ، ومحاولاتها التجديد في اشكال التعبير عن الانسان داخل عصره . ان الجرأة التي يتصف بها هؤلاء المخرجون الشباب ، ورد الفعل الذي احتقنت به نفوسهم طويلا ازاء تفاهات السينما الامريكية « سينما رجال الاعمال والشركات التجارية الضخمة » ... كلاهما يعطيان الاحساس بأن تجارب الكاميرا لن تتوقف عند حد ، وأن السينما مهيأة الآن لكي تكون التعبير الاكمل والاغنى ، والحقل الذي تمارس فيه الرؤية الفنية اخصب تجاربها واوفرها .

وقد ظلت سينما الاحداث .. سينما التسلية والالوان والمغامرات والبطل التي تقدمها هوليوود تتصدر لمدة طويلة وحتى الآن اهتمام الجمهور ودور العرض . ثم انفجرت الموجة الجديدة . كانت في البداية ردود فعل غامضة ومختلطة ، عبرت عن نفسها بلون من الواقعية المتطرفة دون أن تتخلص نهائياً من العقدة والبناء ، خوفاً من أن تكون سبباً في دمار مالي شامل ، لكن حتى هذه الواقعية لم تستنزف كل الاحلام التي تراود جيلا من الشباب يعلم أكثر من سواه أنه لايرى نفسه على الشاشة ، وانما أطيافاً باهتة تقلده بطريقة زائفة وعقيمة .

(ان واقعية فيتوريودي سيكا عبر مجموعاته السينمائية المتسلسلة ظلت مثلا حيمة البحث عن الطرافة والخيال السلي في اطار من التصوير الخادع للواقع اليومي ، ولذا كانت الانطلاقة الاخرى أوسع . كيف تعبر الكاميرا رمزيا وعن طريق استغلال الرؤية « الظاهرانية » للأشياء عن انسان العصر . وظهرت أعلام أنطونيوني وفلليني وفيسكونتي وواجدا ، وغودار وسوام ،

حيث تلعب اللقطة دوراً هاماً في سياق الفيلم، وحيث أصبح المنظر أكثر من ديكور، ولكنه فيض رمزي يبلغ أحياناً حد الشعر (ليل أنطونيوني).. ورددت تجارب السينمائيين الاشتراكيين في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا خاصة هذه المحاولات، فأغنتها وعمقت معطياتها (تلقى تجارب السينمائيين التشيكوسلوفاكيين اهتماماً كبيراً في الاوساط الفنية في باريس، ويتابع النقاد أعمالهم بحرارة واعجاب متنامين. ومن النادر أن يمر أسبوع دون ان تفرد الصحف والمجلات الفرنسية عدداً من المقالات لتحليل هذه الافلام).

وهكذا بدأت السينما الامريكية بعد أن اهترأت صورة بطلها الوسيم الخارق.. وبدأت الموجات الجديدة تركز أقدامها في مضمار الفن السينمائي. وليست المقدمة السابقة تحليلا لهذه الموجات، بل هي مدخل لتجربة جديدة تتحدث عنها باريس الان بكثير من الاهتمام، ويحاول النقاد تقويمها والبحث عن مستقبلها.

«اني واثق من شيء واحد. هو أن السينما ليست مشهداً جماهيرياً. المسرح هو مشهد جماهيري، اما السينما حينما اخترعها الضوء لاول مرة، لم تكن لديه اية فكرة عن المشهد الجماهيري. وفي يوم صادفت رجلا قال لها: تعالي واعرضي فنك في حينا، وسنجعل المتفرجين يدفعون لقاء ذلك. كان رجل اعمال ذلك الذي صادفها. ان الضوء ليس رجل أعمال. انه فنان أوعالم. وهكذا انحرفت السينما نحو الاحداث والعقدة وما تلك كان غايتها الأساسية. نحن الان في أوروبا الغربية نعيش على فكرة — سينما القصة — هذه الفكرة التي تمثل نظرة الرأسمالية الامريكية في هوليوود للسينما فقط. ان السينما في أيامنا هذه عبارة عن مؤسسة لانتاج القصص الجماهيرية، وما من أحد ينظر اليها على أنها دراسة وبحث. أنا اعرف حقاً ان السينما هي نوع من الصناعة التي يجب ان تسير، والتي لها جانبها الجماهيري الذي ينبغي ادراكه جيداً. ولكن هناك في عملي دائماً جانباً غير جماهيري. جانباً يصغى اليه كما يصغى الى مناقشة أو محاضرة في السوربون. وقد يكون ما نقدمه سيئاً، لكننا نبحث، وخلال ساعة ونصف من البحث يكفي ان تكون هنالك ٤ دقائق جيدة وغنية بمضمونها.»

هكذا يقدم جانلوك غودار المخرج الفرنسي تجربته الجديدة «مذكر.. مؤنث». الفيلم الذي يعرض حالياً في باريس، ويستثير كثيراً من المناقشات والتعليقات. ان السينما تقفز الآن فوق القصة، لتكون دراسة تحليلية لمشاكل غنية ومعاصرة بواسطة الصورة المعبرة. معنى ذلك أن دور السينما لن تكون بعد مواضع للهو يذهب اليها المرء ليتخفف من مشكلاته، ولينسى متاعبه، بل هي مراكز للبحث.. لطرح المشاكل ومناقشتها. لاحضار الواقع وكشف خفاياه. انها مخابر تقدم للجمهور دون اثارة، وبما تملك من دقة، صورة عن حياته الداخلية وعن حقيقة اوضاعه الاجتماعية.

وليس هذا توسيعاً لمفهوم « الافلام الدعائية او الارشادية » ؟ بل هو مغامرة جديدة تحاول ألا تفقد ايضاً عبر جفاف الارض التي تعمل فيها مسحة الفن معطية في نفس الوقت امتداداً لوسائل الذهن في الكشف عن الانسان والمجتمع . وحتى الآن كانت « الكلمة » هي جوهر هذه الوسائل سواء في السياق او في صياغـــة النتائج. اما الآن فان . الصورة السينمائية تتخلص من مساحيقها ، من الوانها وأكاذيبها ، لتبذل نفسها وسيلة جديدة للفهم والتعبير ، وهي وسيلة غنية بالمعطيات كما يثبت فيلم « مذكر مؤنث » كما أننا سنتغنى ايضاً وأيضاً لأن جرأة هؤلاء الشباب لن توقفها عثرة . ويقول غودار : (سأظل ابحث عن شيء أكمل للتعبير السينمائي . ان سؤالي الاساسي هو : السينما ماهي ؟ وما مدى قدراتها على العطاء ؟ تماما كما كان سارتر يتساءل حين كتب « الكلمات » لماذا يكتب كلمات ؟ وفي كل فيلم من افلامي يلوح جزء من هذا البحث الحاد) .

مذكر — مؤنث وجدران الصمت الباردة

وفي فيـــلم « مذكر . . مؤنث » يخوض غودار تجربته الاولى. انه يقدم جزءا من دراسته عن الشباب سيتلوها عشرون فيلما آخر تدور حول نفس الموضوع . والسينما كما نعرف تغص بالافلام التي تدور حول الشباب . ولكننـــا لم نر من قبل فيلما يحاول دراسة الشباب بمايملك من اخلاص وتجرد كامل من الضرورات . فيلم لايزيف الحقيقة ، ولايزوقها . وانما يقترب منها متفحصا ومختبرا اخلاص هذه النماذج في تعبيرها عن جيلها .

وهذا مافعله غودار في فيلمه (مذكر . . . مؤنث) . لقد استحضر بكاميرا خليـة من الشباب مؤلفة من ثلاث فتيات وشابين وبـــدأ يتحنها خلال اطارها دون ان يقسرها على الكذب اتفاقا مع قصة مسبقة او سيناريو جامد الحدود والاطار ـ لنتذكر هنا عمل الباحثين الاجتماعين في دراستهم وتجاربهم اذ ان التشابه واضح جدا ـ متابع الشاهد . هذه المجموعة التي يتصدرها شاب وفتاة ، لاتملك خاصيات متطرفة يمكن ان نجعل منها نماذج زائفة وخيالية . كما انهـا اشد اخلاصا من ان تسقط في دوامة احداث سينمائية مدروجة . انها اكثر اتفاقا مع نفسها ، ومع واقعها من التردي في حمأة خديعة من هذا النوع . وهي بحكم عصرها عبارة عن ابناء شرعيين لماركس وللكوكا كولا ـ كناية رمزية عن مضمون الحضارة الامريكية المعاصرة ـ فالشاب ماركسي والفتاة تحب الكوكا كولا ، وتتغـــنى الأغاني الأمريكية « الضوضائية » والمتبذلة . وتنشأ حكاية حب بينهما يعيشانها دون مبالغة ، كما يعيش الشباب الفرنسي قصص حبـــه . ثم يفشلان في الزواج لأن ثمة طريقاً مسدودة بين السيد ماركس والآنسة كوكا كولا . لكن خلال ساعة ونصف لاتكف الكاميرا عن المناقشـة .. عن الدراسة والتحليل . هؤلاء الشباب ليس ضائعين تماماً. قد يكون الفشل كلمتهم الأخيرة . لكنهم من قماش

عصرهم ، يرتشفون الضوضاء التي يعيشون وسطها، وينتمون اليها ، ويحاولون باستمرار ألا يقطعوا الخيط الذي يصلهم بمناخهم الاجتماعي . ان العنف والقتل وجرائم الجنس وصخب الساسة يتدافع امواجاً فوق رؤوسهم، لكنهم يكافحون للمحافظة على براءتهم ، ولقضاء حياتهم دون نفاق غير خائفين في الوقت نفسه من أن يحكم عليهم . ولهذا فهم من طبيعة مختلفة عن ذلك الوجه المتورم بالقلق والاضطراب ، والذي يمثل صورة جيل سارتر ومالرو وكامو وكوكتو حيث يبرز احساس قوي بالحضور أمام التاريخ ، وبالرعب من أن يحكم عليهم بالسلب . ان خلية غودار ليست مرائية ولا جبانة ، وهي مقطوعة الصلة مع صورة البطل اطلس الذي يحمل « التاريخ على كتفه » . انهم يناضلون لكي يكونوا أنفسهم بلا ضجيج ، وبلا مطولات من الحوار الداخلي الصعب والمتخيل . ومن هذا الاخلاص يمكن ان يفهم الشباب قليلا ؛ وأن تتضح مسارات حياتهم دون أحكام صعبة لايعرفون ماتعني . ولو قيل لبطل فيلمنا : أنت لامبـال وقاس . لأجاب على الفور ما معنى هذا .؟ حقاً مامعنى هذا ؟ انه هو دون كذب ، كما أن عصره هو .. هو دون كذب . كما ان في واجهة المكتبة ثمة كتاب رأس المال وفي واجهة المقهى المجاور ثمة زجاجات الكوكا كولا .

وقد يبدو هذا غامضاً بالنسبة لمتفرج تعود أنه يرمي على الشاشة عيناً لاهية متابعا باستمتاع وعبر احساس لذيذ بالراحة قصة مثيرة تحدث في مكان آخر ، غالباً لايذكر بالحقيقة ولا بالعالم . ان المشاهد الثانية التي قسم اليها الفيلم ، والتي تتضمن مناقشات واخزة ، يقول المخرج ان اجزاء كثيرة منها حقيقية وتلقائية لم يتضمنها السيناريو في الأصل ، هي شبيهة بريبورتاج عميق وغني بالفقرات الذكية موضوعها الاساسي شباب اليوم . وهذا الريبورتاج كما هي كل الريبورتاجات الامينة لاتعطي احكاما ، ولاتقدم احداثا ؛ انما تصف وتستقرىء . وفي النهاية تكتفي بأن تقول : (أنهم كذلك).وليس هذا كافيا لكنه في البداية خطوة جيدة ، وتطوير شجاع لمهمة السينما التي ظلت حتى الآن خاضعة لاعتبار القصة المثيرة وقبل كل شيء آخر .

ولا نعرف الى أي حد ، يمثل اقبال المتفرجين على الفيلم قبولاً لهذا النوع من الاخراج ، لكن ينبغي ألا ننسى أن الجمهور ، اذا كان لايقبل هذا النوع الصعب من التحليل في لحظات راحته ؛ فلأنه نفط ربي على نوع معين من السينما . وان تربية أخرى قد تمحو هذا التشكل الزائف الامريكي كما يسميه غودار .

وفاة العالم الاشتراكي العالمي

اوسكار لانجه

★ نبذة من حياته وأفكاره

للاقتصاديين البولونيين ولودزيمير بروس وتادوز كواليك

Tadeusz Kowalik Wlodzimierz Brus

ترجم عن الفرنسية



OSKAR LANGE

توفي اوسكار لانجه وهو في أوج إبداعه العلمي ولما يكن قد أنجز نصف كتابه الرئيسي عن مذهبه للاقتصاد السياسي ، كان يجب ان يتألف من ثلاثة مجلدات (١) .

ليس سهلاً ان نعثر على شخص مثله عرف كيف يمزج هذا القدر من المعرفة العميقة بالتاريخ والاحداث المعاصرة بالفن، مستخدماً وسائل تحليل مختلفة كهذه. لقد كان يعرف العالم الاشتراكي والعالم الرأسمالي كما كان يعرف « جغرافية الجوع » في العالم الثالث . واستعان وهو العالم الاقتصادي في عمله هنا بالرياضيات والاحصاء والسيبرنيتيك ونظرية اتخاذ

---

(١) ينشر قريباً الجزء الاول من المجلد الثاني من كتاب (الاقتصاد السياسي **Economie politique**) الذي يتضمن الفصول الاربعة التي كتبها اوسكار لانجه قبل وفاته .

القرارات. وقد ساعده كذلك علمه الواسع بالفلسفة والتاريخ على تطوير فن التعميم في عصرنا الحاضر.

انه عالم في الاشتراكيـــة. وقد عرف بهذا اللقب (في جيلنا الحاضر) كل من: كارل كوتسكي، رودولف هيلفردنغ، جورج بليخانوف وفلاديمير لينين، وآخرون ايضا منهم جورج ليغاكس، ومن بولونيا كازيميرز كل كروس، روزا اليكسامبورج وليدويغ كرزويكي؛ انما كان لكل واحد من هؤلاء طريقته الخاصة التي أثر بها على التاريخ المعاصر، كما تميز كل منهم بطريقة إظهاره لعلاقته الاجتماعية وتفــانيه في سبيل الاشتراكية وشرحه لنظرية ماركس. غير أن اسماءهم جميعا وشهرتهم كعلماء اشتراكيين تثير في نفوسنا ما يلي:

— اندماج مختلف اشكال نشاطهم الاجتماعي السياسي بنشاطهم العلمي الواسع.

— عالميتهم اللا أكاديميـــة لا تُحصر ضمن حدود نظام واحد بل هي فوق كل شيء.

— انتقادهم المواضيع التي يجب معالجتها، بالنظر اليها فقط من زاوية حاجات الحركة الاشتراكية في أوسع معانيها (لا الحاجات الآنيـــة او التي تتطلبها خطة معينة وانما الحاجات البعيدة المدى).

هـــذه الصفات مجتمعة تنطبق تماما على شخصية اوسكار لانجه العالم الاشتراكي. وكان اقرب علماء الأجيال السابقة اليه لودين كرزويكي الذي لعب دوراً مماثلاً في تاريخ العلم البولوني! واستهوته مؤلفاته قبل أن ينهي دروسه، فكان لانجه مثيلا له.

نحن لا نقصد في هذه المقالة ترجمة حياته انما نرغب في لفت نظر القارىء الى بعض مميزاته. ففي الرابعة عشرة من عمره بدأ نشاطه الأجتماعي، وفي السنة الاخيرة من الحرب العالمية الاولى ألقى محاضرة عن الماركسية في نادي الشبيبة في مدينة توماذو مازووكي مسقط رأسه، بمناسبة العيد المئوي لميلاد كارل ماركس؛ ثم ساهم في طرد النازية، وبعد ان اتصل باللجنة المحليـــة لمنـــدوبي العمال أسس فرعاً لاتحاد الشبيبة الاشتراكية الذي كان قد انتسب إليه بسرعة الى جانب الشبيبة المدرسية والشبيبة العمالية. وقد قرأ وهو طالب ثانوي مؤلفات مؤســسي الاشتراكية العلمية مثل كريزويكي وكوتسكي، ومؤلفات كبار الطبيعيين وعلى رأسهم داروين وهيكل. وعندما باشر دراسته العليا كانت تشغل اهتمامه مسألتان هامتان جدا: انحدار الجنس البشري من العالم الحيواني، والبرهان العلمي على المسلمات الاجتماعية، الا انـــه لم يكن يولي الأدب الأجتماعي اهتمامه لأنه كان يخيـــل اليه انه غير دقيق، ولهذا فقد اخذ يهتم كثيرا منذئذ باستخدام الرياضيـــات في الاقتصاد وفي العلوم الاخرى الاشتراكية.

ان تفاني لانجه في سبيل الاشتراكية منذ حداثة سنه تسمح لنا بالافتراض ان تحمسه لطغيان الاجتماعي قد لعب دورا كبيرا في تقدمه. فضلا عن ان المطالعة الواسعة التي صرف نحوها ذهنه قد برهنت كذلك على ان هذا الاختيار الذي نهجه يعود ايضا الى الدور الهام الذي لعبته الدوافع

العقلانية . غير ان الاهم من هـــذا وذاك ، ان الاشتراكية كانت تبدو له افضل مفسر للماضي واعظم موح ، بالنسبة للمستقبل ، باتصال ولو ضيق بالعلم .

هناك ردة فرضت نفسها ؛ فمنذ عهد ليس ببعيد كان الموقف الذي وقفه لانجه من الاقتصاد المعروف بالاقتصاد الكلاسيكي الجديد سببا في ظهور عدد من المشاكل الموصوفة بسوء التفاهم فقد اعتبره بعضهم ممثلا لهذا الاتجاه . ولكنه فعلا ، كان واضحا جدا بالنسبة للانجه ان اقتران النظرية الاجتماعية والحركة الاجتماعيـــة باسم ماركس قد أعطى افضل تفسير لآليـــة التطور الاجتماعي والاقتصادي؛ بينما اكتشف ان الاقتصاد الكلاسيكي الجديد الذي بوجب استعمال لغـــة الرياضيات استعمالا واسعا ، قد بدا مالكا مفتاح الآلية التي توفر الامكانية اللازمة لضبط وتعميق واتقان النظرية الماركسية . واكد دائما أن التقدم العلمي لايتم بتنقيه النظريات القديمة واختراع نظريات جديدة وانمـــا يتم بفضل العمل الدؤوب الذي يستهدف اغنـــاء واتقان مكتسبنا العلمي ؛ وبما ان هذا القانون لايحدد بالماركسية فان لانجه لم يتردد في اللجوء الى الوسائل التحليلية لاتجاه كان غريبا بالنسبة اليه على المستوى النظري .. ومن الواضح ، أنه يمكن القول اليـــوم ، انه يكتفي بالرجوع في هذا الشأن الى ماركس نفسه الذي لجأ بذاته مرات عديدة الى الرياضيـات . ولكن يجب ألا ننسى ان هذا المثال عن ماركس سيبقى زمنا طويلا دون ان يلاقي من يكمله .

هل آتى هذا الارتباط المجدد مع الاقتصاد الكلاسيكي الجديد أكله ؟!.. السؤال وجيه : لقد لعب لانجـــه دور الممهد بادخال اساليب الرياضيات في الاقتصـاد الماركسي عندما كان يلجأ الى ذلك أثناء دراسته مســائل الاقتصاد الاشتراكي . حقاً أنه لم يكن الاول حقاً فقد سبقه غيره من سنوات كثيرة .. ولكن لامراء في انه هو الذي دعا الى الرياضيات بطريقة نموذجية ، وأهم من ذلك كله أنه استخدمها لدراسة مسائل النظرية الاقتصادية الاعم . فالماركسية التي حقق لانجه قيمها بواسطة ابحاثه الخاصة ، حدث به لأن ينظر الى الحركة الديناميائية لمختلف اشكال المذهب من وجهة عقلانيـة العلاقات الانسانية قبل كل شيء ــ ولا سيما ــ وعلاقات الاقتصاد... ان قواعد المضاربة الرأسمالية أكثر فعالية من أشكال الادارة التي سبقتها ، ولكنه يمكن بل يجب أن تبدل بعلاقات الانتاج الاكثر استجابة : علاقات الانتاج الاشتراكية .

ان هذه النظرة لعبت دوراً عظيماً وهاماً جداً في نشاط لانجه العلمي . فما لاريب فيه أن كتابه (حول النظرية الاقتصادية للاشتراكية) الذي نشر لأول مرة منذ ثلاثين سنة وخصص لدعم الاسس الصحيحة للاقتصاد الاشـتراكي ، أعطاه شهرة علمية وبوأه مكانة دائمة في تاريخ الفكر الاقتصادي .. وعمله هذا ، وهو مذهل فعلاً ، مذهل ببساطته وقوة حجته ، موجه ضد ميزس وهايك كما هو موجه ضـد اقتصاديين محافظين آخرين كانوا ينكرون امكانية الادارة

العقلانية في الجهاز الاشتراكي . الا ان الطريقة التي عامل بها لانجه خصومه ، على عكس العلماء الاشتراكيين الآخرين ، تستحق التقييم أو أن تؤخذ بعين الاعتبار؛ فان اقتراحه المملوء دعابة باقامة نصب لميزس في دائرة التخطيط المركزية يحمل في ذاته دون شك شيئاً من الجدية : وهو الاعتراف بالجميل لجدارة هؤلاء الذين أثاروا القضية ، وعلى الاخص ، ساهموا في حلها .

بعد عشرين سنة ، وفي المجلد الاول للاقتصاد السياسي ، احتلت قضية عقلانية الاقتصاد المقام الأول ، اذ وضعت بشكل اعمق او اكثر عمقا متضمنة وضعية الاقتصاد السياسي الماركسي من حيث مبدأ الادارة العقلانية . لقد برهن لانجه باسلوب مقنع ان رفض مبدأ الادارة العقلانية في الاقتصاد الماركسي غيرصحيح، بل انمعناه العميق قبول ارض متقلة بالاعـــداء، كما برهن ايضا ان هذا المبدأ يكتسب مضموناً اعمق واكثر واقعية ضمن اطار ماركسي لاقتصاد يتضمن علما بقدر مايتضمن انظمةاشتراكية للانتاج وتوزيع الخيرات ، ان الدور الذي لعبه كتابا لانجـــه (النظرية الاشتراكية الاقتصادية) والمجلد الاول من (الاقتصاد السياسي) ، يسمح بالقول دون مبالغة ان قضية عقلانية الاقتصاد الاشتراكي تشكل ، على الاخص ، الفكرة الرئيسية لاكبر جزء من مؤلفاته .

وعلى الرغم من ان لانجه كان قد اعتـبر الاشتراكية نظاما يمثل درجة عليا من العقلانية بالنسبة الرأسمالية فانه لم يكتف بهذا التأكيد . وهو يرى ان دحض انتقادات ميزس وهايك واخصامه الآخرين ابعد من ان يحل المسألة بل بالاحرى يعمل على تجزئتها ، فالاشتراكية تجمع الشروط الضرورية للحصول على درجة عليا في العقلانية الاقتصادية وعلى علاقات انسانيـــة شيوعية ، ولكن يجب أيضا ان يستفاد من هذه الشروط التي تعمل بحكم واحد اويتطور آلي ينمو نحو الاتجاه المقصود . وفي ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤ اشار لانجه ، رداً على التمنيات التي وجهت اليـــه بمناسبة عيد مولده الستين ــ وقد اعتبر هذا التصريح وقتئذ من أواخر تصريحاته العامة – ، الى ان المجتمع الاشتراكي لم يكن ظاهرة بمجدة دفعة واحدة ، حتى ان الاشتراكية من حيث كونها نظاماً لم تكن حديثة في التدرج التاريخي فقط بل كانت أيضا كذلك ضمن الجيل الواحد ، وبالتـــالي ، فالتكييف الواعي المجتمع الاشتراكي ، لم يكن ممكناً فقط وانما كان حتمياً ايضاً ، والصعوبات الناجمة على هذا الصعيد يجب الا تكون سبباً مفاجئاً الماركسيين على الاقل .

لهذا السبب – ولتكوين الاشتراكية – فقد بذل لانجه أعظم جهوده – منذ نهاية الحرب وعلى الأخص منذ انعطاف سنتي ١٩٥٥-١٩٦٦ – في سبيل قضية خدمها كعالم وكمناضل سياسي واجتماعي .

ليس مفيداً ان نعود بالتفصيل الى انواع واتجاه ونشاط لانجه باكثر مما تحتويه مؤلفاته فقد عرف بما فيه الكفاية ما كان عليه دوره في

النضال لتحويل اقتصادنا (اشتاقة تتعلق بالنموذج الاقتصادي ومجموعة الأبنية التي استخرجت منها) من اجل اتقان طرق التخطيط المركزي المحافظة على النسب المحققة بين التموين والاستهلاك ومجال النمو الاقتصادي فقد كان لانجه متفائلاً جداً وروحاً في سبيل الاشتراكية ومصيرها ، مبدياً هدوءاً واعتدالاً كانا ينحدران من معنى تصوره الواقعي للتاريخ كما وكان لاينصرف الى التحليل الاقتصادي لحلول حسية من حيث كميتها وقانونيتها بل جرب ايضاً وقبل كل شيء تطبيق القوانين العامة المادية التاريخية على امتداد تطور المجتمع الاشتراكي .

وفي العديد من مؤلفاته ، حيث يعتبر تحولات المجتمع الاشتراكي أكثر أو أقل استيعاباً يشير بشكل واضح الى ضرورة نسبية تقييم مختلف الحلول والنظر اليها من زاوية الشروط الموضوعية لشتى المراحل ومختلف درجات التطور . وهكذا فهو يعبر تارة عن رغبته في الفهم والتفسير التكوين العنصري المادي لبعض الظواهر ، وطوراً يقف صراحة ضد تحجر هذه الظواهر ، وضد توحيدها مع جوهر الاشتراكية بينما يعبر عن هذه الفكرة بوضوح كبير وبحدة كبيرة عندما يصف مختلف درجات المركزية في اسلوب التخطيط والادارة وكذلك العلاقة بين الطرق الاقتصادية والأزمات الاقتصادية . ولكنه أثناء بحثه عن الاسباب الموضوعية لاستعمال طرق الادارة فوق الاقتصاد لايتردد في التحدث عن (نوع من اقتصاد الحرب) . ولا يمكن اعتبار هذه الاساليب ناتجة عن شريعة اشتراكية بل هي عبارة عن ظاهرة سابقة لها تشهد مع تراجع النظام المركزي البيروقراطي .

وفي الوقت الذي يبدأ فيه المجتمع الاشتراكي بالتفوق على الانظمة المركزية البيروقراطية للتخطيط والتسيير الاداري يكون مجتمع اشتراكي جديد اخذ في النضج . (...) ان ابدال اساليب التسيير الاداري والمركزي مع تطوير اساليب جديدة تضع الشرائع الاقتصادية موضع التنفيذ وتدل على نهاية فترة انتقالية وبدء اقتصاد اشتراكي ثابت . واعتباراً من هذا الوقت تتركز الادارة على تشغيل الانظمة الاقتصادية باسلوب جديد وبالتالي تنتهي من نفسها وليست هذه هي الظاهرة الوحيدة لقضية الفترة الانتقالية وانما بدون شك هي ظاهرة هامة(١)

هذه الظاهرة تظهر هنا مختصرة في مجرى هذه الابحاث ، غير أن لانجه عرف كيف يوفق بينها وبين مواضيع عدة ، حتى الاساليب الرياضية الدقيقة لتحسين الخطة والسبرنيتيك . جميع هذه الامور تحسب في عداد تلك التي يجب ان يشكل استمرارها موضوعاً يستوجب الانتباه اليه بشكل خاص . فلانجه اقتصادي ، ولانجه هو صاحب نظرية التسيير العقلاني وكذلك ، ان لانجه هو (مصلح الاشتراكية) . . وبتعريف أصح وأدق ، انه قد توصل فعلا الى حقل من المسائل يتجاوز نطاق الاقتصاد ، لانه لايمكن التوصل الى حل المسائل الاقتصادية الخالصة ، دون حل تلك المسائل الاخرى ؛

(١) Ecrits économipues et socioux, Varsovie 1961, p. 139.

وذلك يتعلق بالحوادث الطارئة على المظهر الاجتماعي السياسي لتكييف وتطوير النظام الاشتراكي.

ويعلق اوسكار لانجه اهمية كبيرة على الروابط غير القابلة للانحلال، تلك التي تربط المظهر الاقتصادي بالمظهر الاجتماعي السياسي لتطور الاشتراكية، فقد اظهر – في عدة مناسبات من خلال نظرته الدقيقة لهذه الروابط – خطر ضعف ديناميكية المجتمع الاشتراكي وحتى عدم قابلية الاستفادة من تفوق الطاقة الاشتراكية على الطاقة الرأسمالية لأن تحليله المسائل الاقتصادية لم ينصرف الى المظاهر التقنية لاقامة نظام للاجور والمكافآت والممتلكات بقدر انصرافه الى قيمتها الحقيقية.

وعندما يحلل اشكال الملكية الاجتماعية وتيارات نمو الدولة الاشتراكية، يتعرض غالبا الى شكلين من الفساد يهددان اسس نسب الانتاج الاشتراكي، وبالتالي نهضة القوى الانتاجية، وهما فساد الفوضوية النقابية من جهة وفساد البيروقراطية من جهة اخرى. «الملكية الاشتراكية لوسائل الانتاج تنفي (...) استعمال هذه الوسائل لفائدة مجموع الجمعية مثل المساهمة الديمقراطية الفعالة للمنتجين والعمال الآخرين في ادارة وسائل الانتاج»(١) – «ان غياب العنصر الاول يحول الملكية الاشتراكية الى ملكية خالصة المجموعة وغياب العنصر الثاني يسبب خطراً من نوع جديد بالغاء المنتج بالنسبة للانتاج، وبالتالي خطر تبديل الصفة الاشتراكية لنسب الانتاج(١)».

لم يكن اوسكار لانجه يظن ان المشاكل الاجتماعية الاقتصادية ستحل بمجرد تطور المجتمع الانساني وعلى الأخص بمقدار تبلور الاشتراكية. بل ان تفاؤله بحل قضايا الحاضر والمستقبل أتى من اعتقاده بأن امكانيات العلم ستزداد اطراداً وأن مكاسبه ستعطي تكييفاً واعياً الشروط المادية والاجتماعية والتقنية للتقدم. وهو، عندما كان يبرهن على الأسس المتينة للعوامل العامة العقلانية الاشتراكية بالنسبة للرأسمالية، كان يشير بوضوح الى هذا التطور والى الاستفادة من العلم في هذا المضمار بشكل لم يسبق البحث به. ان تعريف: (الاشتراكية العلمية) لم يكن بالنسبة للانجه، تعريفاً لمجرى الفكر الاشتراكي فحسب بل كان – من وجهة نظر أخرى – تحصيل حاصل، فالاشتراكية في ابعد الحدود لا يمكن أن تكون الا علمية ولا يمكنها أن تطور العلم ولا تتطور هي نفسها الا انطلاقاً من هذه النتائج.

لقد مزج لانجه الدور النامي للعلم بالتصوير الواقعي لكشف الحياة الاقتصادية في الشروط الاشتراكية وبالتصوير الواقعي لزوال الدولة كذلك. «ان انقاص نمو الادارة السياسية للتطورات الاقتصادية يدل دلالة جوهرية على نضوج المجتمع الاشتراكي. وبقدر ما يبتعد المجتمع الاشتراكي عما ورثه عن الرأسمالية وعما ورثه

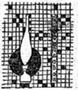
(١) المرجع السابق ص ١٣٥

عن الفترة الانتقالية كذلك حيث تلعب المضايقة فوق الاقتصادية دوراً هاماً ، بقدر ما تبتعد العمليات الاقتصادية عن هيمنة السلطة السياسية. ويؤدي هذا التطور الى زوال الدولة »(٢)

ان لهذه القضية تاريخها . فمن المعلوم انه حتى قبل ثورة تشرين الاول ، كان يعتبر ان ازدياد نمو تبسيط العمليات المتعلقة بتسيير الانتـــاج الاشتراكي سيجعل الجهاز البيروقراطي غيرذي فائدة في الحياة الاقتصادية . اما لانجه فانه لايقر هـــذا الرأي . بل يرى « ان ازدياد فصل الادارة الاقتصادية عن السلطة السياسية وان التقليـــل من وظائف السلطة السياسية في النطاق العام لحياة الاشتراكية ينبع حتما من الصفة الاكثر تعقيدا للاقتصاد الحـــديث الذي لايمكن ان تتأكد تنظيماته العقلانية الا بالعلم .

هذه الفكرة تحتمل الجدل غير انه يمكن تجنبها . وهي يجب ان تحـــل ولكن بواسطة اجهزة نظيفة معقمة من كل اثر للفاشية ، أي بواسطة اجهزة علمية .

كانت غاية اوسكار لانجه طوال حياته كعالم، تهيئة العلم للقيام بهذه المهام .



(١) المرجع السابق ص ١٣٦

مقابلات المعرفة

مع الاديب اللبناني ميخائيل صوايا

الفائز بجائزة وزارة التربية في القصة الطويلة

بيروت ـ من ياسين رفاعية

فاز مؤخراً الاستاذ ميخائيل صوايا بجائزة وزارة التربية للقصة على قصته الطويلة: ماذا جنى.

وما اعرف عن الاديب اللبناني الكبير انه ولد في الشوير عام ١٩١١ وهو يقول في ذلك: هربت من الجوع في ظل الوالد الى جبل الدروز. وكانت طفولتي تجارب، أثرت في انتاجي، اقرأوا « بشر صغير ».

اكتفيت مكرها بالدروس الثانوية، تقذفني الليالي على نور « قنـــديل الكاز » في بيروت والجبل .. الشعر كان تجربة عميقة، والقصة دعوة، والدراسات ثمرة الوظيفة « معلم أدب عربي » المصيبة انني لاأزال بحاجة الى كسب الرزق من التعليم .. ثلاثين كتابا اعطيت، وأكثر ما أخذت « برافو » !.

من المؤلفات التي صدرت له :

في القصة القصيرة: هارب من القدر ـ مجموعة ـ ومنديل زينب، (في قلب العاصفة) .

في الرواية : بشر صغير ـ الخبز الأسود ـ مشردون.. وأخيراً (ماذا جنى) الفائزة بالجائزة

في الدراسة الادبية: « سليمان البستاني والالياذة » و « سليمان البستاني والنقد الحديث » و « ابراهيم اليازجي » و « احمد فارس الشدياق » و « المعلم بطرس البستاني » .

في الشعر : هتاف . و « فوق الدروب » .

وقد زرته في منزله ببيروت باسم مجلة « المعرفة » وطرحت عليـــه بعض الاسئلة، وكان الحوار كما يلي :

س ١ - ما رأيكم بالقصة اللبنانية ..؟

ج ١ - تضطرب في مكانها حائرة ، او تحاول طريقاً صحيحاً ، ثمة امل في ان تبلغ مستوى عالياً .

س ٢ - ولماذا برأيكم ان القصة اللبنانية مقصرة عن زميلاتها في البلاد العربية .

ج ٢ - انا لم اصرح بهذا القول .. لا ادري كيف حصل لكم هذا الرأي .. مع اني لا انكر ما أدى توفيق الحكيم - اللبناني الاصل - من عطاء يحمد عليه في هذا الفن ، واعتبر بعض قصص نجيب محفوظ . . ففي عطاء بعض القصاصين اللبنانيين احياناً مالا يقل في الفائدة والمتعة في التوفيق الفني عن هذين الركنين من اركان القصة العربية . ان قرأنا «الهاوية» لصلاح كامل ، او عدنا الى « الآباء والبنون » لميخائيل نعيمة او غيرهما لوجدنا ان القصة اللبنانية ، وان لم يكن عدد الكتب القصصية كبيراً ، هي من حيث الموضوع والاداء الفني ليست دون مستوى القصة في سائر البلاد العربية المعطاء .

س ٣ - وهل تعتقدون ان القاص اللبناني استطاع ان يعبر عن المجتمع اللبناني .. ومن هم في الطليعة في رأيكم ؟

ج ٣ - بعض القصاصين عندنا يستعير أفكار الغير او يقلد منهجاً ليس لنا . وهم من لم ترسخ قدمهم بعد في هذا الفن مع ان لهم او لهن كتباً اكثر من اصابع اليد الواحدة . وبعضهم يصور بصدق على قدر ما استطاع . ميخائيل نعيمة في «كان ما كان» وفي « الآباء والبنون » ان عدنا ثلاثين او اربعين عاماً الى وراء ، وجدنا هذا الصدق ، ومارون عبود خير من يصور بأقاصيصه الشعرية اللبنانية في بيئة معلومة بكل ما في الحياة من واقع محسوس ، ومن معنى مجرد . وما أرى اغنى ولا اصدق في تصوير هذا الواقع .

وفي طليعة قصاصينا ، من ذكرت... اضيف اليها فؤاد كنعان . وان قل عطاؤه .

س ٤ - روايتكم الفائزة بجائزة وزارة التربية « ماذا جنى » ماهو مناخها ؟ وما اردتم ان تقولوا فيها ؟

ج ٤ - الجواب في مقدمة الرواية . والمناخ لبناني واضح والمراد ان

التجارب تبدع الرجولة . وطبيعة الاعمال تؤدي حتماً الى طبيعة النتائج .. واكثرنا يكتب مصيره بتصرفه .

س٥ - هل تعتقدون بأن الادب اللبناني بشتى كتاباته قد عبر عن لبنان، تمام التعبير ..؟!

ج٥ - كما اشرت في جوابي محصوراً بالقصة . البعض كان مخلصاً لتجربته الادبية من البيئة والشعور، والبعض حاول لم يجد لبنانيته الحقة بعد . واكثر الشعر ذاتي . ومن اخلص في غناء الوجدان عبر عن ذات لبنانية كما هي اليوم وليس الجميع سواء .

س٦ - ماهو الطريق لنقل هذا الادب من المحلي الى العالمي ؟

ج٦ - في الصدق بالعطاء . الادب في بيئة صادقة دعوة الى انتشاره عالمياً، لأن الادب التقليدي لايمكن ان يترجم . نؤمن بذواتنا، ونعطي باخلاص للتجربة، باخلاص للكيفية، نسهم عندئذ في الحركة الادبية العالمية . اما الوسائل، فممثلونا عند الدول الاجنبية مسؤولون ولاشك عن النشاط الادبي . فلحقونا الثقافيون عليهم ان يشعروا بأنهم موظفون لواجب ادبي جمالي ووطني . ومن البؤس ان لايثبتوا وجودهم .

س٧ - ماهي الاسس التي تريدون ان يبني الادب اللبناني جذوره عليها .

ج٧ - الشعور الصادق بالحياة اللبنانية بالبيئة، بالوطن، بالحالة كما هي حقاً، ثم بالدرس والتعمق والاتساع والشمول، ثمة جذور قوية، صارت - بالفعل - اركانا، ولها اعتبار عالمي هذه تبشر بأسس جديدة متينة بنواحي الشعور والفكر والاداء . لان النقد في بعض جامعاتنا يعنى به، ويؤسس على قواعد . ولابد ان نرى شوامخ في الاغراس الطالعة .

س٨ - بمن تأثرتم من الكتاب العرب والاجانب ؟

ج٨ - لعل لـ د كان ماكان لتيمية، بعض تأثير في اتهاجي الواقعيـــــة في الاقصوصة . في الرواية، ما أرى احداً من كتاب العرب أثر في اسلوبي . واقعية ديكنز، وغوركي، وريتشارد رايت، احببتها جميعاً، واعجبت بشاعرية الثاني في بعض وصفه الطبيعة . في تشيخوف،

وفي غي دي موباسان – سهولة تعبير الاخير خصوصا – قد تكون لها أثر . الحوار الطبيعي من خلقي . وعدا ذلك فان القارىء الذواقة اقدر على اكتشاف التأثير من الكاتب نفسه .

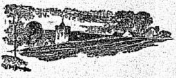
س ٩ – ماذا كان شعوركم حين فزتم بجائزة وزارة التربيــة على روايتكم « ماذا جنى » .

ج ٩ – شعور كل اديب يعطي باخلاص ويقدر عطاؤه كما يستحق .. في هذا التقييم – المعنى فيه اعظم من المادة طبعاً – دعوة الى الانتاج الافضل . لان المفهوم الصحيح للقصة ، والحرص على الاصالة الفنية في حبكها وسردها وعلى الطبع في صوغ عبارتها .. هذا جميعه يبدو انه لفت النظر الى روايتي . ولعل الموضوع الاجتماعي الصرف غير المستعار ، كان له فضل رئيسي في قصتي .

س ١٠ – سؤال أخير استاذصوايا ماذا تعدون للمستقبل من مشروعات فكرية ؟

ج ١٠ – الفكرية الخالصة – الفلسفة مثلاً – ما أراكم تقصدونها . لاني ما أراها الا من مغذيات الادب . اما الادبية وهي أشمل معنى ، فان امامي مخطط رواية اجتماعية ، تحسب احداثها في القرية اللبنانية النامية ، وفي مايحدث فيها من مؤثرات خارجية .

اما الشعر ، فان شيطانه يقرع باب قلبي بأنامله السحرية في أوبقات غيرمنتظرة فان امره كالقدر .



مجموعة قصص ــ الخيبة

ورواية (الطريد)

الخيبة ايضاً

دار اليقظة العربية ــ دمشق ــ ١٩٦٠

لنواف ابو الهيجاء
دراسة ونقد حسام الخطيب

في هذه المجموعة القصصية الأولى يكشف الكاتب عن موهبة غنية تدخل مغامرتها الاولى مع فن التعبير عن الحياة بحماسة وصدق ، وفي غمرة حماستها تحاول الغوص في اللجج المائجة دون ان تبالي بالعواقب ، فتكشف بذلك عن قوتها وعن ضعفها في آن واحد ، قوتها في أنها استطاعت ان تخوض اللجج وان تخرج منها سليمة متماسكة الاجزاء وان تنتقي منها بعض زخمها وبعض خصبها ، وضعفها في أنها لم تستعد للمغامرة استعداداً كافياً بل لم تقدر أبعاد المغامرة على مايبدو ، فكانت قبضتها على مواطن الخصب متفاوتة الاحكام مفتقرة الى دقة الموازين ، وأنت في أغلب الأحيان فضفاضة منفرجة الاصابع بحيث تسمح للذخيرة الخصبة ان تفلت منها دون أن يكون لصاحب القبضة علم بها .

الحياة بين الخيبة والاستمرار

الحياة خيبة مستمرة ، سلسلة من الشقاء والبؤس ، حلقاتها الثابتة: جوع ، قلق ، خوف ، ضياع ، قرف ، حزن ، كآبة ، دموع ... وكل حلقة لها وجهان : وجه اجتماعي ووجه نفسي ، وفي أغلب الاحيان يتعانق الوجهان في انسجام بائس وفي بعض الاحيان يلتمع أحدهما بوميض ما ، في حين يبقى الآخر عابساً مكفهراً.

كيف هبط البؤس على الأرض . من أين ؟ أغلب الظن أن أقاصيص نواف تريد أن تقول :

انه هابط من السماء مجبول بدم الحياة ، انه قدر لا يد لأحد فيه . والناس ضحايا دائمة ، لا لأنهم أبناء نظام اجتماعي معين أو بقعة جغرافية مجدبة ، بل لأنهم أبناء الحياة المجبولة دائماً بالخيبة .

مامصير هؤلاء النـــاس ؟ كيف السبيل الى الخلاص ؟ لا جواب . وان كان هناك في كثير من الاحيان بصيص من أمل يغري البؤســاء بالاستمرار في الحياة ، ومهما كان هذا البصيص ضعيفاً فانهم يعيشون ويتحركون ، ولا يخطر لهم أن يتكفتوا الى العــدم ، وحتى اذا خطر لهم ذلك فسرعان مايحجمون ، ربما لأن العدم مجهول والوجود معروف .

تتآمر على (سهام(١) أسوأ الظروف، الجميع تخلوا عنها والذل غرس في احشـائها بذرة عار تتضخم كل صباح ، وهي تخشى الصباح الذي ينفرها بالانتحار ، بالاعدام النفسي والاجتماعي رغم أنها ستجلب فيه ابنا للحياة . حملت اقراص الانتحار الى السرير واوصدت الابواب ، ... تصلبت شراين يديها فسقط الكأس وصحت على صوت انكساره . تبعثر تحت قدميها ... بهتت : (ويلتي ... اناأقتل نفسي حقيقة ... لماذا ؟ ... الموت ؟) ثم داست علبة الاقراص داستها بقوة ونامت مطمئنة والقمر يطل من نافذتها .

ماالذي جعلها ترتد عن عزيمة الانتحار في اللحظة الاخيرة .

ان القصة نفسها لاتعطي تفسيراً . بل ان ظروفها توحي بكل شيء إلا الامل . اما المجموعة كاملة فلعلها تعطي شيئا من التفسير . فجميع الشخصيات خائبة ولكنها تريد ان تحيا ، ان تستمر ولو منهزمة (٢) لايعنيها ان تثور وتحطم وتتحدى وتغير ، اهدافهـــا ممسوحة ، احيانا هناك نبض وشيء من الرفض ، ولكن القبول او الاحتجاج السلبي هو الغالب (٣) ، واحيانا هناك تحول باتجاه الحياة ، باتجاه الفعالية ولكنه تحرك هادىء يتم بليونة ، طحة (٤) ويخلو من ادوات التحول العميق : العنف والصراع والانفجار .

نزعة هجومية

وهكذا كانت قصص نوافمجموعة من الهمسات الصادقة العفوية التي تكتفي بملامسة الهدف حيثما كان دون تحديد لنقطة معينة فيه . ربما لان الكاتب على عجلة من امره ، يريد أن يقطف كل الافكار والاحاسيس دفعة واحدة ، وربما لانه يرمي الى افكار متحصنة في مواقع ابعد من ان تنالها معدات شاب ناشىء مدفوع بنزعة هجومية مباشرة تريد ان تصل فوراً الى قلب الاشياء ،

(١) قصة (الصدع) .
(٢) قصة (الشيخ الذي ذهب) .
(٣) الابواب الموصدة .
(٤) قصة (حمة الاموات) .

وتنعكس في طريقته الفنية على نحو عجيب :

ـ قد أعثر عليه

وصاح شيء في داخله :

ـ وقد لاتعثر عليه .

تساءل بلهفة :

ـ اذن لماذا اجهد نفسي بالسير ساعتين ، ناهيك عن ساعات العودة .

هكذا تبدأ القصة الاولى (الفخ) ، وعلى منوالها تبدأ اكثر القصص . ان النزعة الهجومية عامل مساعد في فن الاقصوصة لأنها تضع الكاتب في قلب الزخم المطلوب . ونواف لايكاد يعرف المقدمات .

وأحسب ان هذه النزعة أو قـل الغريزة الهجومية (المجردة من العنف !!) ساعدته ايضا في ان يحط على الموضوعات الجديدة الطريقة الحية. **ولست ابالغ اذا قلت ان اكثر مااعجبني في المجموعة هو انتقاء الموضوعات ؛ ذلك الانتقاء الذي تم بعفوية يافعة غير مخططة ،** تدور دائما بعينيها البريئتين في الاوساط الشعبية المظلومة الصابرة فتنتقي الانساني والمؤثر والحي . مع محاولة مستمرة لمقارنة هذه المعاناة بالجانب الآخر من الصورة بحياة المنعمين والمترفين، ولكنها — كما اسلفنا — مقارنة مطبوعة بطابع الملامسة السريعة لا التحليل المدقق : في مثل العبارة التالية يتلخص الفرق بين الفقراء والاغنياء . ان الاغنياء : « يفطرون في الساعة ١١ : متى يتغدون ؟متى يتعشون ؟ »

في التقنية الفنية

خلاصة العملية الفنية في معظم قصص نواف هي : موقف نفسي واضح الجوانب يحاط بجو حياتي مجانس : اجتماعي او طبيعي ، مع محاولة مستمرة لاغناء الموقف بالصور المتناقضة.

وأحياناً يكون التناقض عنصرا اساسيا في القصة كما في قصة (ثلاثة فقط) التي يمكن ان تعد بحق ممثلة لفكر نواف وفنه . انها قصة فتاة تائهة في العيد تبعثر ٣٥٠ قرشا على الاطفال وتحسد الاغنياء وتخاف من والدها وتبحث عن وسيلة للهرب من المدينة . ان المفارقة بين بهجة العيد وكآبة الشروط الحياتية لطفلة فقيرة مظلومة تترك في النفس الانطباع المطلوب ،وعلى الرغم من ان شخصية البطلة المعنوية كانت أقوى من الشخصية الحية وعلى الرغم من ان جو العيد الصاخب كان يطغى على ملامح الفتاة الباهتة فان القارىء يشعر بوجود نوع من التوازن في القصة لعله ناتج عن غنى الموقف النفسي للطفلة .

وفي بعض من القصص ينجح الكاتب في خلق موقف قصصي يكاد يكون مثاليا بالنسبة لفن الاقصوصة ولاسيما حين ينصب التركيز الفكري والفني في وحدة متلاحمة حول الشخصية الرئيسية، وتعتبر قصة (الظل المتحرك ص ٧٩) خير مثال لهذه الظاهرة ،بل لعلها انجح قصة في المجموعة ؛ وموضوعها : الآلة والانسان . تقول القصة ان الآلة تستوعب الانسان وتستعبده مع انه هو

صانعها ومبدعها . على انها تمنح بالمقابل لذةجاعية بدلا من اللذة الفردية القديمة يصعب على العامل البدوي (بطل القصة) ان يدركها بسبب المرحلة النفسية الحضاريةالتي يعيشها . الا ان استسلامه امام الآلة كامل واحتجاجه يدور في نطاق سلبية كاملة .

واذا كان هناك مايشوب نجاح هذه القصة الممتعة المركزة فهو ذلك الميل الى التقريرية الذي لم يستطع الكاتب ان يتخلص منه فيمعظم القصص .

وفي قصة (المصباح) جو كئيب مكفهر قوامه : عاصفة ، مطر . برد . خوف . هلع . قتل ، تقزز . قرف .

وبالرغم من ان مثـــل هذا الجو قد يجنح بالكاتب الى التعقيد أو التضخيم فان نواف تناول الموضوع ببساطة واضحة وبعد به عن الافتنان المتكلف في العرض ووضع القصة في جوها الطبيعي الساذج : على كسر المصباح الذي يضيء شارع القرية . صعقة تيار الكهرباء ، تعذبت القرية . وخافت . وغرقت في الظلام .

وكما ان جو القرية في الجبل والمطر مرسوم بخطوط بسيطة وأحيانا غير مظللة كذلك كان المحرك الفكري الاخلاقي للقصة ساذجا سذاجة جو القرية نفسها . ان العنصر الأخلاقي القائم على مفهوم الخير والشر بشكله البسيط جزء لايتجزأ من القصة وهو يختلط مع حوادثها وأساتها دون ان يبدو متكلفا أومقحما . (١)

ثغرات

ومن وجهة نظر تذوقية خالصة أحببت معظم قصص المجموعة ، وقرأتها مستمتعا باستثناء ثلاث أو أربع منها (سملة) التي لم أجد فيها سوى هذيان لاأول له ولا آخر . انها مجموعة ملتوية من الخواطر المتداخلة المتشابكة حاولت جاهداً ان أتبين اية صلة لها بالفن فلم استطع (٢) واذا كان الفن خمراً مركزا فهذه القصة عصير فواكه مضطرب النسب .

ولعل أبرز نقد يمكن ان يوجه لفن نواف انه لايستثمر الموقف القصصي استثمارا كافيا .انه يضغط على العنقود بلطف اويكتفي بمقدارمتفاوت العصارة ، ولكنه لايعصره ولا يخمره ، وفي جميع الأقاصيص امكانيات مهدورة لمزيد من التحليل والوصف ، ان ضعف الوصف وفقر الوانه وسطحيتـــه هي في — أبي — من الثغرات الكبار في (الحية ... ايضا) ،وهذه الظاهرة تتصل اتصالا وثيقا بضعف الأداةاللغوية عند الكاتب . ان اللغة ليست ضيقة التركيب فحسب ، وليست خالية من المفردات الوصفية النوعية فحسب ، ولكنها فوق ذلك كله مهملة

(١) في حديث حول هذه الأقصوصة مع المؤلف افاد انها تدور حول حتمية التطور وموقف الناس في القرية منها .

(٢) يقول نواف انه جرب فيها . وانا ادعو الله ان لاتصبح مثـــل هذه تقنية جديدة والتقنية (مودة) العصر .

وقاصرة ومشوبة — في كل صفحة تقريباً — بأغلاط لغوية منفرة ، وفي قصة (سعلة)وحدها وردت العبارات الثلاث التالية :

لايمكن له الا وان يشرب الخمر

أنا أيقن .

وقس على ذلك معظم القصص .

والى ضعف اللغة ، والى قصور الوصف يرجع عيب اخر واضح في المجموعة هو افتقار الشخصيات الى ملامح فارقة وضآلة التلوين في قسماتها ، بل طغيان الفكرة والرمز على مادتها الحية في اغلب الاحيان . وقلما تحتوي قصة من قصص المجموعة على شخصية يمكن ان يتذكرها الانسان بلحمها ودمهـا اللهم الا (سهـا) و (شبح الكنز) .

وهناك التوجيه الايجابي المباشر الذي يصحبه في كثير من الاحيان ميل الى التقريرية . ولعل هذه الظاهرة ناتجة عن شعور الكاتب بقصور القصص عن حمل القيم والافكار الكبيرة الـتي يرمي اليها .

الطريد

دار الجمهورية - دمشق ١٩٦٦

مع (الحية أيضاً) ... هناك (الطريد) . والمضمون واحد : فقر . بؤس . جوع . تشرد . خيبة . آلام نفسية . شعب مكدود . وبورجوازية سارقة مخاتلة ناعمة الملمس غارقة في الرذيلة . يقول نواف : ولكن هناك زيادة . فلسطين .

نعم . ان البطل سعيد فلسطيني مشرد يحمل شهادة ميكانيك ويبحث عن عمل ويلعن وكالة الاغاثة وهيئـة الامم ويصب نقمته على الملوك والرؤساء العرب . في مستهل القصة نراه يدخل فندقاً في مدينة عربية بلا قلب ، يرافقه جوعـه وقذارته وافلاسه من الصباح حتى الظهر . وعند الظهر يبلغ الحضيض ، نقطة اللاشيء ، افلاس كامل ويأس . وبعد الظهر تحدث المفاجأة ويتوسط له صاحب الفندق من أجل عمل ويقوده بهجت بك صديق صاحب الفندق الى السيدة م . ر . اللعوب الثرية . وهناك ينام ليلة هانئة ويأكل ويرتدي بزة جـديدة وتستخدمه السيدة قواداً لمرة واحدة . وعند المساء يكتشف طبيعة وظيفته الجـديدة ، فيثور ويوبخ المرأة او بهجة بك والسيد أ . ب . ف . ويشتمهم جميعاً ويعود ثانية الى ثيابه الوسخة وتشرده وبؤسه .

سعيد وفلسطين

ويصر نواف على انسعيداً فلسطيني يرمز الى تشرد الشعب الفلسطيني وغفلته حين استسلم الى الملوك والرؤساء المخادعين ، ثم استغاثته على واقعه ورفضه جميع المغريات وإصراره على عدم التخلي

عن مواقع التشرد والبؤس الا لصالحة العـــودة رغم جميع المحاولات التي تبذل لصرفه عن التفكير في ارضه .

وانطلاقا من هـذا الاصرار يجب نوافق أن يعتبر كتابه فتحا جديداً في طريقة (الواقع المرموز) كما تدل العبارة المثبتة على الغلاف الاخير .

وبصرف النظر عما قد يثيره مصطلح (الواقع المرموز) من تساؤلات ، احب ان اقول هنا ماقاله المؤلف من أن البطل لا يصح رمزاً للشعب الفلسطيني لأنه ليس فلسطينياً نوعياً typical بل هو شاب عاطل عن العمل والرواية كلها تدور حول العمل والعقدة هي عقدة سعيد والعمل وتحركه بين النقيضين فالنصف الاول من الرواية يوم بؤس والنصف الثاني يوم نعيم ، وكل مايشغل بال سعيد هو ايجاد عمل ، أما وكالة الاغاثة والاهل وأحلام اليقظة عن فلسطين والمعارك والعودة فكلها جانبية ويمكن حذفها دون أن يؤثر ذلك على المجرى الرئيسي للحادثة .

ومن هنا لاأجد مجالاً لمناقشة مايسمى بالواقع المرموز ، لأن الرمز هنا قسري لاتفرضه حوادث الرواية وانمـــا تمليه توجيهات جانبية للمؤلف . (١)

ومع ذلك لنصدق ان سعيداً فلسطيني فما هي قيمة معاناته . هل يستطيع بطل رواية مثـــل سعيد ان يحمل القيم التي اراد المؤلف ان يلبسه اياها ؟.

في الأدب تعودنا ان لانصدر احكاما قاطعه ولكنني في هذه المرة استطيع ان اقول جواباً على السؤال السابق :

ـــ قطعاً لا .

لماذا ؟

سعيداً شاب ممسوح الملامح ليس له أية علامات فارقة جسدية او نفسية ، انه اي شاب اسمر قوي غر عاطل عن العمل . وبعد قراءة الرواية تذوب هيئته في الأفكار المطروحة ، لايبقى منه ذلك الشخص غير المرئي الذي يرافقك ويحادثك وتتعرف عليه من خلال بعض الناس كما يحدث حين تقرأ أية رواية ناجحة . ثم انه يقرر بسرعة غريبة تجعل المعاناة شكلية وسطحية . وفضلاً عن ان أحاسيسه مسطحة ، وهي دائماً ذات لون واحد : ألم ، أو نقمة ، أو بهجة ، أو ثورة ، فهو ينتقل من حالة الى اخرى بسهولة لامثيل لها في النفس الانسانية . ان انساناً بائساً تتاح له ليلة سعيد الهانئـــة عند السيدة (م.د.) لايقدم على تقرير مصيره النهائي وعودته الى التشرد والعدم بمثل هـذه السرعة وبمثـــل هذا التصميم ، ان افضل عقدة للرواية تكون هنـــا في صراعه النفسي بين الاسترخاء المريح في كنف الترف المغشوش وبين قدرة التصميم على العودة الى الشقاء والمجهول .

ثم ان الرفض بحد ذاته لايعني الايجابية . ورفض سعيد بوجه خاص لايحمل اي بصيص من الامل . ان طريقة متلقة كالحة . هل يريدهـــا

---

(١) كانت هذه النقطة مثار جدل بيني وبين المؤلف .

نواف كذلك . اغلب الظن انها متعمدة : ساعة ما ، مكان ما .. وقت ما ... ابهام كامل في النهاية .

ولكن هل هذا هو الشيء الذي اما ان يكتب عن فلسطين اولا يكتب يانواف(١)؟ ان طريق فلسطين واضح ، انه طريق التحرير والكفاح الشعبي . الم تكتب ذلك انت . واين ما كتبته في مجال السياسة مما اردت لبطلك ان يقع فيه في مجال الرواية ؟ المتاد هو العكس كما تعلم . ان الفن هو المبشر والمتفائل ، والسياسة هي الواقعية وهي الظلام .

ولكي لايفهم من هذا الكلام اني اريدان يعالج قضية فلسطين في موكب من الانتصارات الروائية الكاذبة التعويضية احب ان اذكرك بالنهاية التي رسمتها انيل مالين لرواية « الطريق الى بئر السبع » . ان انطوان المتردد يقتل عند محاولته الاولى لاجتياز الحدود ، اما وليد حين المتسلح بالعزيمة فانه يستطيع التسلل الى بئر السبع لانشاء حركة المقاومة ، وهذا لايعني انه انتصر او استهان بالعقبات ، انما يرمز الى ان الشعب العربي الفلسطيني عرف الطريق او كاد .

وماذا عن الناحية الفنية ؟

واذا تركنا المضمون جانباً فهل نستطيع أن نجد في فنية الرواية ما يشفع ؟

أود هنا ايضاً لو اصدر حكماً قاطعاً كالذي قلته عن المضمون ، ولكنني أفضل أن اقول ، من خلال محاباتي لـ (الحية ايضاً) أن رواية الطريد لا تكشف عن تقدم باتجاه النضج حين تقارن بالمجموعة القصصية . وأكاد اقول انها احدى قصص المجموعة وقد مددت بحلول لاتربطه بالفن صلة قوية وقوامه : التكرار ، والنقط ، واحلام اليقظة ، واحلام التذكر Flashback . وقد تمت المأساة والكشف ، والتصميم – هذه الأمور التي يقضي الانسان كل حياته قائماً بينها – تمت في (٥٠) ساعة وبسرعة عملية عجيبة . انه المدة الملائمة للقصة المتدلة الطول Long - Short story ، وكذلك الشخصيات المحدودة والامكنة ذات الطابع المتناقض غير المركب وكذلك الموضوع المركز . على أني لا أحكم على القصة من خلال هذه النقاط . وهي ليست الا عوامل مساعدة لقلب عملية (التذوق) الى عملية (حكم) .

التداعي وتيار الوعي

كانت احلام البطل وذكرياته وتخيلاته – كما ذكرنا – هي المحلول الذي مُدِّدت به حوادث القصة ، وأحسب أن المؤلف حمّل هذه الأحلام قيماً كثيرة على طريقة الكتاب الاوروبيين المحدثين . وأهم ما يخطر لي من ملاحظات في هذا الصدد :

(١) قبل شهور اهداني نواف مجموعته (والحية ... ايضا) وجاء في الاهداء :
(قد تستغرب ان لاتجد في المجموعة شيئا عن فلسطين .. وتفسير ذلك ان فلسطين ، اما ان تكتب عنها شيئا عظيما اولاتكتب على الاطلاق).

١ — ان (تيار الوعي) في القسم الاول من الرواية يصيب نجاحاً جيداً في كثير من المواضيع ، وهناك تداع مختلط يتم ببساطة كاملة ونجاح غير متكلف مثل التداعي في موضوع الفاقة ، وكذلك التداعي حول حرب فلسطين حيث تطلق الاصابع النار بفوضى دامية مجيدة (ص ٣٦ — ٣٧) والفصل الخامس جيد كذلك.

٢ — كان تيـــار الوعي ضعيف التركيز بالنسبة للمشكلة الحساسة في القصة ، وبدا كما لو أنه مقصود لذاته ولصالح مشكلات نفسية جانبية ، وهناك مقاطع كثيرة وفصول (مثل القسم الثاني، الفصل الثالث) من ذلك النوع الذي يعرفه بغريزتهم قراء القصة المحترفون ويقفزون عنه وهم يعلمون أنه لن يؤثر في تتبعهم لمجرى الاحداث.

٣ — اسرف الكاتب في اعتماده على تيار الوعي والحطور النفسي والاحلام والاختلاطات الذهنية ، دون ان تنصب في مجرى القصة ، ثم خلط التداعي النفسي لسعيد مع شخصيات اخرى (ص ٣١ ، ص ١٠٦) ، ولم أستطع ان أجد مسوغاً نفسياً أو ذهنياً لهذا الخلط رغم أن غرضه واضح في ذهن المؤلف (كما استنتجت من استيضاحي اياه عن هذه النقطة بالذات ، والمهم هو وضوح الصـــلة في ذهن القارىء لا المؤلف) .

٤ — السيجارة ساعدت كثيراً كعامل مهيج للخواطر والاشجان ، وكانت مفتاحاً (رمزياً) لنوبات التداعي النفسي .

واللغة .. أيضاً

وكما في (الحيبة أيضاً) نجد أنفسنا مضطرين الى القول ان اللغة عادية ليس فيها تألق ولا تكوين وتكاد تستوي في الســـرد والوصف والحوار ، وهناك تصرف في مفردات كثيرة وضعف في التركيب أحياناً .

ان بعض الادباء يهاجون اللغة من حيث انها قواعد (واملاء ايضا لانهم يخطئون بالاملاء!) وفي ضوضاء هذه الاحتجاجات على اللغة ينسون تماما القيم الجمالية للغة العربية التي هي — سواء اردنا ام لم نرد — الاداة الفنية لكل انتاج ادبي عربي ، وما لم تكن هذه الاداة سليمة يصعب ان تنقل قيماً جمالية متألقة وبعيدة عن التشويه .

وليس المقصود طبعا تجويد القول على طريقة المنفلوطي .

واخيرا اخشى ان اكون حابيت مجموعة القصص لانني احببتها كثيرا ، وتحاملت على (الطريد) لانني كنت انتظر منها اكثر من ذلك بكثير. ولكنني في الحالتين اعتقـــد ان نواف ابو الهيجا ، انسان موهوب وقادر على تعهـــد موهبته بالعناية والدأب والابتعـــاد عن طريق السجة والشهرة السريعة . وهو طريق مليء بالمغريات البراقة .

تقديم
غازي
الخالدي



تكوين
لنعيم
اسماعيل

معرض نعيم اسماعيل

(صالة الفن الحديث)

عندما ادرس عملا فنياً تمهيداً لابداء رأي شخصي فيه ، فانني لا استطيع ان اعتمد على انطباعي الاول عنه ، لان الانطباع الاول يكون في الغالب مشحوناً بالانفعالات العاطفية التي تثيرها الفكرة او اللون او المعالجة لاول وهلة ، اذ لابد من العودة الى التفكير المنطقي ، والى الاحساس المدرب تدريباً موضوعياً ، والى مقارنة هــذه التجربة الخاصة بالتجربة الفنية عامة ، محاولا بقدر الامكان عزل علاقتي الشخصية بالفنان ، او رأيي المسبق به ، اذ ربما يكون عمله الجديد جيداً ، وتجربته الجديدة تختلف عن اعماله السابقة التي اعرفها له .

اول سؤال يطرحه معرض نعيم اسماعيل هو التالي :

« هل قال نعيم شيئاً جديداً في لوحاته الجديدة » ؟

والسؤال الثاني :

« ماهو المنطلق الاساسي في اعمال نعيم » ؟

يقول جروسر (في كتاب نشر له عام ١٩٥٥)

« على المصور ان يكون حذراً من ان يعجب اعجاباً فوق الحد باي طراز يتخذه مثلا أعلى له ، والا سينتهي به المطاف الى تقليد شكليات هذا الطراز وسينتهي حتماً » .

وليس معنى هذا ان نحث « نعيم » على ترك اشكاله وحلوله مرة واحـدة ، ولكنني اذكره انه لابأس بالعودة الى بعض الدراسات ولكن اياك ان تنسخ نفسك ..

وكما يقول بيكاسو (في حديث نشر له عام ١٩٥٩) :

« انني افزع من ان انسخ نفسي ، ولكن اذا استعرضت ملفاً يتضمن رسوماً قديمة على سبيل المثال ، فان ضميري لا يؤنبني اذا استعرضت شيئاً يفيدني منها » .

لو حاولنا — تطبيقاً عملياً على سبيل المثال لا اكثر — ان نعرض مجموعة من اعمال نعيم المنجزة خلال فترات متباعدة زمنياً ، لوجدنا انه من الصعب جداً معرفة ايها انجزت قبل الاخرى ..

ليس لنا حق على الرسام ان نطالبه بالتغيير ولكننا لا نقبل ان يبقى كما هو طول العمر ! فنحن بحاجة اليه والى تجربته ، خاصة اذا رعاها واغناها وطورها .

ورغم كل ذلك فان لدى نعيم في بعض اعماله الاخيرة محاولتين للخروج من الاطار الذي فرضه لتجربته ،

الاولى : حاول ان يتخلص من وضع الموتيفات الصغيرة المرصوصة الى جانب بعضها البعض المعروفة في تشكيلاته الى مساحات كبيرة ذات الوان مريحة وبسيطة يضع فيها شكلا واحداً يسبح في فضاء لوني كبير كما فعل في لوحـــة حي بن يقظان الواثب .

الثانية : عودة الى التشخيص على اساس عدم التقيد الحرفي بالتشريح ، والاكتفاء بالايحاء النفسي الذي يمنحه الخط الخارجي العام للشكل الانساني كما في لوحته امرأة ورجل .

ماهو المنطلق الاساسي في اعمال نعيم ؟

ان من الواضح ان نعيا يحاول ان يستلهم كل افكاره من منطلقين اساسيين :

الأول : الزخرفة العربية والاسلامية .

ثانياً : البيئة العربية والمحلية خاصة .

اما بالنسبة للزخرفة ، فانه يأخذ منها مايريد، يضعها في أي جزء من اللوحة ، معتمداً مرة على امتداد الخطوط وتشابك المساحات اللونية ، ومرة على انفصال المساحات والوحدات العامة وتركيبها بشكل تأتي كالملصقات المعروفة بـ « الكلاج » . والزخرفة على انواع : مرة هندسية ، ومرة نباتية ، ومرة مزيجة ومختلطة ، ومرة يخلق من وحداته الاساسية تكراراً بشكل زخرفة كأن يكرر شكل العصفور او الابريق او القوس المعماري.

وبالنسبة للبيئة العربية ، فانه يأخذ شكلها السطحي المرئي ويزيد في بريقه وتلوينه ويبتكر علاقات مختلفة من خلال الوان صريحة وناصعة ومائلة الى الاسلوب الفنائي . ولا يفصل كثيراً بين الانسان والارضية الا مانذر على اساس ان اللوحة عنده وحده زخرفية متماسكة وذات نسيج واحد . ولعل وصوله الى هذا النوع من الحل الشكلي للبيئة أعطى اعماله صفة التركيب اكثر من صفة التأليف والتآلف . اي ان الاشكال في لوحاته تبدو وكأنها مرصوصة الى جانب بعضها ومركبة تركيباً يعتمد في كثير من الأحيان على الصدفة او الاستمرار السريع لتكملة التكوين . لذلك نجد بعض العناصر تبدو وكأنها منفصلة عن اللوحة ، او كأنها وضعت لمجرد حاجة شكلية « وليس من اجل فكر نظري دقيق .

معرض ممدوح قشلان :

(المركز الثقافي العربي)

ثلاثة عناصر تتكرر دائماً في اعمال ممدوح ويدور في فلكها بشكل مستمر :

الشكل الهندسي الذي يتتبع كسرات الاقمشة او التسطيح الجزئي للباقي والعناصر الطبيعية الاخرى ، ثم اللون غير المركب ، اللون الذي يؤخذ من « الباليته » بكل طاقته التكنولوجية دون اية محاولة للمزج او التركيب او التغير من قوته او حرارته . وغالباًمايستعمل اللون البرتقالي والابيض والازرق !

ثم المواضيع التي يتمسك بها لدرجة انها صبحت وكأنها من مستلزمات اسلوبه وطابعه الخاص ، ومن خلال هذه العناصر الثلاثة يمكن استنتاج ما يلي :

اولا : كونه يحاول فهم الطبيعة على اساس تبسيط الاشكال والمعطيات المرئية، ومحاولة رسمها على اساس مثلثات ومربعات مرتبطة بزوايا فهذا أمر يبعده كثيراً عن ادراك وظيفة الفن في ترجمة الاشكال في الطبيعة ، فليست مهمة الرسام نقل الشكل كما هو وتجزئته الى مسطحات انما مهمته ان يفسر ويترجم احساسه بهذه المعطيات ويستفيد منها كوسيلة التشكيل وحدات فنيـــة خاصة به في لوحته .

ثانياً : اللون هو العنصر الهام في نقل الأثر الحسي والانفعالي لدى الفنان ، فكلما كان الفنان



اسرة لممدوح قشلان

حساساً ومدركا لدوره التشكيلي كلما كان اللون عنده غنياً ودسماً ولهشخصية خاصة به. اما ان نترك الحس البدائي الاول والتأثر الانفعالي المباشر الذي يأتي من رؤيتنا للطبيعة لاول وهلة يسيطر على حسنا اللوني وعلى عاطفتنا الآنية، كما يحصل عند ممدوح فان ذلك يؤدي بالضرورة الى قتل فكرة التفسير والترجمة اللونية المبنية على اسس فكرية ... ويصاب الفكر في تبلد دائم وعدم المحاولة للبحث.

ثالثاً: المواضيع في حد ذاتها ليست غاية بل وسيلة، اي موضوع مهما كان تافهاً يمكن ان يعبر عن الفنان وعن فلسفته وعن احاسيسه، دون ان نلجأ الى المجاملة والى الافتعال تحت شعار الفن الشعبي أو الحياة الشعبية، او البيئة المحلية! الموضوع يؤخذ فقط لمجرد اثارة فكرة لوحة، وقد يؤخذ منه لون معين او شكل معين او علاقة جمالية معينة .. ولكن يبقى في النتيجة هو السبب وليس الهدف. فالمصور ليس مؤرخاً وليست مهمته التسجيل اطلاقاً.

ورغم كل ذلك فان ممدوح قشلان قد قدم لاول مرة تجربة جديدة في اللون، والشكل ايضاً .. من خلال مجموعة صخور من البتراء، وامل كونه يلجأ الى الصخور قد ساعده كثيراً حتى لايتورط في التقسيم الهندسي المعروف سابقاً.

والتحرر من الشكل او اللون القديم لايعني بالطبع فقدان الشخصية .. ولكنه يعني حتما بداية انطلاق نحو مفاهيم جديدة وفكر جديد.

معرض برهان كركوتلي

(مانهايم — المانيا الغربية)

اقام برهان كركوتلي الفنان العربي السوري معرضاً لأعماله في فن الحفر في مدينة مانهايم في المانيا الغربية ، وقد اثار هذا المعرض ضجة في الصحافة الالمانية :



الهروب من القرية

اولا : لأن المعرض اتسم بطابع واقعي ويحمل روحاً اشتراكية . ويقام في دولة رأسمالية .

ثانياً : صادف اقامة هذا المعرض مع معرض لدولة العصابات (اسرائيل) اقيم في نفس الوقت

ثالثاً : كون الفنان كركوتلي من سورية العربية .

اتبع برهان في تناوله الموضوعات التي طرحها ثلاثة اساليب تقنية مختلفة :

الاولى : الاسلوب البنائي الذي يعتمد على الخط الخشن والتماسك بين الوحدات ، والتركيز على اهميـــة الكتلة (الفورم) . وهو اسلوب تعبيري فيه بساطة وفيه عنف . بساطة في الحلول التشكيلية ، وعنف في التعبـــير عن الانسان ، بشكل واقعي .

الثاني: اسلوب يعتمد على العبث، والتشكيلات التجريدية وهذا الاسلوب اخـــذه من خبراته وتجاربه في المانيا ، وطوره بطريقته الخاصة .

الثالث : الاسلوب الشعبي ، الذي يستوحي وحداته من قصص أبي زيد الهلالي وعنترة وغيرهما.

وعلى هذا النوع من المعالجة نجد طابعنا العربي العرقي بشكله الانساني الممزوج بشيء من الاحساس الشاعري المعروف به الشرق كله .

ولكن ذلك لايمنع من ان بعض اعماله عليها طابع الرسوم التوشيحية المرتبطة بمناسبة معينة .

كتب عن هذا المعرض عدة مقالات اهمها المقال الذي نشر في جريدة تصدر في (مدينـــة هايدلبرج) وتمت فيه المقارنة بين معرض الفنان العربي ومعرض فن الحفر الاسرائيلي ، وقوبل معرض اسرائيل بكثير من الفتور لانه لايمثل حضارة معينة فهو فن ضائع بين قوميات مختلفة — كما قالت الجريدة — .

اما معرض برهان فهو يمثل الشخصية العربية المتفائلة البطولية التي تحكي قصص العرب القديمة باسلوب حديث ، وعلى اعماله — كما قالت الجريدة — طابع شرقي خاص به .

لقد جاء معرض برهان كسب لنا كمواطنين عرب ، وكسب للحركة الفنية العربيـــة في قلب اوروبا .

نظرة الى تطور قدرات العلم

ماكان ينقص ليوتار دوفنشي

للباحث الفرنسي اندريه لابارت
ترجمة جروان السابق

يرينا تسلسل المعارف في التاريخ الفني ان ارتقاء التقدم يرتسم غالباً على مسرح الافكار الباطلة . فكم من مبتكرات صنفت ، وكم من محركات اولية متقنة مضت الى النسيان ، بعد ان اثارت الاهتمام قروناً وسنوات ، وما اندر الآلات ، او الادوات التي قاومت امتحان الزمن : فالمجذاف ، والعجلة ، وشبكة الصيد التي توارثت الينا من ابعاد التاريخ لازالت تعاند الدهر . ثم ترانا نكتشف آلات رشحت للاستبدال ، وادوات منافسة جديدة ، ووسائط آلية تنتقل على مخدة هوائية ، فتستعد لتحدي البحر والطريق والسلك الحديدي دفعة واحدة !...

لكل واحدة من درجات الذكاء المبدع حقبة فنية جاءت تتلقح بتأثير ما ، وبطراز من العمل يضمر في ذاته قدرة الانبات الكاملة بواسطة امكانات التبدل التي ينقص اويزيد استعدادها بدليـــل مايظهر من المستقبل . وكل جدة ، ولو كانت ساطعة ، مقضي عليها من الولادة بأن تنحل ان آجلاً او عاجلاً في تجديد اكثر جرأة منها ،

فالصفوة المختارة التي تحالف تدريجياً في موكب الشهادات غير المحدود ، ومبادىء الشهرة العظيمة التي تتعمم لتتجاوز الاوائل الذين اختصت بهم ، والتنظيمات الفنية المهنية التي تتبسط ، اوتتحول بينما يظن الناس انها ثابتة لاتتغير ، كلها تفضي شيئاً فشيئاً الى تحويل مظهر المجتمع ، وشكله . وحينئذ نشاهد ظهور وسط ملائم للابداع ، وبيئة مناسبة للاكتشاف من دائرة المستحدثات ، والجرأة ، وحق من الغفلة الباطلة .

واذا كان لابد لعمر الحضارة ان يقاس بعدد القاومات السرية التي تراكمها ، فالاحرى باهليتها في التجديد ان ترتبط مباشرة بالتناقض ، والتنافي والمصاعب ، وان الانجازات العلمية ، والفنية غير الصالحة تتكوم على طريق الذين يستخدمون هذه الاشياء . وحينما تتحرك الخطوة الى الامام يكون الخيالي مزوداً ، ومغذى بكل آثار الماضي ، ويكسر الباب الذي ترتسم وراءه بكل خشية خطوط المستقبل الاولى . فنبصر حينئذ في مدى التاريخ ، وفي اشد حقباته لماذا الآلة تجري ، وتكتمل حتى تبلغ الدرجة النهائية من الكمال الذي ينبىء ابداً بنهاية قريبة الحدوث . فصانع الشراع العظيم المنتسب الى الزوارق الشرقية ، ومراكب القراصنة الاسكندينافية ، وقوافل المغامرين الاسبانيين ، كان يغامر مدفوعاً بشراعه الثقيل للوصول الى رأس هورن ، وهو ينقل معه نترات الفضة لاوربا ، والحبوب لامريكا . ونرى ايضاً ان سرعة هذه المراكب تضاعفت في عام ١٩١٤ من ١٥ الى ١٨ عقدة بالساعة

الواحدة . ثم ناب عن الشراع البخار والمازوت واحتلت الآلة البخاريـــة ، وذات المكبس مكانها الظافر في رموس الاختراعات الميتة . وصدئت القاطرات البخارية امام سرائبها بعد ان احيت كل مصير صناعة القرن التاسع عشر ، كما تغطت الخطوط الحديدية باكفان من الاعشاب . واهمل المصنع التاريخي لجيمس واط في ضاحية بيرمنغهام عام ١٩٥٦ .

ونبصر ظهور المحطات اللاسلكية بعد قرن ونصف القرن من فولترون ، والمحرك النفاث بعـــد اربع وسبعين سنة من بودوروث الذي ابتكر دورة الازمنة الاربعة ، والحاسبة الالكترونية بعد ثلاثة قرون من باسكال وآلته الحاسبة ...

تلك نقطة لانحتاج لتمجيد هذا الرقي . وهنا لا بد ان نفترض لحظة من التوقف ، من التأمل .

اذا اصبحت مثل هذه السرعة بالاكتشاف ممكنة ومعقولة فلأن الابداع العقلي وانجازات الايدي البشرية تشترط الاجهزة والمعدات المناسبة . وكلما كان ميدان الفكر الآلي يمتد وينبسط تبرز المادة الجديدة بتعضيده ومساعدته . حتى ليمكننا القول بأن كل عصر من عصور الانسانية قد عرف معدته . واذا لم يكن ليونار دوفنشي الا عبقرياً خط الرسم الاعدادي ، وما يشبه الصورة الاولية التي نحب احياناً ان نلقى اشباحها في آلاتنا العصرية الحديثة ، فذلك لأنه كان يفتقر لعنصرين اساسيين في الخلق والابداع ، الاول هو القوة المحركة المجهزة بآلة حرارية مستقلة خفيفة ، والثاني هو

المعدن الذي يستطيع ان يوطد علم حركة وحركية الأداة المصورة .

ومما لا شك فيه ان في الانسانية عصوراً لم تقترن بالمادن نجدها طوال آلاف السنين ، وفي ازمنة الحجر المحسَّن ، ومن موشيتي في باجيكا حتى مستقعات الدانمرك الموحلة . ولم يبدأ عصر المادن في اوربا الا منذ خمسة آلاف سنة تقريباً، بينما شاهد الانسان النور قبل ثلاثين الف سنة ، وظهرت الاشكال الانسانية قبلنا بنصف مليون سنة ..

لكن اكتشاف المعدن ابدأ بالأداة ، والاداة سبقت الآلة . ومنذ ذلك الحين تحققت الاشياء بسرعة عجيبة . فالنحاس والذهب ، وصناعتهما، وتجارتهما ، وادواتهما ، اجتذبت شواطىء البحر الابيض المتوسط نحو التمرد ، والثورات والحروب، والتسلح ، والغزوات السياسية ، والخلق الفني الرفيع . ثم جاء دور مناجم القصدير فبعدت الرقي التقني . ورأى العالم بعد الاثينيين، ومناجم فضتهم، والرومانيين، ومناجم رصاصهم ، وذخائر المغاسرين الاسبانيين ، اشكال الفحم والحديد اللذين يعود اكتشافهما الى وقت بعيد ، لكنهما لم يستثمرا منذ ذلك الوقت بصبغ الادوات والآلات .

ولعل الفحم الحجري والفولاذ ينتسبان الى القرن التاسع عشر . اما القرن العشرون فهو عصر المعادن الحقيقة. ولولا الالنيوم وسبائكه لما عرفنا الطائرة ذات الاجنحة المفروضه تمضي في تاريخ الجبابرة والصواريخ ، وتصبح المتطلبات الفنية اكثر حتمية ، وتفرض المعـــدات ذات الخواص الرفيعة .

ولكي نستمر في قبض قناة علم الاكتشاف لا بد للبشر من ان يمهدوا لنخبتهم الخلاقة بمعدات ذات خواص يتزايد فيها السمو ، والصفاء . ونحن نتجاوز عصر التنغستين، والايريدوم والنيوبيوم، وسبائكها .

نعرف بالنظر من هـــذه الزاوية ان مرقى التقدم لم يستطع التكامل الا على مسرح المعادن الباطلة ، او التي تجاوزناها ..

حمل الجنين في انبوب

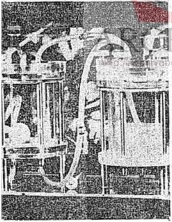
يقع معهد البيولوجيا (علم الاحياء) التجريبية التابع لاكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي في شارع هادىء في احدى الضواحي الهادئة لمدينة موسكو . ويقوم العلماء الروس باجراء تجربة فذة لم يعرف لها العالم مثيلا .

ففي اواخر عام (١٩٦٦) (اذا سارت الامور وفقاً للبرنامج المعد) سوف يتمكن العلماء من تحقيق اول معجزة علمية من نوعها ، اي ولادة اول طفل اصطناعي في العالم ، امضى فترة التسعة الأشهر من الحمل في انبوب اختبار . لقد نجح هؤلاء حتى الان في ابقاء الجنين حياً خارج الرحم مدة ستة اشهر كاملة وتم ذلك عن طريق وضع بويضة امرأة في وعاء زجاجي خاص زود بكل ماهو ضروري لنموه كما لوكان في بطن امه .

ويبدو ان ستاراً من الصمت يسدل الان على التجربة . ولكن هنالك معلومات تسربت وانتشرت عن طريق الدكتور دانيال انجيلو بتروتشي ، العالم الايطالي الذي كان اول من قام بهذه التجربة قبل سنوات .

اقتباس متري حارنة

استطاع بتروتشي هذا ، البالغ من العمر الثالثة والاربعين ، أن يبقي الجنين حياً في احدى الانابيب في مختبره في مدينة بولونيا الايطالية مدة (٢٩) يوماً ، ولكنه قرر ايقاف التجربة ، لانه لم يشأ ان يسخط الكنيسة ويخرج على تعاليمها .



الانبوب الزجاجي الذي يحمل الجنين

وهو الكاثوليكي الصميم ، في اثر النقد الشديد الذي وجه اليه .

وبعد عدد من المؤتمرات والمباحثات التي جرت في الفاتيكان ، قرر استئناف التجربة واستطاع هذه المرة أن يبقى الجنين حياً مدة (٥٩) يوما واستطاع كذلك أن يحدد جنس الجنين . ولكن الجنين توفي نتيجة لخطأ ارتكبه وعاد فاقلع عن التجربة بعد ان انتقدته صحيفة الفاتيكان مر الانتقاد . كان ذلك في صيف (١٩٦١) . وفي تشرين الثاني من عام ١٩٦١ دعا الاتحـــاد السوفييتي الدكتور بتروشي لزيارة موسكو لالقاء المحاضرات حول هذا الموضوع واجراء محادثات مع العلماء الروس . وعاد بتروشي الى بلاده بعد قيامه بالزيارة واجرائه محادثات مع العلماء الروس حول التجربة العلمية الفذة التي قام بها . وعاد وهو متأكد بان علماء آخرين سوف يتمون العمل الذي بدأه . وهكذا اخذ علماء الروس على عاتقهم اتمام العمل الذي بدأه بتروشي بمنأى عن اي تدخل من الاوساط الدينية ، في معهد العلوم البيولوجية ، وتحت اشراف الدكتور ايفان مايسكي مدير المعهد المذكور وعلى يد الدكتور بيوتر انكوشين .

بدأ الدكتور بتروشي تجربته العلمية الفذة قبل سبع سنوات وذلك حين تمكن من الحصول على بويضة امرأة عاقر بسبب مرض سرطاني وهيأ لها الاتحاد مع نطفة من مني رجل كان يعتقد انه عقيم . وبدأ الحمل في الانبوب الزجاجي الخاص الذي ملأه بالسائل الذي يعيش فيه الجنين عادة ، جيء به من امرأة حامل خصيصاً لاجراء هذه التجربة .

اخفق بتروشي اربعين مرة قبل أن يتوصل الى النجاح . فقد كانت البويضات تموت في غضون الأيام الاولى من الحمل داخل انبوب الاختبار . وأخيراً خطرت له فكرة استخدام بويضة جاهزة للتلقيح اخذت من امرأة بعد دورتها الشهرية اثناء اجراء عملية جراحية تناسلية . ولم تمت البويضة كما فعلت سابقاتها واخذ الجنين ينمو ويكبر بعد أن وفر للبويضة نفس البيئة التي للجنين في بطن أمه . فاخذ الجنين يتشكل بالتدريج . غير ان الدكتور قام بقتله في اعقاب النقد اللاذع الذي صبته عليه الكنيسة .

وبعد ان هدأت العاصفة ، استأنف بتروشي التجربة واستطاع ان يوجد طفلا عاش مدة (٥٩) يومـــاً . وكانت اذناه وعيناه وذراعاه وعموده الفقري والاعضاء الاخرى تبدو واضحة تماماً . وتمكن بتروشي من تسجيل نشاط قلب الطفـــل وتصوير دورته الدموية بواسطة اجهزة خاصة . ولكن قلب الطفل توقف عن النبض فجأة وتوفي على اثر ذلك في اليوم التاسع والخمسين من عمره . ويعتقد بتروشي ان وفاة الطفل كانت بسبب الغذاء .

الغاية من التجربة

يقول بتروشي ان الغاية التي كان يهدف اليها من التجربة لم تكن ايجاد حيـــاة بشرية خارج الرحم ولكن غرضه كان ايجاد انسجة وغدد

بشرية يمكن زرعها في جسم انسان قد يحتاج اليها.
ويرمي ايضاً الى غاية اخرى من تجربته الا وهي دراسة اسباب اسقاط بعض النسوة اجنتهن وقت الحمل والتوصل الى الحيلولة دونه .

اخذ الروس على عاتقهم اتمام العمل الذي بتروشي . ويؤكد الطبيب الايطالي بان العلماء الروس سوف ينجحون ، ويعتقد بان ولادة اول طفل بصورة اصطناعية ستتحقق قبل عيد الميلاد القادم . ولكنه مع ذلك يرى ان سكان العالم في ازدياد مستمر وان العالم ليس بحاجة الى اطفال اصطناعيين . ويقول بان مهمة حضانة الاطفال منوطة بالآباء والامهات ، لا بالعلماء .



كتب جديدة

- الفن والقومية .. للدكتور عفيف بهنسي
- قادة فتح الشام ومصر .. للواء محمود شيت خطاب
- مصير .. لخليل رامز سركيس
- سنابل الغد .. للآسيوي الصغير
- سفر الكلمات .. لجورج غانم
- تدريب معلمي الابتدائي .. ترجمة الدكاترة شخاشيرو والقاسم وعبسي
- البيت في حياة العرب .. لعبد القادر عياش
- اتحاد الجمعيات النسائية في دمشق يكرم فقيدة الأدب الرائـــدة الأولى ماري عجمي
- صباح ومساء .. لوجيه بيضون
- عائد من أوروبا .. لوجيه جبر
- الشعراء النوابغ .. لقباني والكردي
- عرس الصحراء .. لجميل علوش
- محاضرات الموسم الثقافي ١٩٦٣ – ١٩٦٤
- مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد القومي
- منتخبات من قصائد بيكو .. ترجمة ديب وسرحان

الفن والقومية

اصدرت وزارة الثقافة في سلسلة (كتب قومية) كتاب (الفن والقومية) للدكتور عفيف بهنسي في ١٩٠ صفحة . ويرى المؤلف في النزعة القومية ضرورة حضارية ، وفي ارتقاء الفن رسالة قومية ، ومن هنا يبدو له تاريخ الفن تاريخ القوميات . ويبين الكتاب ان الاتجاهات الفنية الحديثة كانت ذات رصيد فني ، ويرد على المغالطات الرجعية التي تحرم التصوير ، ويؤكد أصالة التقاليد العربية في الفن ، وأن الفن العربي صورة عن الطبع العربي ، وأن فكرة قيام فن قومي لاتعني فقط الاحتفاظ بالتقاليد المشتركة للفن العربي بل تعني تمثيل هذه التقاليد في بناء فن عربي يتماشى مع تطورات العصر ، وان مهمة الفن الاشتراكي العربي هي دعم الشخصية العربية المتكاملة وتسجيل الوعي القومي والثقافي القائم على المشاركة الذاتية وذلك الأسلوب المعبر عن المعنى الروحاني العميق الذي اختصت به الأمة العربية منذ القدم . ثم يستعرض الكتاب محاولات تعريب الفن في الوطن العربي، ويلاحظ أن الأسس الجمالية العربية ظهرت من جديد في الغرب لافي بلادنا . وأخيراً يدعو المؤلف العرب الى اعادة النظر في مفاهيم علم الجمال وفق الاسس الروحية والنفسية التي قامت عليها شخصيتهم وحضارتهم الماضية . ويدعم المؤلف أقواله بصور آثار ولوحات فنية .

قادة فتح الشام ومصر

أصدرت دار الفتح للطباعة والنشر ببيروت كتاب (قادة فتح الشام ومصر) في ٤٠٠ صفحة ، وهو الكتاب الثالث في سلسلة (قادة الفتح الاسلامي) تأليف اللواء الركن محمود شيت خطاب عضو المجمع العلمي العراقي . وكان قد صدر له قبله (قادة فتح العراق والجزيرة) و (قادة فتح بلاد فارس) ، ومن المنتظر أن يكمل السلسلة بـ (قادة فتح المغرب العربي) و (قادة فتح المشرق الاسلامي) و (قادة فتح الأندلس والبحار) و (قادة فتح أوروبة) . يبدأ كتاب (قادة فتح الشام ومصر) بالحديث عن الروم في أرض الشام ومصر وليبيا ، ثم يتحدث عن القائدين أسامة بن زيد الكلبي وأبي عبيدة بن الجراح ثم عن قادة فتح سورية ولبنان والاردن وفلسطين ومصر ؛ ويختم الكتاب ببيان أثر الاسلام في العرب . وقد ذيل الكتاب بفهارس عن الاعلام والاماكن والقبائل والملل والنحل والاعلام الذين وردت لهم ترجمة مختصرة في الهوامش والقادة الذين ورد ذكرهم في الكتاب وسير القادة في كتب قادة الفتح الاسلامي الصادرة والخرائط المنشورة في الكتاب .

مصير

أصدرت الندوة اللبنانية في بيروت كتاب (مصير) للأديب اللبناني خليل رامز سركيس في مئتي صفحة . يتألف الكتاب من سبعة فصول ،

ويعتبر الحلقة الأخيرة في الثلاثية التي بدأها المؤلف بكتاب (أيام النساء) وتابعها بكتاب (أرضنا الجديدة) ، وربما كانت أول ثلاثية في الأدب العربي من هذا النوع وعلى هذا المستوى ، فالمؤلف يوفق في (أيام النساء) ألا حضور لله فيه ما لم يكن في سيرته حضور مشارك للآخرين ، ويرى في (أرضنا الجديدة) أننا لسنا عمل تاريخ فرغ منه بل عمل دوام .. نحن الزمن الآتي نريده فنكون ، وهو يوضح في (مصير) أن صوفيته ليست رفضاً للعالم المادي فالايمان الذي يخلق حاجته الى فوق لا ينكر وشائجه بالارض ولا تسببه من الدناوة بحدوعلى التخلي لا يدعوه الى أن يعتزل القضايا الحيوية المعاصرة بل يقترح عليه أن يتفرغ منها بالخوض فيها بغية حلها ما استطاع وفي رأيه أن عالم اليوم في أزمة مصير تقتضي ـ فضلاً عن روحانية النعمة ـ الوعي اجتماعاً وثقافة واقتصاداً..

سنابل القد

صدر للأديب اللبناني يوسف جمارة اللقب بالآسيوي الصغير كتاب (سنابل القد) في ٣٩٠ صفحة . يضم الكتاب ٥٣ قطعة حاول فيها المؤلف الخروج من ظلمة التشاؤم الى نور التفاؤل فيبدأ من السوسة التي تأكل تعب الفلاح وسنابله ، ويرى ألا حرية ولا مساواة ولا إخاء ولا سلام في آفاق القد طالما الانسانية قاطبة تفرقت الى شعب ثلاث : الاولى تجهل المحبة والثانية تجهل المعرفة والثالثة تجهل الاثنتين معاً . ويمضي في تأملاته متسائلا عما اذا كان قاتل الحب قتله غدراً أو رمياً بالرصاص أم اشتبكمعه بعراك وراح يخلع شدقيه حياً بيديه ؟ ويرى في الاختصاص عبرة : فالهدة التي تكسر الصخر تعجز عن رفع حفنة من الرمل ، والرفش الذي يرفع تلالاً من الرمال لا يكسر حصاة . وأول من فتح باب الجرأة عنده الأرنب الجائعة والعابثة بالزرع والخائفة من الهروب ، وأول من وضع للجرأة حداً الاسد العطش الذي رأى الماء في غور البئر ولم يلق بنفسه فيها . ثم يعود الى السنابل (السنابل المهملة) والى البذرة التي رفعت عن عينها سقيط القيل حتى اصبحت شجرة آوت اليها قواطع الطير واحتمت في ظلها المتعب أدهراً ، ولما انتهكت الأيدي قدسيتها عند نشوء التاريخ كانت الجوارح الجامدة التي قد هلكت وبليت هياكلها أما هي فبعد نثر نواها وسقوط خشبها الأسمر على حرم الجبابرة عادت تضرب الى عجافاً وترافق البحّار أقلاماً وتبعد آفاق الدنيا وقد أحياها الصراع..

سفر الكلمات

صدر للشاعر اللبناني جورج غانم مجموعة (سفر الكلمات) في ١٢٠ صفحة تضم ٢٥ قصيدة في خمسة اقسام هي : (أطياف في الشمس) و(بحيرات العيون) و (كلمات الرؤيا) و (قصيدة الربيع والدم الآتية) و (اذا عاش فينا الصباح) . وقد نظمت هذه القصائد بين عام ١٩٥٩ وأوائل عام ١٩٦٦ ، عدا قصيدة (الوطن الغالي) التي نظمت عام ١٩٥٥ . قال الشاعر العراقي المرحوم بدر شاكر السياب : «جورج غانم طليعة الشعر

المعاصر في لبنان » ، وقال فيه الشاعر اللبناني سعيد عقل : « لم يتهرب من الكلاسيكية . على العكس انه كان بها برا . لهذا قدر ان يكتشف منها تلك الجوانب النيرة التي لاتنضب » ، وقال المستشرق سيمون جارجي : « ان شعراء مثل جورج غانم ... لايقلون ولا بأي شكل من الاشكال عن مستوى الشعر العالمي المعاصر في العالم ، بل احياناً يتفوقون على غيرهم من شعراء الغرب الحديثين » ، وقال الشاعر اللبناني خليل رامز سركيس : « الشعر الحديث ، وفيا ههنا المنابع ، قد اتصل معناه بالجذور ، لاجموداً في الماضي ، ولا رسوخاً في الحاضر ، بل ابعاداً في قلق المستقبل . فالهموم — هموم الحرية — هي هي بكل مغامرة ؛ والشعر — سليل الكلمة التي كونت الخليقة — هو هو في كل ابجد . ذلك بعض ماقالت لي قصائد (من شعر الكلمات) » .

تدريب معلمي الابتدائي

كان المكتب الدولي للتربية قد اصدر كتاب (الاعداد المسلكي لهيئات التعليم الابتدائي) عام ١٩٥٣ بالاشتراك مع منظمة اليونسكو . ونتيجة لتطورعلوم التربية وتسارع الاكتشافات العلمية من جهة ، والمشكلة الخطيرة الناجمة عن النقص في عدد المعلمين المؤهلين التأهيل اللازم والمعلمين على التقدم الحالي من جهة اخرى ، اقدمت اللجنة المشتركة « يونسكو — المكتب الدولي للتربية » على تكليف هذه المؤسسة الاخيرة القيام بدراسة تدريب معلمي الابتدائي العاملين ، وهذا البحث الاستقصائي الذي نشره المكتب في كتاب (تدريب معلمي الابتدائي) سنة ١٩٦٢ يمكن اعتباره تتمة لكتاب (الاعداد المسلكي لهيئات التعليم الابتدائي) . وقد حصل المكتب من ٨٠ دولة على اجوبة على اسئلته عن الجهات والاجهزة المسؤولة عن تدريب معلمي الابتدائي وعن صفات هذا التدريب وهيئات التعليم التي تفيد منه وعن انواع التدريب وعن المساهمة الدولية وعن مشروعات المستقبل . ترجم هذا الكتاب عن اللغة الفرنسية الدكتور عمر شخاشيرو رئيس قسم اللغات الاجنبية في جامعة دمشق والدكتور بدرالدين القاسم استاذ اللغة الفرنسية في القسم والدكتورة مارسيل عبسي عضو ادارة البحوث في وزارة التربية . نشرت الكتاب في مجلة المعلم العربي اللجنة الثقافية الوطنية السورية بالاتفاق مع منظمة اليونسكو في ٢٧٦ صفحة .

البيت في حياة العرب

صدرت الحلقة الثانية عشرة من سلسلة (تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات) تحت عنوان (البيت في حياة العرب) للباحث عبد القادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . يتألف الكتاب من ٢٥ فصلا في ٩٧ صفحة . فيبدأ بتعريف المنزل ثم ينتقل الى الحديث عن نشأة البيت وتطوره وأشكال البيوت في العالم ومكانة البيت وأهميته واسماء بيوت العرب والكوارث التي تنزل بالبيت ، ويتحدث عن

البيت في الاسطورة والقصص والمعتقدات الشعبية والعادات ، وعن جار الدار ، والمنازل والاطلال في الشعر ، والبيت في القرآن والحديث والدعاء ، وآداب البيت ، وعن البيت في المثل العربي القديم والفكاهة ، وعن الثورة على بكاء الاطلال ، وعن شعر الآثار ورثاء المدن والبيت في المثل والغناء الفراتيين وفي الغناء الاذاعي ، ويختم هذا التحقيق بفصل عن اشكال السكن في وادي الفرات ومشاكله في البادية والريف وديرالزور.

اتحاد الجمعيات النسائية في دمشق
يكرم فقيدة الأدب الرائدة الاولى
ماري عجمي

صدر في ٥٥ صفحة كراس ضم الكلمات والقصيدة التي ألقيت في الحفلة التي أقامها اتحاد الجمعيات النسائية في سورية في ٢٥ نيسان الماضي تأبيناً لفقيدة الأدب ماري عجمي على مدرج جامعة دمشق . وبعد أن يوجز الكراس حياتها (١٨٨٨ — ١٩٦٥) ، يورد الكلمة التي افتتحت بها الحفل عريفته السيدة رمة كرد علي العظمة والكلمة التي ألقتها بالنيابة عن العلامة مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي بدمشق وبرقية الأديب عبدالله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد الحلبية وكلمة النادي الأدبي النسائي للسيدة سعاد سالوم نصير وكلمة الاديب فؤاد الشايب وكلمة الأديب اللبناني رئيف الخوري وكلمة الناقد اللبناني جان كميد وكلمة الأديبة وداد سكاكيني وكلمة الدكتور كاظم الداغستاني وكلمة الاديبة اللبنانية عفيفة صعب وقصيدة الشاعر نبيل ظواهرة وكلمة الشاعر اللبناني امين نخلة وكلمة آل الفقيدة الدكتور جدعون محاسب . وقد زين الكراس بصور الفقيدة ولاسيما الصورة التي أهداها آلها الى جامعة دمشق والتي تبدو فيها في الحفلة التي أقامتها نقابة الصحافة البيروتية وفريق من الشعراء والأدباء والأديبات السوريين واللبنانيين في أحد مرابع بيروت سنة ١٩٢٦ لتكريم الدكتور طه حسين .

صباح ومساء

للأستاذ وجيه بيضون خطة ثابتة في تدبيج آثاره الأدبية ، فهو يختار عنوان الكتاب ثم يقوم بتحليله الى فصول مجرباً عليه ما يروق له من الأساليب الفنية حتى يجف المداد ويشعر أنه أشبع رغبته من هذا العنوان . وهذا ما فعله في كتاب (صباح ومساء) حيث رأى الحياة في اختلاف الليل والنهار ، فبدأ مع الصباح بتطهير الضمير وتقديم المائدة التي تلتف حولها الاسرة ، ثم ينطلق بالسيارة الى عمله في دار الطباعة والنشر ، ويتابع يومياته بين العمال وإرادة التجار والرواد والزبائن والزملاء ، ويمضي في مدرسة الحياة حتى الظهيرة ، ويعيش مع الهاتف ويستخرج عصارة الأيام ويحملها في حقيبة الليل ويحاسب نفسه على واجباته نحو الآخرين بتجرد معنوي ثم يعود الى وطنه الصغير في البيت . وفي نهاية الشوط يسأل الحقيقة : أين هي من الشباب والشيخوخة ؟

فتجيب بأنهاجيتها برمت الحياة جمالاً وخيراً، لاتحمل بسوى الجوهر فليكن الفرع ناعماً ناهداً ولازهر عنده ولا ثمر ، فهو زيف على النبات وكذب على الحياة ، ثم فلتكن الشجرة ماتكون اكتمالاً ، ولكنها السخية فهي صورة ثمرها ايناعاً وثمرة شبابها اهتزازاً واكتمالاً .

صدر الكتاب عن دار مطابع ابن زيدون للطباعة والنشر في ١٤٧ صفحة .

عائد من اوروبا

صدر للاستاذ وجيه جبر كتاب (عائد من أوروبا) في ٧٥ صفحة . ويتضمن انطباعاته وتأملاته الفكرية والادارية أثناء اطلاعه على النهج الاداري المحلي في فرنسا . يصف فيه باريس بشوارعها النظمة وأناسها من مختلف الطبقات والشعوب وثقافتها العريقة ، يتجول في الشانزيليزيه والكونكورد والحي اللاتيني ، ويصور منطقة فاندوم وبلديتها التي تعتبر دولة مصغرة ومقاطعات فرنسا الادارية الاقتصادية والقضائية . وقد استطاع الكاتب أن يؤلف بين اطلاعه على التنظيمات الادارية والمعالم السياحية في فرنسا بأسلوب أدبي ، وان يضع كل لوحة من هذه اللوحات ضمن اطار من تأملاته .

قدم الكتاب الاستاذ حنين راجي جركس بمقدمة عن الثقافة الفرنسية .

الشعراء النوابغ

أصدر الأستاذان أحمد مطاع قباني وأحمد الكردي كتاب (الشعراء النوابغ) ، وضم شرحاً وتحليلا ونقداً لآثار شعراء أربعة يمثلون أبرز النقاط في خط الشعر الجاهلي هم : امرؤ القيس ، أوس بن حجر ، زهير بن أبي سلمى ، النابغة الذبياني . فيوجز حياة كل منهم ، ويدرس نماذج من شعره في الاغراض التقليدية من غزل ووصف ومديح ورثاء وفخر وهجاء وحكمة ، وما امتاز به امرؤ القيس من شعر الشكوى والوجدان ، وزهير بن أبي سلمى في خرياته وأسلوبه القصصي ، والنابغة الذبياني في الاعتذار والشعر السياسي . ثم يشرح الكتاب الخصائص العامة لشعر كل منهم وعيوبه . يقع الكتاب في ٣٥٥ صفحة .

عرس الصحراء

صدر للشاعر الفلسطيني جميل علوش مجموعته (عرس الصحراء) باسم احدى قصائد المجموعة التي تضم ١٩ قصيدة في ١١٠ صفحة . تبدأ المجموعة بقصيدة (الوثبة) ثم يسكر الشاعر بألحان (الفد) ويصيح في وجه (المجرمين) ويلتفت (الى الشعب) ويغني لـ (ثورة تموز) في العراق ويمجد بطولة جميلة بوحريد ، أما (عرس الصحراء) عنده فهو ميلاد النبي العربي . وفي (حنينه) الى دياره لايطربه العود ولاالقيثار بل يذكر (فلسطين) بمناسبة ذكرى اغتصابها ، وينظم قصيدة أخرى (من وحي النكبة) ولا ينسى (تموز في بغداد) سنة ١٩٦٢ ويرى ان الركب قد ضل في بيداء أحلامه فما من درب غير (سراب الغد) وتحف به (خواطر الأمس)

فيهرب منها الى (صورة) بين المروج الخضر ولكنه يقع فريسة الـ (سأم) الذي تنتشله منه (أشواق) الى من أحليها (لبنان) ولعلها (حسناء الحديقة) ، ثم يتوقف الشاعر ليذرف (دمعة على الشباب) وينظم قصيدة (صريع الهموم) في ذكرى الشاعر فهد العسكر. ويختم هذا الشاعر الفذ في الكويت مجموعته بـ (وداع وذكريات) الى الشاعر حسن شرارة إثر عودته من الكويت الى لبنان .

محاضرات الموسم الثقافي ١٩٦٣ - ١٩٦٤

اصدرت وزارة الثقافة الجزء السابع من (محاضرات الموسم الثقافي) ، ويتضمن نخبة من محاضرات الموسم الذي نظمته الوزارة سنة ١٩٦٣ — ١٩٦٤ والقيت في المراكز الثقافية العربية في سورية . وهذه المحاضرات هي :

الملك الشاعر المعتمد بن عباد ، للدكتور جبرائيل جبور .

لم من اسرار لغتنا ، للدكتور جميل سلطان.

خواطر في أدبنا وادبائنا، للاستاذ خليل الهنداوي

الاعلام وتأثيره في الرأي العـام ، للسيدة ذكية الصوفي .

نظرات في الشعر الحر، للاستاذ عبد المعين الملوحي

فن القصة في كتـاب البخلاء للجاحظ ، للدكتور عبد الكريم الاشتر .

أنا الشاعر الدمشقي، للاستاذ عمر ابو قوس

جيلنا والثقافة ، للأستاذ عمر الدقاق .

محاضرة دانتي اليجيري والكوميديا الالهية وعاضرة ادب المهجر ، للاستاذ عيسى الناعوري .

نحو وعي لغوي سليم ، للدكتور مازن المبارك

فلسطين في شعري ، للاستاذ محمد المدناني .

الشيخ طاهر الجزائري ، للاستاذ هاشم الصيادي

خواطر رحلة الى الاندلس ، للاستاذ سامي الكيالي .

يقع الكتاب في ٤٨٠ صفحة .

مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد القومي

اصدرت وزارة الثقافة كتاب (مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد القومي) . وهو دليل يعرف بالمطبوعات التي اصدرتها الوزارة حتى نهاية عام ١٩٦٥ سلسلة سلسلة وكتابا كتابا.من من السلسلة القصصية الى التراث القديم والآداب الجزائري والشرقي والغربي والفكر العالمي وتبسيط العلوم والثقافة الشعبية والثقـافة للشعب ، ومن السلسلة القومية الى سلاسل رواد التحرر العربي وبلادنا والرحلات ،ومن السلسلتين الفنية والمسرحية الى مجلة المعرفة ، ومن مطبوعات النشاط الثقافي والفنون التشكيلية الى مطبوعات مختلفة تعتبر نواة لسلاسل صدرت أو ستصدر مثل (تقاليد الزواج في سورية) و (قصة الجلاء عن سورية) و (رابندرانات طاغور في ذكراه المئوية) و(آثار عبد الباسط الصوفي) و (الحياة العسكرية عند العرب) و (الشمس الغاربة)و (قال الراوي) يقع الدليل في ١٣٨ صفحة .

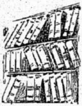
منتخبات من قصائد بيكر

نشر المعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد كتاب (منتخبات من قصائد بيكر) . ويضم الكتاب ٣٢ قصيدة اختارها الباحث الاسباني خوا كين بنيتو دي لوكاس من قصائد الشاعر الاسباني غوستابو أدولفو بيكر (اشبيلية ١٨٣٦ — ١٨٧٠) . وقدم لها الشاعر نزار قباني والباحث الاسباني دي لوكاس ، وترجمها الى العربية الاستاذان سامي ديب وجورج سرحان .

قال الشاعر قباني في شعر سلفه الاسباني : « كانت كلماته اشبه بالتيار العالي التوتر ، أشبه بنزيف جرح طازج ، لذلك رفضه عصره . لان بساطة التعبير لديه لم تكن تأتلف مع رومانسية الشعر الاسباني في تلك الحقبة بأدائها المسرحي ومساحيقها اللغوية المبالغ بها . . وانتصر بيكر — بعد موته مع الأسف — على ترمت عصره وتعصبه ، وأصبحت الشبيبة الاسبانية تردد اناشيده كأنها كلمات كتاب مقدس . . تسع وسبعون زهرة . . . هي كل ماتركه هذا الشاعر الحزين وراءه . . ولكنها كانت كافية لتعطر بستان الأدب الاسباني كله بعطر لايشبه أي عطر آخر . . »

يقع الكتاب في ستين صفحة .

. . .



● شكلت لجنة برئاسة وزير الثقافة والارشاد القومي والسياحة لوضع الترتيبات الخاصة باستقبال الوفود الجزائرية وبرامج الاحتفالات التي ستجري في الرابع من تموز الحالي بمناسبة نقل رفات البطل العربي الأمير عبد القادر الجزائري من دمشق الى الجزائر. ويصادف هذا الموعد أيام الاحتفال بعيد الاستقلال وأعياد الرياضة والشباب في الجزائر. يشترك في الاحتفال فرق فنية ورياضية جزائرية وسورية ويحضره ممثلون عن الدول العربية والصديقة. قامت بعثة تلفزيونية جزائرية بتصوير الاماكن التي كان يعيش فيها هذا البطل ويتردد عليها في دمشق وكذلك مخلفاته الشخصية التاريخية، كما صورت الاماكن التي كان يتردد عليها في لبنان ولاسيما البيت الذي جرت فيه مبايعته لمواقفه البطولية المشرفة اثناء فتنة عام ١٨٦٠.

● في ٢ تموز تبدأ الدورة الجديدة في مراكز الفنون التشكيلية في دمشق وحمص وحماه وحلب. واقيمت في هذه المراكز معارض لانتاج المنتسبين خلال الدورة الماضية. ضم معرض مركز دمشق ٤٥ لوحة رسم وتصوير، ١٣ لوحة حفر على الزنك، ١٨ لوحة حفر على الينوليوم، ١٥ تمثالاً.

● افتتحت وزارة الثقافة في صالة الفن الحديث المعرض الرابع للوحات الفنان نعيم اسماعيل.

● أقيم في المركز الثقافي العربي بدمشق المعرض السادس لجمعية أصدقاء الفن. ضم المعرض تمثال الحصاد للنحات عبد اللطيف الشلبي و ٣٨ لوحة للرسامين أحمد وليد عزت، بديعة قواس، بطرس خازم، جورج جنورة، زياد شاهين، سالم الشوا، سليم عشموش، سميرة سهاد، عبد اللطيف الشلبي، عدنان كوكش عاصم باشا، فاروق الحرستاني، لمياء الشملان، محمد عيد الماشي، محمد وجيه مدور، ملك مطر، ناجي عبيد، نزار السوري، وليد صفراوي.

● ألقى الدكتور أنيس الشعراني محاضرته (نظرات في الاشتراكية) في المركز الثقافي العربي بدمشق.

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

بقلم: فؤاد الشايب

أفكار التخطيط الديموقراطي في فرنسا — لا تناقض بين الديموقراطية والتخطيط — الخطة منطقة لقاء وسلام بين الاطراف صاحبة المصالح — بناء جهاز التخطيط وآليته — موقعه بين السلطة السياسية والادارة — خصائص الخطة الفرنسية، ووظائف مفوضيتها.

يفاخر الفرنسيون من علماء اقتصاد، واجتماع، وانظمة حكم، بأنهم رواد التخطيط في اوروبة، وفي العالم الغربي اجمالاً، ويؤكدون أن محاولة ترسيخ الخطة عاماً بعد عام، وخمسة بعد خمسة، عقب الحرب الكونية الثانية، وعبر التجارب العملية، والبحوث النظرية، قد اغنت الفكر الاقتصادي الليبرالي في العالم، وطورته وارست قواعد مدرسة جديدة، قبست عنها عدة دول مثل بريطانيا، وهولاندا وايطاليا، واليابان، وبلجيكا، وكندا، وبقدر ما — الولايات المتحدة الأمريكية — وان هذه الدول، بينما تتدرج في ادنى درجات المحاولة، بلغت فرنسا بها شوطاً،

ان لم يكن بعيداً ، فهو شوط سبق ودلالة .

فالتخطيط الفرنسي ، ليس مجموعة دراسات لرصد جانب مظلم في مستقبل الاقتصاد ، كما رغب له الرؤساء الأمريكيون منذ روزفلت وايزنهاور ، وليس مجلساً استشارياً ، على الطريقة الهولندية ، او الألمانية الغربية ، بل هو ، في فرنسا ، دراسة ، واستشارة ، وبلوغ هدف ما ، بين الأطراف المصلحية والتزام الدولة به ، وتنفيذه ـ معاً .

ان مالا يمكن تنفيذه من المقترحات ، والحلول ، وادوات التنفيذ يغدو في سجلات جهاز التخطيط ، مادة ثقافية دلالية . وما يمكن تنفيذه ، بعد قراع الرأي وقراره ، يغدو مادة في صلب سياسة الدولة .

الأطراف في وضع الخطة ، اذ تتقارب على قرار اجماعي ، هي التي تيسر تنفيذه ، لمجرد انها هي التي صنعته . وبهذا فجهاز التخطيط ان لم يكن إمرة فوقية كما في التخطيط الاشتراكي الحاد ، تشمل الأدنى والأعلى ، وتخضع اخضاعاً مبرماً كليا ، فهو في اقل تعابيره صلاحية وتبعة. وصاحب الصلاحية ، صاحب إمرة في حدود ماهو صاحب مسؤولية ، رضيها لنفسه ورضي له بها سواه . فالديمقراطية لاترفض التخطيط ،والتخطيط لا يتحدى الديمقراطية ، بل الديمقراطيةوالتخطيط، هما كلتا الصيغة الفرنسية الجديدة لتوجيه الفعاليات الاقتصادية ، نحو التوسع الاقتصادي ـ التقدم ـ ونحو الاصلاح الاجتماعي ـ العدل ـ (*).

لا تنبع ضرورة التخطيط من منبعي التقدم والعدل فحسب ، بل من حاجة قارعة ، الى رصد حركة المستقبل بالعلم ، في الفلك الكوني الدوار . ان الاقتصاد الحر على الطريقة الليبرالية السائبة ، يؤمن بأنه ملتق بالتقدم والعدل ، التقاءاً عفوياً، كالتقاء السعادة بالأطفال في منتصف ليلة الميلاد . وقد قرر الواقع الاقتصادي والاجتماعي ـ كما سبق وشرحنا ـ ان هذا اللقاء خرافة، ووعد اسطوري . كذلك ، يزعم الاقتصاد الحر السائب ، أن كشف

(*) الحلقات الاولى والثانية والثالثة من بحث التخطيط الديموقراطي .

المستقبل ، رهين بسعي الحاضر . وقد كذّبت الأزمات الكاسحة ، في كل من اوروبة وامريكا ، أن للمستقبل حساباً في دفاتر المغامرات ومطاردة الأرباح . وجاء العلم يضع تقنياته البارعة تحت تصرف الانسان، ليرصد نجمه رصداً في قبة مستقبله، فلماذا تعرض الليبرالية عن استعمال العلم لتهييج مرافق المستقبل، وتوجيهها ، بحجة الحرص على الحرية ، والمبادءة الفردية ؟ اذن فالليبرالية نظرية عتيقة ، ادنى ما في عنادها ، أنها ضد العلم ، والتقدم . ولا يعفيها ازوارها عن العدل، والانتاج أنها تنتصر للحرية .

التخطيط ، كما يراه الفرنسيون ، دعوة عامة الى صنع قدر كبير او صغير من مستقبل الاقتصاد القومي . انه عمل جماعي ، يخضع قرارات الأشخاص الطبيعيين ، والاعتباريين ، لهدف محدد متماسك ، ولأجل مقرر . انه من عمل جهاز الدولة ، وأهل العلم والخبرة ، والعمال ورجال المال مجتمعين في جهاز بحث وقرار . والجهاز لايسخر العلم ، بل يأنس به وبالخبرة . كذلك فليس هو ليتبنى صراع اطراف الصالح ، عمالاً واصحاب مال ، بل يجمعهم على طرف مايصح أن يجتمعوا عليه ، بتوجيه رجل الدولة وتشجيعه ، وبارشاد رجل العلم والخبرة ومضاء حجته . وبينا الخطة وفاق موقوت ، تبقى الساحة العامة مفتوحة لحرية الصراع ، ولحق المنظمات المصلحية، في متابعة مصالحها .

قد يكون التخطيط ، على ماوصفنا ، امتصاصاً لبعض الصراع المصلحي في دورين متعاقبين : دور الالتقاء ومقارعة الحجة بالحجة ، والمصلحة بالمصلحة، فيغدو الصراع بالالتقاء ، مقارنة آراء وتلاحم أفكار . ودور الانتفاع بحصاد الخطة بعد أجل ، حيث يشعر الاطراف بوجود قاسم مصلحي مشترك ، يزيد من همة الاقبال على التخطيط المشترك . فالخطة ليست كما يبدو أداة انتاج وتوزيع فحسب، في النظام الديمقراطي المشرع للتناقضات ، بل منطقة سلام ايضا ، في خضم العجاج وزحمة السباق .

ان الفرنسيين يكاثبونها بحذر — الخطة واحيانا كثيرة بقلق ، أثلا يلتهم نجاحها ، ذات يوم ، طبيعة النظام التقليدي الحر ، الذي يقولون ان الحضارة الغربية

انفلقت منه ، بعد أن تكونت في احشائه . ويبدو ان الجو السياسي في اعقاب الحرب الثانية ، وقد خرجت فرنسا منه الى تجربة برلمانية جديدة ، قد كفل اطفاء شطر كبير من المخاوف ، وعزل انصار القلق والتهويل ، نحو جناح اليمين الفرنسي المعروف بعناده واصراره على تقاليد الليبرالية العتيقة .

جهاز الخطة وموقعه السياسي والاداري

فلنلق الآن نظرة على جهاز تنظيم الخطة الفرنسية ، في موقعها الجغرافي بين السلطة السياسية ، والادارة ، لنتمكن من مشاهدة تنفيذ ما عرضنا اليه من أفكار وآراء ، في اطار التنفيذ العملي ، والممارسة الفعلية .

في البدء يشير دارسوا الخطة الفرنسية الى ضآلة حجم الجهاز التخطيطي ، وضمور موازنته * ، بحيث يبدو للوهلة الاولى أن هذا الجهاز ادارة هامشية في جذع السلطة السياسية — مجلس الوزراء — والادارة العامة .

على ان هذا الجهاز الصغير ، لايلبث ان يتخذ موقعه الفعلي في ابعاد علاقاته المعقدة عندما يصله تنظيمه الخاص بأجهزة الدولة السياسية والادارية ، بله اجهزة الفعاليات الاقتصادية والفنية فهو ، في تركيبه الشكلي ، جهاز لايوحي بضخامة الإمرة ، وثقل السلطة . وهذا هدف مقصود منذ بدئه ، تميزاً له عن جهاز التخطيط الاشتراكي المطلق .

ان لهذا الجهاز برغم ضآلة حجمه ، نوعاً من الاستقلال الحركي ، ازاء السلطة السياسية التي تحتضنه ، كمنظمة ادارية ذات صلاحية . لأن من طبيعة الادارة في النظام الفرنسي ، ألا تمحي ولا تتخلخل ، أمام السلطة السياسية ، وما يتعاورها من تبدل الحكام والحكومات . وبهذا تتميز الادارة الفرنسية عن الادارة البريطانية — مثلاً — التي تضع نفسها كلياً في قبضة الحاكم السياسي الوافد . ففي رحاب هذا الجو الاداري وبالتعاون مع وحداته ،

(*) يذكر P . Bauchet في كتابه التخطيط الفرنسي أن ملاك المفوضية العامة للخطة عام ١٩٥٦ يوظف مئة موظف من المفوض العام الى الآذن . بموازنة لاتزيد عن ١١٣ مليون فرنك تعتبر بين اصغر موازنات الادارة . وقد ارتفع عدد الموظفين حوالي عام ١٩٦٠ الى بضع مئة وخمسين موظفاً .

تمت تجربة التخطيط الفرنسي خلال عشرين عاماً وتطورت عبر تزايد نمائها، دون أن يتضخم جهازها تضخماً كبيراً.

ان المفوضية العامة للخطة الفرنسية — واجهة الجهاز — هي بالواقع جزء من ثلاثة اجزاء ادارة الخطة: اولها الادارة الدائمة للعمل، وثانيها المفوضية العامة، وثالثها اللجان، وادارات الاشراف، كالمجلس الأعلى، وكاللجنــــة الوزارية. وغيرها من التجمعات التي تنضم للخطة باعضائها غير التابعين للمفوضية. فليس المئة والخمسون موظفاً في المفوضية هم الذين يؤلفون مادة الخطة الفقرية، بل يشارك في هذا التأليف عملياً اكثر من ثلاثة الى اربعة آلاف مسؤول، اداري وفني.

وليس جهاز المفوضية بإداريه القلائل فحسب، بل بجهـاز مستشاريه الفنيين الذي يؤلف عدداً من كبار رجال العلم والاختصاص: مهندسون زراعيون، مهندسون صناعيون، مفتشـو اقتصـاد ومال، جغرافيون، جامعيون، اختصاصيون بما وراء البحار، مشرّعون، رجال ادارة عالية، اقتصاديون. وجميعهم يتوزعون العمل في مناطق اقتصادية مختلفة: الزراعة، الكيمياء، البنـاء، الطاقـة، صناعة التحويل، ماوراء البحار، التعدين، النقل والمواصلات. عدا الوحدات الاخرى التي تعالج اقتصاد التمويل، واليد العاملة، والتنمية الاقليمية، والانتاجية العامة، بالاضافة الى مصـالح الجهاز الاداري، واعداد الوثائق.

ولعل أهم آلية محرّكة في جهـاز ادارة التخطيط، هي مجموعة اللجان المسماة لجان التجديد أو التحـديث - modernisation de - C وهي هيئات تعد تقارير الخطـــة ودراساتها ومختلف الآراء والاتجاهات ممثلة اصحاب المصـالح والخبرات. وتؤلف في موسم وضع كل خطة جديـدة، من رجال الادارة والمهنيين، والنقابيين العمال والفلاحين، بمرسوم يوقعه رئيس الوزراء، بناء على اقتراح المفوض العام، الذي ترفع اليه دراساتها في كل قطاع عهد به اليها. والمفوض من بعد، مسؤول باجزائه الاستشارية الفنية عن تمحيصها والتنسيق بينها، والتأليف بين متناقضاتها والبلوغ بها مبلغ المادة الصالحة

لصالح الخطة . هذه اللجان تمثل عن حق الجانب التعاوني بين رجال السلطات العامة واعضاء الهيئات المهنيـــة الاجتماعية . وبتعبير اقل طموحاً انها تجمع آراء المعنيين في اجهزة الوزارات ، واتجاهات ارباب العمل والعمال والخبراء ، دون ان تمثل تمثيلاً رسمياً مصالح هؤلاء مجتمعين . بمعنى أن رأي الخبير للخبرة ، ورأي الاداري للادارة ، ورأي العامل للعمل ، دون ان يلزم هؤلاء اداراتهم ووزاراتهم ونقاباتهم ، ومنظماتهم . كذلك فان من مميزات اعمال هذه اللجان أنها لاتطمح الى الحصول على قرارات بالتصويت ، كما يجري في المؤسسة البرلمانية ، بل تحاول بلوغ الاجماع في الرأي ، بـــين مختلف الاطراف في شؤون عريضة المناوين. كذلك لايعنى في تأليف هذه اللجان بالنسب الحجمية للمنظمات والهيئات المراد تمثيلها ، لكي يمكن تجنب المحاذير السياسية التقليدية في التمثيل الديموقراطي*.

بعض هذه اللجان عمودي ؛ مختص بفرع من فروع الانتاج ، او بالتوظيف العام في فروع انتاجية كبرى كالطاقة ، والنقل ، والتجهيزات الثقافية . وبعضها أفقي ، يعنى بشؤون عامة كالتمويل،واليد العاملة ، او شؤون تتناول فروعاً انتاجية مختلفة . وبعضها منقطع الى معالجة قضايا القدرة الانتاجية العـامة ، والبحث ، ومرافق الاقاليم . وتوزع اللجنة عادة اعمالها بين مجموعات متفرعة عنها ، تضم أعداداً اضافية من خبراء المرفق المعني بالدراسة والتقرير ، وممثليه الذين يبلغ عددهم احياناً في كل مجموعة ستين شخصاً. وغالباً ماتقر اللجنة اعمال مجموعتها الفرعية او تعدلهـــا تعديلا يسيراً توجيهياً . ولـكي يضمن ضبط الأعمال في اللجـان ومجموعاتها ، فان الخطوط العامة للمعالجة وتقرير اهـــدافها ، تلقى اليها من قبل (مصلحة الدراسات الاقتصادية والمالية) في وزارة المـال ، بالاتفاق مع مفوضية

(*) أعدت اعمال الخطة الفرنسية الرابعة تسع عشرة لجنة . وارتفع عددها في الخطة الرابعة الى ثلاث وعشرين . وبلغ مجموع اعضاء اللجان ومجموعاتها الفرعية ، الذين شاركوا في تأليف عمود الخطة الرابعة ثلاثة آلاف ومئة وسبعة وثلاثين .

الخطة ، بحيث يتوافر الانسجام ، وفق هذه المبادىء العامة ، بين اعمال مختلف اللجان ، ذات الاختصاصات المختلفة ، فيتيسر من بعد ، تنسيقها ، والتوفيق بينها.

فوق هذه اللجان ، وجمهورها الآني المختار للبحث والتقرير ، تقوم هيئتان : المجلس الاعلى لخطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، واللجنة الوزارية ، لوضع مشروع الخطة في الصيغة التي يدرسها مجلس الوزراء مجتمعا . ويتألف المجلس الاعلى من عشرين عضوا يمثلون الادارة والخبرة واطراف المصالح الاجتماعية المهنية على شاكلة التمثيل في احضان لجان التحديث بمستوى أعلى . وتتألف اللجنة الوزارية من معظم وزراء الوزارات التي تمس الخطة صلاحياتها ومشاريعها .

واذ يبدو في ظاهر هذا الهيكل التخطيطي المتداخل ، ان مفوضية الخطة ليست سوى وظيفة ادارية كبرى ، بين سواها من وظائف الدولة، يحسن التأكيد أن المفوض العام ، قد منحه القانون منذ عام ١٩٤٦ صلاحيات وصفات استشارية وادارية وتنفيذية ، غير عادية ، مالبثت تتوسع وتتعمق مع تضخم تبعات التخطيط وامتدادها .

فهو المعهود اليه قانونا بتنسيق السياسة الاقتصادية الفرنسية . وهو يحمل صفة مندوب رئيس الحكومة الدائم لدى الدوائر الوزارية، في كل مايخص اقامة الخطة . وان تكن صلاحياته تتقاطع مع صلاحيات لجان التنسيق والتوحيد الوزارية، فهي متممة لها وموسعة . وللمفوض العام حظوة الرأي الاول لدى وزارتي المالية والاقتصاد ، حيث تتمركز الجلة العصبية للسياسة الاقتصادية . وهو ان يكن مرتبطا بالوزارتين ، يبقى تابعا لرئيس الوزراء ويجلس مع الوزراء الآخرين حول مائدة مستديرة . وعضويته مستمرة في مجموعة من المجالس واللجان الكبرى التي تعنى بالبحوث ، والاحصاء، والتنسيق، وتقرير السياسة المالية، والتنمية الاقتصادية .وعلى الصعيد التشريعي ، فهو مستشار اللجان البرلمانية .

وعند اعداد قاعدة الخطة الخمسية وتحديد اهدافها ، يباشر وظيفته وجهازه بارتباط وثيق مع وزارات الدولة ، وعلى

الأخص وزارة المالية حيث يتواصل خبراؤه وخبراؤها في تبادل وجهات النظر المالية والاقتصادية . ومن المصالح الرئيسية التي يتحتم عليه التعاون معها: مصلحة الدراسات المالية والاقتصادية في وزارة المال ، والمعهد الوطني للاحصاء والدراسات الاقتصادية . والمعهد الوطني لبحوث الجماعات البشرية . ومركز البحوث والوثائق عن الاستهلاك . ويتم عبر هذه المؤسسات العلمية الاحصائية الراسخة رسم المنظورات والتوقعات الاقتصادية والمالية والاجتماعية .

وبهذا يتضح أن مفوضية الخطة ، هي نقطة التقاء الاعمال الادارية من اعلى السلم الاداري والسياسي ، بالاعمال الأهلية من ادنى السلم حيث اللجان وتجمعاتها ، كما وصفنا . وهي مسؤولة عن تكثيف مادة الاعمال كلها ، وتركيزها ، بحيث يتاح للسلطات العليا ان تقرأ في كتاب مفتوح ، اوصاف الحالة الراهنة ، وامكانات المستقبل ومنظورات الحشد التخطيطي ، وأن تقدر بلا عسر نسبة زيادة الانتاج المئوية للمرحلة الخمسية القادمة ، وما يلازم هذه الزيادة من توظيف ، وما يترتب عليه من تنظيم حرصاً على تماسك اجزاء الخطة ، وتوازن جيوب الدولة .

وعندما تبلغ المفوضية العامة بمشروع الخطة مجلس الوزراء الذي يخضعه لشروط التحكيم السياسي ويبت في صراع المصالح ، تخرج ثانية بالمشروع الى المجلس الأعلى للخطة ، والى المجلس الاقتصادي والاجتماعي منعقدين في جلسة مشتركة عامة ، لاقراره بالصيغة التي يقدم بها الى الهيئة التشريعية الماثلة في مجلسي النواب والشيوخ ، حيث تصبح الخطة ، قانوناً .

يتضح من عرض الملامح العامة لتنظيم الخطة ، دون تفاصيله المعقدة - التي لا تعني سوى الاختصاصيين - أن ادارة الخطة ليست مجرد وظيفة ادارية كبرى في جهاز الدولة . بل تتعدى ذلك الى التماس المباشر بالصلاحيات الوزارية ، التي دهمتها الخطة في عقر دارها ، وبالمراكز السياسية المسؤولة التي تباشر التحكيم النهائي في تقرير سير الخطة ، تحت تأثير مفوضية التخطيط ، والجهاز المالي معاً .

ومهما يكن شأن الصلاحيات المنوطة بالمفوضية من حيث النص القانوني بأن المفوض العام هو مندوب رئيس الحكومة، ومنسق السياسة الاقتصادية الفرنسية، فان التخطيطيين الفرنسيين يعترفون بأن المفوضين العامين، على التعاقب منذ عام ١٩٤٤ لم يستطيعوا أن يمارسوا هـــذه الصلاحيات، ولم يزعموا قط أنهم مثلوا رؤساء، وأن في قبضاتهم وحدهم تكمن طاقات التنسيق. بل كانوا أميل الى الحذر منهم الى المغامرة، لا سيما في تعاملهم مع وزارة المال التي تفاقم امرها، وتوسعت دوائر نفوذها، بعد الحرب العالمية الثانية. وكذلك، ليس بوسع المفوضين الا أن يرضخوا لتقـــاليد الوزارات الأخرى الحريصة على شبكات نفوذها، فلا تسلم بقدر منها الى الخطة الا بالرضى والحسنى. كذلك تصطدم الخطة بمجموعات من الامتيازات الممنوحة لبعض المؤسسات الوطنية. يضاف الى هذا كله، ما عرف من جفاء الهيئات المالية الكبرى، والمشاريع الخـاصة، والقوى السياسية، لفكرة التخطيط من اساسها.

لذلك يقترح التخطيطيون، أن تعزز ادارة الخطة، بخلق بنيات ادارية سياسية جديدة، تمكن جهازها من مباشرة صلاحياته المرسومة في القانون، مباشرة كاملة. مثال ذلك أن تنشأ هيئة وزارية عليـا، من وزراء مرافق كبرى، يرئسها وزير للخطة، - لا وزير المال - وتلحق بها اجهزة الخطة، واجهزة منظمة استصلاح الاراضي، واجزاء ادارات الخزينة، والموازنة وتسند اليها الحق في معالجة القضايا الكبرى، ذات الانعكاسات الاقتصادية، ومن بينها مطالب الدفاع الوطني نفسها التي كثيراً ما تتملص من قبضة الاعتبارات المالية.

كذلك يقترح التخطيطيون، تعزيز سلطات المجلسين الأعليين: المجلس الاقتصادي والاجتماعي، ومجلس الخطة. الاول في توسيع مدى نفوذه كسلطة استشارية، حتى اللجان البرلمانيـة - بله المراجع الحكومية، ليؤدي دوراً فنياً وسياسياً معاً في دعم الخطة، فيلزم تعديل تكوينه ليغدو اكثر تمثيلاً للمصالح النقابية المهنية، والعمالية، وللخبرات معاً وارجح بدأ في

معالجة القضايا الاساسية من سياسية الى عسكرية الى شؤون ماوراء البحار. فلا يقتصر، كما هي الحال الآن، على معالجة نسبة الزيادة الانتاجية في كل مرحلة من مراحل الخطة.

والثاني في تعزيز اتصالاته بالاطراف المصلحية، التي تساهم في تنفيذ الخطة، بالرضى وبأساليب التشويق والمكافآت، والقروض، وبذلك يتيسر للمجلس ان يحسن الاشراف على تنفيذ الخطة عاماً بعد عام، وتقرير العقبات الماثلة واقتراح التغلب عليها. وفي هذا ادق وظائف ادارة الخطة ومهامها.

والخلاصة فان التخطيطيين يرمون الى هدفين رئيسيين من اصلاح ادارة الخطة وتعزيزها: الاول في دمجها بالادارة العامة كسلطة تحكيمية، لا كوظيفة مسلكية، وبالتعـــاون والانسجام، مع الادارة لا بالفرض والزام النصوص وحدها. والثاني في تعزيز قاعدتها الشعبية الماثلة في مئات الاعضاء في (لجان التحديث) بحيث يتاح لها ان تتعدى صياغة خطة سليمة، الى اتقان تنفيذها تنفيذاً طوعياً، بالتعاون مع الهيئات الأهلية، والمؤسسات الخاصة.

ان اقامة هيكل تخطيطي فعال، بين اجهزة نظام ديموقراطي برلماني، تسوده مبادىء الحرية الفردية، مشقة من مشاق المحاولات الديموقراطية التي تتنازعها الجماعية والفردية من جانبيها وهي في قبة الميزان تحاول معادلة الكفتين، والاستقرار على وسطية عاقلة بين جانبي تدخل الدولة من جهة، والحرية الفردية من جهة ثانية، مع شرط بقاء حركة الصراع في الساحة العامة، ابقاء على روح النظام الديموقراطي ومسلماته.

ولكي نلم الماماً اكثر دقة بصعوبة هـــذا التوازن التخطيطي بين القوتين الجاذبتين، لاغنى لنا عن انجاز هذا البحث بدراسة مضامين الخطة الفرنسية واهدافها وادوات تنفيذها، بعدما المنا بملامح تكوين جهازها وموقعهـــا الاداري والسياسي.